

فنون التحرير الصحفي  
بين الأصالة والمعاصرة



البحر الحرف

الأوب

د. محمود زرقع





فنون التحرير الصحفي  
بين الأصالة والمعاصرة

١

# أدب الحروف

## من زاوية صحفية

دكتور محمود أدهم



**بسم الله الرحمن الرحيم**

**« ... ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله**

**ذو الفضل العظيم »**

**« صدق الله العظيم »**



## بسم الله الرحمن الرحيم

### تقديم

بسم الله ويعونه تعالى ، نبدأ هذه السلسلة الجديدة وهي الثالثة من سلسلة مؤلفاتنا ، تلك التي رأينا أن تكون تحت عنوان : « فنون التحرير الصحفي » بين الأصالة والمعاصرة » ٠٠ بعد أن أخذت الأولى اسم : « فنون التحرير الصحفي بين النظرية والتطبيق » ٠٠ وأخذت الثانية اسم : دراسات في صحافة المجلة » .

وهذه السلسلة الجديدة ، تقوم على فكرة تقول : إذا كانت كثرة من مؤرخي الأدب والصحافة ومن المؤلفين عامة في الميدانين يعودون بهما الى الأصول والجذور الأوربية ، ويغضون الفكر والنظر عن غيرها في أحوال كثيرة ، فإن باستطاعة التراث الفكري العربي الأصيل والثري والذي لا ينضب معينه أن يقدم هو الآخر ، ما يثبت أن كثيرا من فنون وأنماط وأطر الحاضر الاتصالي الصحفي كانت لها جذورها ، بل ومقدماتها وطلاتها - الأكثر تقدما في أحيان كثيرة - تلك التي رصدتها وتابعتها وحررتها وسجلتها ونشرتها منذ مئات السنين ، أقلام عدد غير قليل من رواد الفكر والأدب والثقافة العربية ٠٠ وظهرت بين سطور إبداعهم .

إننا - كعرب ومسلمين - أصحاب حضارات عظيمة أخلاقية وأدبية وفنية وعلمية وإنشائية كبرى ، فلماذا لا نستلهم هذه الألوان كلها ؟ نعم لماذا لا نستلهم هذا التراث العظيم الزاخر ، مايعنا نحن أصحابه ؟

ومن هنا ، فقد تركلت على الله ورحمت أغوص في محيط هذا التراث ، أنظر هنا وهناك ، وأقرأ وانتقى وأدقق وأقارن وأحلل ، فيزداد يقيني بقيمته من زاوية اتصالية وأدبية معا ، وتأخذ بي كتابات كثيرة أشرت الى بعضها إشارات عديدة ، في مؤلفات سابقة لي ، ترى ٠٠ هل كان باستطاعتي تجاهلها ؟

لكن ٠٠ وحتى قبل هذه السنوات ، فإن اسما من الأسماء لم يشدني الى إبداعه ، من منظور إعلامي صحفي ، ولم يقطع الطريق على أثناء دراستي

لفنون التحرير الصحفي .. كلها ، فتقوم كتاباته بعمل « اختراق » قوى ، لما أفكر فيه ، وما اتناوله من مادة اخبارية ، أو موضوعات أو قصص أو تقارير أو مقالات صحفية .. مثل هذا الرجل الموسوعي المكون من عدة رجال ، والذي كان وراء الكثير من الجديد المتطور الذى دخل الى لغتنا العربية والى أدبنا العربى فكرا وموضوعا ، مفردات واسلويا ، ومن ثم فقد رايت أن أقف عنده ، بغية تقديم ما يتصل بهذا الجانب ، وأصبح ذلك الاحساس يصاحبني كثيرا ، ويدفعني الى المزيد من التعرف على هذا الرجل ، والتوغل فى عالمه الموسوعي ، من أجل الهدف نفسه .

ثم عاد « الطارق الجاحظى » يلح على يعنف ، ويترك باب فكرى بشدة وأنا أقوم بجمع مادة رسالتى للماجستير وكان موضوعها : « فن التحقيق الصحفي المصور » .. حيث تأكد لى أن بعض كتابات الرجل ، يمكن اعتبارها من بين جنود هذه المادة القياسية ومقدماتها فى أدبنا العربى .. بل أن دراساتى التحريرية التالية لهذه الدراسة والتي تناولت عددا من الفنون الأخرى .. جميعها راحت تؤكد هذه الرؤية ، بشكل أو بآخر ، وإن اختلفت المسافات بين الكتابات الجاحظية ، وبين هذه الفنون ، فهى حينما تقف بالقرب الشديد منها ، وفى حين آخر تقترب منها فقط ، وفى حين ثالث تبدو بعيدة عنها ، لكن هذا البعد ليس تاما ، ولا كاملا ، وإنما يمكن أيضا رؤية عدد من وجوه الشبه أو العوامل المشتركة .. بالعين المجردة ، فضلا عن أن هذا الاختلاف ، هو من طابع الجذور والمقدمات ذاتها ، وذلك بصرف النظر عن عنصر « الطباعة » واستخدام بعض التعبيرات الصحفية الحديثة ، وما يتصل بالعصرين ، عصر الرجل وعصرنا من فروق عديدة ، وما الى ذلك كله ..

ولم يكن لى ، ولا كان باستطاعتي أن أنتظر أكثر من ذلك كله ، لا سيما وأنا أرى بعض ما قدمت من مادة علمية صحفية ومن أفكار جديدة تماما ، أو ما تناولت من أفكار معروفة ، من أكثر من زاوية جديدة ، ومن خلال أكثر من رؤية جديدة - والحمد لله وحده - أرى بعضهم وقد راح يختلسها أو يبتزها ، ويستحلها لنفسه دون اشارة ، أو باشارة باهتة عقيمة الى قلة قليلة مما يأخذ ، أو يثبت نفس مصادري أو بغير ذلك من أساليب ملتوية وغير صحيحة .. نبهت اليها فى كتب سابقة ، ونبه « الجاحظ » اليها منذ أكثر من عشرة قرون !! ..



ومن هنا فقد رأيت أن تخرج هذه الصفحات إلى النور ، تلك التي أريد  
أن أقول بشأنها :

● أننى أعرف تماما ، وربما أكثر من عديدين ، أن الأدب أدب ،  
وأن الصحافة صحافة، لكننى أيضا، ومن خلال دراسات عديدة ولقاءات متصلة  
مع أصحاب التجربة الصحفية الحية والثرية ٠٠ أعرف كذلك أن للاعلام  
بلاغته ، وأن هناك ما يمكن أن نطلق عليه اليوم ، وما سوف نطلق عليه غدا :  
« الأدب الصحفى » ، وهما « بلاغة الاعلام » من جانب ، و « الأدب الصحفى »  
من جانب آخر لابد وأن تقوم صلات النسب والقرباة ، بينهما وبين البلاغة  
بمعناها الأدبى ، لأنها المعين الأساسى لهما .

● ثم ٠٠ هل هناك ما يمنع - حتى اليوم - من أن يكون بين أعضاء  
الأسرة الصحفية ذلك الرجل الواحد الذى يجمع فى شخصه الواحد ، بين  
الأديب وبين الصحفى ؟ على الرغم مما فى ذلك من صعوبة يبررها هنا أنه  
لا يكون شخصا عاديا ، أو محررا عاديا ، وإنما من هذه القلة ، أو القلة  
النادرة من الموهوبين والمبدعين ؟!

● انه لا يمكننى ولا أستطيع ولا أقدر ٠٠ أن أنزع عن الجاحظ  
صفته الأدبية ، أو حتى أقوم بالمحاولة ، لأضفى عليه الصفة الصحفية ٠٠  
إنما أنا أقول فقط أن أديب العربية الأكبر ، كان له جانبه الذى يمكن أن نطلق  
عليه أنه « جانب صحفى » ، وكانت له أفكاره وتوجهاته واهتماماته التى يمكن  
أن نقول عنها أنها كانت « صحفية » وفق التعبير الحديث ، والتى سبق بها  
غيره .

● أننى أقول ، أن هذه النتيجة التى توصلت إليها ، والتى رحت  
أعدد مقدماتها وشواهداها خلال صفحات الكتاب ، يمكن أن يتوصل إليها  
أيضا كل دارس ومهتم بأدبه ، إذا كان على قدر كاف من المعرفة بالصحافة  
عامة ، وفنون التحرير الصحفى وتاريخها وأسسها وقواعدها خاصة ، وبالمثل  
يمكن أن يتوصل إليها كل دارس ومهتم بهذه الفنون الأخيرة ، إذا مد بصره  
نحو التراث الجاحظى ، وحاول ونجحت محاولته فى الاعتراف من معين فكره  
وعلمه .

● لكننى بنفس القدر ، استبعد ان يوافقنى حتى على قليل مما جاء خلال الصفحات القادمة .. ولا اطمع فى ذلك ، رجل لم يعرف الجاحظ حق المعرفة ، ورجل لم يعرف الصحافة. على نفس القدر .. او اقل منه قليلا .

● ومن هنا فانتى وان كنت اقدم الدعوة الى كليات ومعاهد واقسام الاعلام وعلوم الاتصال والصحافة بالعالم العربى ، من اجل العناية بدراسة امثال هذه الموضوعات وتدريبها أيضا ليربط الماضى بالحاضر ومن أجل استلهاهم تجارب السلف وتتبع آثارهم ووضعها فى مكانها الصحيح ، فانتى أوجه كذلك الدعوة نفسها الى رجال اللغة العربية وادبها ، هؤلاء الذين اطمع فى عونهم وضافاتهم من أجل تاصيل عربى لفنون التحرير الصحفى ، ولاشك انهم أكثر منى قدرة على ذلك ، وأصبر عليه ، وأجدر به .. وكلانا هنا يكمل الآخر ، ولا يعارضه او يسلبه حقه ..

على اننى أقول أن هذا الكتاب ليس منتهى الأمل بالنسبة للتراث الجاحظى ، فهو ككل كتاب آخر لابد وأن تعتوره جوانب نقص هى من طابع البشر والكمال لله وحده سبحانه وتعالى ، ومن ثم قلنا عودة الى هذا التراث، من أكثر من زاوية أخرى ، بل لنا باذن الله عودة الى آخرين ، ننظر اليهم من نفس الزاوية أيضا ، حتى ان راح البعض يقول اننا جذبنا الأدب من شعره لنجعله صحافة ، ولوينا عنق الصحافة لنجعلها ادبا .. ولهؤلاء أقول .. طالعوا أولا ، ابحثوا وادرسوا الأدب والصحافة معا بفكر جديد ، محايد وموضوعى تعرفوا اننا نملك أيضا ادبا صحفيا جديرا بالبحث والدرس .. والتكريم .. والله من وراء القصد .

المؤلف

د. محمود انهم

## الفصل الأول

عن الصحافة  
والصحافيين ..  
والأدب الصحفي



ان المدخل الطبيعي الى هذا الموضوع يمكن تحديده من خلال طرح اكثر من سؤال تتصل ببعضها فى مجموعها ، وتتشابك وتعود فتلتقى فى النهاية ، حول الغرض المحدد نفسه ، وهو اثبات أن لنا فى الجاحظ - نحن أرباب مهنة الصحافة بعضا مما لرجال الأديب وأضيف ، ومثل مجموع ما لرجال الدراسات الاسلامية واللغوية ، والفلسفية والعلمية فى تراث هذا الرجل ايضا ٠٠ بل ربما تفوق ما لنا فيه ، على ما لهؤلاء ، حتى يمكننا أن نتقاسمه نحن والأديب سواء بسواء ٠٠

ذلك كله قبل أن ندل على مثلها ، بالأقوال والأفعال ، لعاصريه ، أو لعاصرينا ، أو من خلال مؤلفاته ومؤلفاتهم ، المعروف منها ، وغير المعروف ٠٠

فهل كان ما قدمه الجاحظ للمكتبة العربية هو من جنس مادة الأديب فقط ؟ أو كان أدبا فقط ؟ حتى يقال عنه ، كما عرف دائما ، أنه أديب العربية الكبير ، أو الأكبر ، أو أنه يعتبر واحدا من أدبائها الأفاضل ٠٠ وأقول : من أدبائها فقط ؟

أم ان هذه الصفة الأدبية قد طفت عليه طغيانا ، والتصقت به التصاقا ، حتى كادت تذوب معها ، أو تنصهر فى بوتقتها أو تختفى فى ظلالها صفاته الأخرى العديدة وخصائصه الفريدة ، واتجاهاته الشمولية الواضحة ؟

مع أن هذه الصفات الأخرى ، وتلك الخصائص التى لازمتها وعرف بها ، وكانت علما عليه ، معروفة تماما ، وواضحة للعيان ، ولا تستطيع أن تتجاهلها عين الخبير بمجرد لقاء النظر وأعمال الفكر فى هذا التراث الجاحظى نفسه ، المطبوع وغير المطبوع ، لا سيما عندما تنظر إليها هذه العين ، نظرة حياد كاملة ، بعد أن تضعها فى ضوء معطيات العلم ، التى تقرر ما لهذا العلم ، وما لغيره ، وبمراعاة الظروف السائدة ٠

أقول ٠٠ كان الجاحظ - بنتاجه وأثاره - أدبيا وصحفيًا وباحثًا وعالمًا ، بل وأقول أنه كان فيلسوفًا أيضًا ، كان كل هؤلاء معًا ، وكان أكثر من كل هؤلاء ، اجتمعوا جميعًا فى شخصه ، واتفق اجتماعهم عليه ، وكانوا من مكوناته ، أو من معالم شموليته ٠٠

لكننا — بالطبع — لن نتناول على نفس القدر والمستوى الجوانب الأخيرة . من هذه المكونات ، بل سيكون تركيزنا أولا ، وبأدنى ذى بدء على تناول هذا الرجل ، من تلك الزاوية التي اجتمعت له على المستويين الأدبي والصحفي . أو الصحفي والأدبي ، وإن كنا نقول مقدما ونحاول أن نثبت ذلك خلال السطور القادمة ، أن هذه الجوانب الأخيرة نحبها ، جوانب التعدد في العلوم والمعارف بالقدر الذي جاءت عليه ، أو كان عليه صاحبها ، مما يثبت دعوى الجانب الصحفي عند الجاحظ .

بل أنتى — فى هذا المجال — أذهب الى أبعد من ذلك فاقول اننى أزعج هنا أن أحدا من الأنبياء أو المفكرين ، أو الفلاسفة ، أو الكاتبيين ممن سبق الجاحظ بقليل من الحقب ، أو بكثير منها ، على المستوى العربى ، أو غيره ، عند المصريين القدماء ، أو أهل الساحل الفينيقي ، أو الاغريق أو الرومان أو الصين ، أو غيرها ، أزعج أن أحدا من مفكرى هؤلاء الأقوام وفى حدود علمى . لم يسبق الجاحظ الى هذا القدر من « الشمولية » والى هذه الدرجة من « الموسوعية » . والى طريقته وتعدد جوانبه . .

فالبعض فى مصر القديمة . كان قصاصا ، يؤلف القصص الأسطورية أولا ، الذى انتقل من جيل الى جيل ، والبعض كان كاتب حكم ومواعظ ، يكتب ذلك اللون الذى يحث على عمل الخير ، ويحض على مراعاة القيم والمبادئ ، والبعض الثالث كان شاعرا — ينتثور وأتباعه — والبعض الرابع كان اعلاميا اخباريا عمل على أن تكون الأهرامات وجدران المعابد والهياكل والمسلات والمقابر ثم الأحجار والجلود صحفه التى تلاثم عصره والبعض الخامس كان رحالة يكتب مذكرات رحلاته ، هذا كله فى مصر القديمة ، أما فى بلاد فينيقيا فقد ساد أدب البحر وسادت أساطيره وأغانيه وألوان « فولكلوره » . . مع بعض القصص البحرية ، حقيقية أو خرافية ، وأما فى أمم الغرب القديمة ، فقد ساد الشعر ، خاصة شعر الملاحم ، والشعر التمثيلي ، والغنائى ، وسادت الخطابة ، وساد فن المسرح . وكان لكل رجاله الأعداء ، كانوا شعراء ، أو خطباء ، أو رجال أخبار فقط . . ومثلهم كان عرب الجاهلية وصدر الاسلام . والا . فليدلى أحدكم على رجل آخر سبقه ، يكون من طرازه .

لا أعرف أن أحدا منهم قد اجتمعت له كل هذه الصنوف والقطوف ،

وقد دانت له كل هاتيك الثمار مثل رجلنا ، لماذا إذن لا نقول أنه أول الشموليين .  
وأول « الموسوعيين » ؟

لكن الطابع الخاص الذي كان عليه ، وكتب به ، وأسلوبه في تناول  
والأداء والكتابة وعلى الرغم من هذه الشمولية نفسها ، يجعل منه الأقرب  
مكانا إلى اللون الصحفي ، بل يجعلنا نزعج بأن هذا الرجل قد سبق جميع  
أدباء عصره إلى ذلك ، بل والسابقين عليه أيضا ومن ثم فانه يجوز اعتباره  
- استنادا إلى ذلك - ومن زاوية زمنية تاريخية ، على أنه صحفي العربية  
الأول . وإن كنت قد قدمت لذلك بهذه الكلمات التي تعني عدم معرفتي بأحد  
ممن سبقه إلى تلك المنزلة ، على مستوى الحضارات الأخرى ، فإني أحتد  
هنا ذلك ، تحديدا زمنيا وفنيا وتكفي هذه الإشارة إلى هذا السبق الزمني  
على المستوى العربي لأن حدود علمي قد لا تمتد إلى أماكن العمق في الآداب  
الأجنبية ، التي قد يكون هناك ممن كتبوا بلغات أخرى ، من هو سابق عليه  
في هذه الخصائص كلها .

لكنه ، وهو من أزعج بريادته الصحفية على المستوى العربي ، لم يكن  
- بالطبع - صحفيا من هؤلاء الذين يقتنعون من حصاد يومهم بخبر أو خبرين  
أو عشرة أخبار عادية أو روتينية أو رتيبة ، أو بزيارة إلى موقع عمله وقضاء  
لبعض الوقت ثم نقل لبعض الأخبار السهلة ، أو ما أطلقت عليه وأنا انتقد  
بعضها « أخبار اليد الأولى » أو « الأخبار الجبرائية » التي يراها الجميع  
عند مدخل المكان ، أو « معلقة » على لوحة الاعلانات ، أو تلك التي لا يبدل  
من ورائها جهد ما في سبيل الحصول عليها ، كذلك فلم يكن هو ذلك الذي  
يتبع الطريق السهل ، أو يعيش حياته على خبطة أو أكثر أو يكتفى ببضعة  
مقالات هنا أو هناك ، أو ينتظر حتى تصل إليه المصائر ، أو تصله النشرة  
الصحفية حتى باب مكتبه ، أو يتوقف عند حد تقديم ما حصل عليه دون تفكير  
أو تعليق أو شرح أو تقديم لما وراء الأخبار وكل ما يتصل بها من قريب أو  
بعيد ، في الزمن الماضي والحاضر والمستقبل . . . وغيرها وغيرها .

كان الجاحظ صحفيا ، بمفهوم عصره ، وبما نعنيه الآن عندما نقول  
« الكاتب الصحفي » بكل ما تمتد إليه الكلمة من أبعاد وأطراف ، وما يتصل  
بها من جوانب وما توجيه من ظلال أيضا ، كان من طبقة المحررين الشموليين  
الموسوعيين الذين نعنيهم عندما نقول أن فلانا هو محرر صحيفة « كذا » أو  
مجلة « كيت » . . . إنه هنا ليس المحرر العادي ، وإنما كبير المحررين ، وربما

رئيس التحرير نفسه ، وربما يكون اكبر من رئيس التحرير نفسه ، بمصادرته وثقافته واتصالاته ونفوذه ، وقبلها جميعا ، بقلمه ومستوى كتابته هكذا كان ، ولم يكن مثل من ذكرت من الخبيرين أو المنوبين ، أو العائدين من الكاتبيين ، لكن من هم هؤلاء ؟ وما هي « مواصفاتهم » أو « خصائصهم » ؟

## عن الأدب

### وعن الصحافة

ان كنا نحاول في هذه السطور أن نقول بأن الرجل كان للأدب والصحافة معا أو كما قلنا في كتاب سابق لنا من أنه كان ممثلا صادقا لطلائع هؤلاء الرجال الذين كان « تصفهم للأدب ، وتصفهم للصحافة » .. أكثر مما كانوا لغيرهما ، أو للمعارف الأخرى ، فإن الاتجاه الطبيعي لمسيرة هذه الكلمات أن نعرف أولا بهذين ، الأدب والصحافة معا ، لكننا بطبيعة الحال ، لن نتوقف كثيرا عند التعريف بالأدب ، أو بفنونه ، فذلك ليس هدفنا ، إلا ما يتصل منها بما نريد بيانه وجلاء ما يقترب منه أو يقربه من موضوعنا ، تماما كما أن الغاية ليست هي إثبات أن « الجاحظ » كان أدبيا ، أو كان أكبر أدباء العربية ، وإنما هي إثبات أن للرجل جوانبه الصحفية ، وإنتاجه المتصل بصاحبة الجلالة وأشكال فنه المتميزة بفنون تحريرها ، وحتى أكثرها « معاصرة » أو « حديثة » بل وأسلوبه ، الذي كان أقرب أساليب عصره ، وأساليب عصور أخرى بعده إلى « الأسلوب الصحفي » نفسه .

ومن ثم يكون توقفنا الأساسي عند الفن الآخر ، الفن الصحفي ، مع تركيز شديد على هذين الجانبين معا ، جانب الصحافة ، وجانب الصحافي ..

لكن ، لأن الصحافة ضرب من الفن ، ولها « أبداعها » أو جوانب الإبداع فيها ، فكرا وبحثا وتنفيذا وتحريرا وتصويرا وإخراجها ، فهي من هذه الزاوية الأخيرة « الفنية » التي نتحدث بالفكر الصحفي الملهم وعنه ، تأخذ كثيرا من « معالم الأدب » ، ويشتركان معا في هذا الجانب الفني ، فكما أن الأدب فن ، فالصحافة فن أيضا ، ومن ثم يكون توقفنا - مرة رابعة - وبعد تعريف الأدب والصحافة والصحفي ، عند رؤيتنا الخاصة لهذا المزيج الإبداعي المركبة ألوانه ، المختلفة حدوده والذي كنا من أوائل من أطلق عليه تعبير « الأدب الصحفي » .. والذي نرى أن الرجل كان فارسه الأول ، وبلا جدال ..



وهكذا نرى صفة جديدة أخرى ، تضاف الى صفاته ، لكنها ليست جميعها بالطبع وإنما هي بعض ما أطلق عليه فقط ٠٠ ما أطلقه غيرنا ، وما أطلقناه ، أو ربطنا بين الرجل وبينه ٠٠

لكن لنترك هذه الصفات والخصائص الجاهلية ، الى بيان هذه التعريفات ، نفسها ٠٠ تعريفات الأدب أولا ، ثم تعريفات الأديب ثانيا بما يتصل بهما من معالم وخصائص .

● عن ماهية الأدب نقوم بالقاء نظرة الطائر ، على عدة تعريفات ، لنرى ما الذى يمكن أن نستخلصه فى نهايتها مما يتصل بموضوعنا ؟ وذلك على الرغم من كثرة وتعارض المفسرين للأدب ، الكلمة والمطلوب معا ٠٠

— فمن بين التعريفات قول بعض المؤلفين : « كلمة أدب فى اللغة العربية مأخوذة من أدب العقل والخلق اذا هذبهما وثقفهما ، ومن تعاريف الأدب أنه من الفنون الرفيعة التى تصاغ فيه المعانى فى قوالب من اللغة ، وفيه متعة وله سحر قوى فى النفوس » (١) .

— ويقول باحث مجتهد : « الأدب — فى رأى — هو التأثير وكل تأثير يحدث عن طريق اللغة هو أدب ، وهناك صلة بين الأديب والقارئ ، فالأديب مؤثر والقارئ متأثر والأدب هو ذلك التأثير الذى ينتقل من الأديب الى القارئ » (٢) .

— وتتداخل بعض مفاهيم « البلاغة » مع مفاهيم الأدب ، عند عدد من المفكرين والمؤلفين ، مما يفيد قضيتنا ، نذكر من بينهم على سبيل المثال قول القائل : ٠٠٠ « ولعل خير تعريف يفصح عن معنى البلاغة وأهدافها قول أبى الهلال العسكري : البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع ، فتتمكنه فى نفسه كتتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن ٠٠ فهذا التعريف الواضح المفهوم هو لب البلاغة ، وللب البيان ، وهو يتسق تمام الاتساق مع مفهوم الأدب ، وهو فى الوقت نفسه يشير اشارة صريحة الى عنصرى الأدب: الفكرة والصورة ، واشارة صريحة كذلك الى هدف الأدب وغايته ، وهو التأثير فى نفس القارئ أو السامع أو نقل مشاعر الأديب واحساساته

وعواطفه وانفعالاته الى مستقبل عمله الأدبي لتتمكن في نفسه تمكنها في  
نفس الأديب » (٣) .

— ويقول أستاذ في النقد والأدب المقارن بعد أن يشير الى اختلاف  
الباحثين في تحديد تعريف النموذجي للأدب ، وطويل جدالهم حول هذه النقطة :  
« ولكن -كما يمكن- بينهما يكن بينهم من اختلاف فهم لا يمارون في توافر عنصرين في  
كل ما يصح أن نطلق عليه أدبا ، هما : الفكرة وقالبها الفني ، أو المصادرة  
والصيغة التي تصاغ فيها ، وهذان العنصران يتمثلان في جميع صور الانتاج  
الأدبي : سواء أكان تصويرا لاجساسات الشاعر وخلجات نفسه تجاه عظمة  
الكون وما فيه من جمال وأسرار ، وحيال الام الانسانية وآمالها ، أم كان  
تعبيرا عن افكار الكاتب في الانسان والمجتمع وسواء كان ذلك الانتاج الأدبي  
رسالة أو مقالة أم مسرحية أو قصة ... » (٤) .

● وهناك تعريفات عديدة أخرى للأدب ، الفن والعلم معا ، تجري  
على الألسنة ، وتداولها الأقلام ومن بينها :

— الأدب هو الشعر والنثر بأشواعهما .  
— جيد الكلام ، كثير المعاني ، منظوما أو منثورا .

— ما يكتبه القصاص أو الشاعر أو الكاتب المسرحي أو مؤلف  
الأغنية أو كاتب المقال متوجها به الى القراء والمستمعين والمُشاهدين ليحقق  
أثرا ما في ذواتهم أو قلوبهم أو عقولهم أو هذه كلها معا وبدرجات متفاوتة  
من التأثير تتناسب وقيمة العمل الأدبي ذاته .

— الكتابة الفنية على أية صورة من صورها أو شكل من أشكالها .  
— ما يعجز به الأديب بواسطة الكلمات المنتقاة ، عن افكاره  
وأحاسيسه ومشاعره ، خطبا أو نثرا .

.. ومن متكرر القول أن نذكر أن الكلمة — كلمة الأدب — في اللغات  
الأوربية والتي تعنى « Literature » مشتقة من الكلمة اللاتينية القديمة  
Literaratus حيث تقترب من معنى الحرف الطباعي ، أو حروف جمع  
المادة أو كما نقول في علم الاخراج أو الطباعة : « الطباعة البارزة »

« Letter press » ونحو ذلك كله .. نون أن ننكر احتمالات ما ذهب إليه تفكيرنا مما يتصل بالصلة التي يمكن أن تقوم بين التعبير Letter وبين أسب الرسائل ، أو الرسائل الأدبية العربية ..

● ● ان هذه التعريفات كلها تعنى - فى رأينا - ومن زاوية هذا الكتاب نفسه :

— ان الرجل - بداهة - كان أدبيا كبيرا ، بل كان أدبيا مانموذجيا ، بل لعلنا لا نبعد عن الواقع كثيرا عندما نقول انه كان أديب العربية الاكبر ، وذلك بصفة عامة وإذا تفاضينا عن بعض من يقول أن الأدب هو شعر ونثر فقط ، وأن الأديب - قياسا على ذلك - هو الشاعر أو الناثر وحدهما ، الرجل هنا أديب بالمعنى الشمولى الذى تؤكد كتاباته المتعددة التى تجده بين طابع البحث والاصطفاء والفكر المتميز وحسن التناول والتعبير وتقديم الصور والمشاهد المتعددة فى تلك القوالب من الصياغة التى يعرفها له النقاد ومؤرخو الأدب ، تماما كما أن ما تحدث عنه الرجل ، ومن تحدث عنهم ، ثم هذه الأفكار والمعانى العديدة التى عبر عنها فى أسلوب جميل ، سهل ، واضح ، له حلوته وله طلاوته وإن لم يعهده الناس فى عهده ، الى غير ذلك كله مما نعود اليه فى حينه بأذن الله .. فذلك هو ما نستطيع أن نقوله فى هذه العجالة ، عن الرجل الأديب ، وهل مثله فى حاجة الى اثبات ذلك ؟ .. وإن كانت عودتنا اليه قائمة ، لنصل بين هذا الوجه الأول للصورة ، وبين وجهها الآخر ، الصورة الجاحظية نفسها .

● لننتقل الآن الى الوجه الآخر من الورقة ، أقصد الى تعريفات الصحافة نفسها ، لكننا قبل هذه التعريفات نشير الى اللفظ نفسه كما جاء فى : القرآن الكريم أولا ، والمعاجم اللغوية وبعض كتب الاسماء ثانيا .

● الصحف فى القرآن الكريم :

أما عن ورود الكلمة فى كتاب الله تعالى ، فقد وردت على صفحاته الطاهرة ثمانى مرات جمعا ، وكان ورودها على هذا النحو وحسب ترتيب الآيات والسور :

( الجاحظ )

١٠ - « وقالوا لولا يأتينا بأية من ربه .. أو لم تأتكم بينة ما فى الصحف الأولى » سورة طه ١٣٢ .

- ٢ - « أولم ينبا بما فى صحف موسى » سورة النجم ٢٢ .
- ٣ - « بل يريد كل منهم أن يؤتى صحفاً متشرة » الم نشر ٥٢ .
- ٤ - « .. فى صحف مكرمة » عبس ١٣ .
- ٥ - « .. وإذا الصحف نشرت » التكوير ١٠ .
- ٦ - « أن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ، الأعلى ١٨ ، ١٩ .

٧ - « رسول من الله يتلو صحفا مطهرة » اليننة ٢ .

### ● الصحف فى المعاجم والقواميس والمؤلفات العربية :

ونكتفى هنا بالإشارة الى عدد من هذه المصادر ، لأن ذكر الصحف والصحافة فى واقع الأمر ، يجلب عن الحصر .. أن من بينها مثلاً :

— أن من بين الذين أشاروا إليها على سبيل المثال لا الحصر العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور فى موسوعته اللغوية : لسان العرب فالصحيفة عنده « الورقة التى يكتب فيها » .

— وعند الفيروزبادهى صاحب « القاموس المحيط » .. « الصحيفة هى الكتاب وجمعها صحائف وصحف » .

— وقد فصل ذلك أبو الحسن على بن اسماعيل النحوى المشهور بـ « ابن سيده » فى المجلد الرابع من « المخصص » .. فنقل عن صاحب العين — الفراهيدى — قوله : « الصحيفة : التى يكتب فيها ، والجمع صحائف وصحف ، وفى التنزيل : صحف إبراهيم وموسى ، يعنى الكتب المنزلة عليهما ، والمصحف : الجامع للصحف المكتوبة بين اليدين كأنه أصحف أى جمعت فيه الصحف ، والصحف والصحفى الذى يروى الخطأ على قراءة الصحف باشتباه الحروف » (٥) .

— .. وأما عن المؤلفات العربية ، فذلك طرف من رؤيتها للصحافة :

— ان أحد الباحثين ينقل قول شويتهاور الطريف : « الصحافة عقرب الثوان للأحداث العالمية » (٦) .

— وان أحد أساتذة الصحافة يقول : « الصحافة هي مطبوع نوري ينشر الأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والتقنية ... الخ ، ويشرحها ويعلق عليها » (٧) .

— وينقل المؤلف نفسه في كتاب سابق له ، عن « الفيكونت فيليب دي طرازي » صاحب: « تاريخ الصحافة العربية » قوله الذي اشتهر بعد ذلك « أول من استعمل كلمة الصحافة بمعناها الحالي — أي الاصطلاحي — كان الشيخ نجيب الحداد منشئ جريدة لسان العرب بالاسكندرية ، ويعرف الصحافة بأنها صناعة الصحف والصحف جمع صحيفة وهي قرطاس مكتوب والصحافيون القوم الذين ينتسبون اليها ويعملون بها » (٨) .

— ويقول مؤلف آخر : « الصحافة مهنة البحث عن الحقائق ونشرها بطريقة رشيدة تنفع المجتمع وتنميته » (٩) .

— وبعد اشارات عديدة الى الدور الصحفي القديم والحالي تقول مؤلفة مجتهدة : « ... ويمكن أن نعرف الصحافة في هذا الوضع بأنها صوت الشعب للشعب ، وهو تعريف في بساطته يرادف معنى الديمقراطية في حكم الشعب — الصوت الذي تتمثل فيه ارادة الشعب ورغبته وطموحه وآماله ، الصوت الذي تلتقي به ارادة الحاكم وارادة المحكومين على طريق العمل والحياة والصوت الذي يعلن الحقائق صريحة — يشمل الشعب بجميع طوائفه وهيئاته ويربط الشعب بمصالحه ومواقع عمله وطريق حياته » (١٠) .

● تلك هي — باختصار شديد — طائفة من اشهر تعريفات هذه المصادر كلها للصحافة ، قبل أن نتوقف عندها لنرى « مصداقية » انتساب « الجاحظ » اليها ، وجدارته بهذا الانتساب ، وبخوله بفكره وكتايباته الى عالمها الفسيح ، ومن أكثر أبوابه اتساعا ، وحتى من خلال هذه التعريفات الحديثة ، وجميعها معاصرة ، نقول ان هذه التعريفات كلها تتجه وتركز على:

— الصحف بنوعها « جرائد ومجلات » ،

### — الجرائد اليومية أولا —

وصحيح أن « رجلنا » ينتسب الى الصحافة وفق بعض أساسيات ومعالـم وزوايا هذه التعريفات مجتمعة ، وليس تعريفا واحدا منها دون غيره ، ينتسب اليها بمعنيها ، أو باتجاهها الى جانبي الصحف والمجلات معا . .

لكننا من خلال تجربتنا الصحفية ، ودراساتنا التي سبق القيام بها ، ما طبع منها وما لم يطبع ، نعود فنستدرك ، ونقول ، أن « القرائ الجاحظي » بكل عرويته وأصالته وأبداعه وفنه ، يكاد يكون أقرب الى طابع المجلة ، والى طابع الصحيفة الأسبوعية ، منه الى طابع الصحيفة اليومية ، تماما كما أن الرجل نفسه ، بفكره وتوجهاته ، وغزواته لأكثر من موقع ، يكاد يكون أقرب الى طابع « محرري وكتاب المجلات » . قبل محرري وكتاب الجرائد اليومية . .

الا يعني ذلك ، ونحن نتحدث عن الجاحظ ، أنه يجب التوقف مرة أخرى ، عند تعريفات « المجلة » . تلك التي كان ارتباطه بها فكرا وكتابة ، شديدا ، وأكثر بروزا من ارتباطه بالصحف في أشكالها اليومية ؟ .

ولأن نجهد أنفسنا كثيرا هذه المرة ، بل سنكتفى بنقل عدد من التعريفات التي وردت بدراساتنا السابقة عن المجلة ، من تلك العربية أو غير العربية ، أن المجلة هي :

— « مطبوع دوري مصور أو غير مصور يحوى موضوعات متنوعة » (١١) .

— « مطبوع دوري يتضمن كتابات لمؤلفين مختلفين غالبا يصدر مصورا وبه عدد من الاعلانات » (١٢) .

— « المجلة كلمة اصطلاحية تعنى دورية تتناول معارف ومعلومات متنوعة عن جانب أو جوانب من الحياة — احدى الوسائل الهامة للاتصال بالجمهور — تأخذ من الكتاب حجمه ومن الصحيفة تنوع مايتها ومجارية هذه المادة لجوانب الحياة وسرعة حدوثها — وكلمة مجلة فى اللغة العربية تعنى قائمة بمجموعة من المعارف وجمعها مجلات أو مجال ، ومعنى الكلمة باللغة

الانجليزية Review تعنى اعادة النظر فى شيء ما أو معاينة شيء ما واستعراضه ، (١٣) •

— • مجموعة الصفحات العديدة المطبوعة بطريقة ما ، ذات الحجم الواحد ، الصغير أو المتوسط أو الكبير المثبتة ببعضها رأسيا ومن جانب واحد ، والتي تمثل وحدة من كل متتابع من مجموع له شخصيته ، يحيط بها غلاف فنى دال وملائم من ورق أكثر سمكا ، تصدر دوريا بثبات أسبوعية غالبا أو شهرية أو نصف شهرية أحيانا أو فصلية أو سنوية أو غير ذلك بمعرفة مالك أو جماعة أو هيئة أو شركة مساهمة أو مؤسسة ، مقدمة لجمهورها المتوقع العام و الخاص ، وفق امكانياتها وبما يتفق مع سياستها التحريرية وبأسلوبها الخاص ، الاخبار والموضوعات والقصص والاحاديث والدراسات والتقارير والمجريات والمقالات والمذكرات والحملات الصحفية ، أو مثيلاتها من فروع الفكر والعلم المتخصص ، مؤيدة بالصور والرسوم المختلفة وقطع الامتاع ومواد الربط والاستكمال ، بهدف اعلام القراء وتوعيتهم وتنقيفهم وتعليمهم ومؤانستهم وتنمية مجتمعاتهم وتحقيق الربح للناشرين والعاملين ، وقد تكون فى أشكال ومضامين أخرى ، تتوجه الى جمهور خاص ومحدود ، (١٤) •

● وإذا كانت التعريفات السابقة فى مجموعها تتجه الى « الوسائل أو « الأدوات » أو « الوسائط » ، وهى هنا الاعلامية الصحفية المطبوعة ، وإذا كان بعضها يتجه الى العمل الصحفى نفسه ، أو بعض جوانبه — بطريقة مباشرة ، فإن الصورة تكتمل — حتما — وتكون أكثر وضوحا ، وأقرب الى الفهم ، بتفاصيلها المختلفة — صورة الجاحظ الأديب الصحفى المجلاتى معا — أو صورة الجاحظ الأديب المحرر ، أو صورة الجاحظ الكاتب الصحفى •• جميعها تكون الى الجلاء أقرب ، عندما نتوقف مرة أخرى ، عند تعريفات أرباب هذه المهنة ، أو هذا الفن ، فما الذى يقال عن « الصحفى » •• والذى هو مفتاح هذا العمل ، ولا صحافة بخير صحافيين ، تماما كما أنه لا ادب بغير أدباء ؟

إننا هنا نقدم تقسيما جديدا ، قد يكون الى طابع العمل اقرب ، وبتصويره أكثر جدارة ، فلن نلجأ هذه المرة الى المعاجم والمراجع ونواثر المعارف وحدها ، وإنما الى بعض « ما جرى » على الألسن ، وأصبح دليلا على العمل الصحفى ، كله أو بعضه •

● أما هذا النوع الأول من التعريفات التي تناولت الصحفي ،  
بأسلوب مباشر أو غير مباشر أيضا ، فهي تلك التي قالت ، أو قال أصحابها  
عنه :

فبعيدا عن المعاجم اللغوية التي تكاد تجمع على أن « الصحفي » بفتح  
الصاد والحاء ، هو من يخطئ قراءة الصحيفة - بمعنى الصفحة أو الورقة  
من كتاب - أي ذلك الذي « يصحف » ٠٠ في قراءته ٠٠ بعيدا عن ذلك نجد  
تعريفات كثيرة من بينها :

— ان استاذة في الصحافة تعرفه بقولها باختصار شديد انه « كل  
من يتخذ من الصحافة مهنة » (١٥) .

— وقد مر بنا قول المؤرخ دى طراوى : « والصحافيون القوم الذين  
ينتسبون اليها - أي الى الصحافة - ويعملون فيها » .

— ويعرف القانون رقم ٧٦ لسنة ١٩٧٠ - والخاص بإنشاء نقابة  
الصحفيين - الصحفي بقوله :

« مادة ٦ - يعتبر صحفيا مشتغلا :

( ١ ) من يباشر بصفة أساسية ومنظمة مهنة الصحافة في صحيفة يومية  
أو دورية تطبع في الجمهورية العربية المتحدة أو وكالة أنباء مصرية أو اجنبية  
تعمل فيها ، وكان يتقاضى عن ذلك أجرا ثابتا بشرط ألا يباشر مهنة أخرى » .

● لكن هناك بعض ما لم يقله هؤلاء في مجال التعريف ، وانما  
جاءت كلماته عرضا ، بين سطورهم ، أو جاء بين سطور أخرى ، أو جرى  
على الألسن ، لكنه لا يبعد عن واقع الصحفي ، وعمله ، وفكره وأساليبه  
وانماط ذلك العمل ، وذلك الفكر كثيرا ، بل جاء بعضها أكثر صدقا ، ودلالة  
من تعريفات « مرجعية » كثيرة ٠٠ أي أن هناك - ومما يرتبط بهذه الفئة  
الأخيرة من التعريفات نفسها - ما هو أكثر ارتباطا بموضوعنا ، وأكثر تعبيراً  
عن « صاحبنا » بشمولية فكره وتوجهاته ، نفصح عنها بعد قليل ، أو في



حينها ٠٠ ونكتفى الآن ببيان « قلة » من هذه الأقوال ٠٠ ان الصحفي أيضا هو :

- الرجل المكون من عدة رجال ٠
  - الرجل الذى يجمع من كل يستان زهرة ، ومن كل بحر قطرة ٠
  - رجل « التخصص العام » ٠
  - نتاج عصره ومرآة بيئته ٠
  - صورة عصره بكل صدق ونزاهة ونجرد ٠
  - نبض أمته ٠
  - كتاب عصره ٠
  - شاهد على عصره بمن فيه وما فيه ٠
- الى غير هذه كلها من تعريفات « اجرائية » أو « معملية » غير مباشرة ، نتوقف لمناقشتها ، مع غيرها من تعريفات وأقوال سابقة ولاحقة ، بعد قليل ، لنقرر أين تقف من موضوعنا ؟ وأين يقف الرجل منها ؟

## عن الأدب الصحفي

● وتبقى بعد ذلك كلمة قصيرة عما أطلقنا عليه تعبير « الأدب الصحفي » ٠٠ ، فبالإضافة الى الكلمات القليلة التى وردت ضمن السطور السابقة عنه ، فأننا نحدد هنا بعضا مما يمكن ويجوز أيضا اعتباره من بين ملامح هذا النتاج الصحفي المتميز ٠

— فالبحث عن الأخبار يكون له طابعه ، وعملية البحث والانتقاء تكون مجالا لاستخدام المواهب المتميزة ، بطرقها وأساليبها التى لا تخلو عند بعضهم وليس عند الجميع - من الهام وإبتكار ٠

● وإذا كان تحرير التوقيعات القصيرة ، أو « الرقع » أو « الوصايا » أو « الحكم والأمثال » يعتبر ضربا من الأدب ، فإن مثله هنا - على المستوى الصحفي - يعتبر تحرير العناوانات بأنواعها ( المفاتحة الإشارية والرئيسية والفرعية وعناوانات الفقرات ) ٠

● ثم ان بلاغة الأسلوب الأدبي ، تصدق هنا أيضا ، في مجال كثير من وحدات « النص التحريري الصحفي » .

أو ليست البلاغة هي وكما قال نفر من علمائها — بالاضافة الى ما سبقت الإشارة اليه — .

« لحة دالة — اختيار الكلام وتصحيح الاقسام — وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة — القوة على البيان مع حسن النظام — اهداء المعنى الى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، . . . الخ .

نحن أيضا نقول بذلك عندما نتناول « الأسلوب الصحفي » خاصة في مجال تحرير هذه « الوحدات الفنية السابقة » . العنوانات ، وكذا « المقدمات » و « النهايات » بأنواعها تماما كما أنه اذا كان لابد من الاختصار والتركيز عند كتابة بعض « النصوص الأدبية » ، أو « الاسهاب » عند كتابة البعض الآخر منها ، فأننا نتبع ذلك أيضا في بعض « النصوص القميرية الصحفية » . « فالأخبار الصغيرة » قليلة العبارات ، قليلة عدد الكلمات « تلغرافية » الأسلوب ، موضوعية . عملية . وظيفية اللغة ، ومثلها تقريبا وإلى حد ما « الأخبار المتوسطة » . والأعمدة ، أو مقالات الأعمدة ( نتحدث هنا عن فنون وأنماط ولا نتحدث عن وحدات تحريرية فقط ) . ومثلها كذلك بعض الموضوعات الاخبارية وكلام الصور والتعليقات القصيرة وما يجري تركيزه أو « ضغطه » . وذلك فن أيضا ، من تناولات ومترجمات وخطابات للقراء ومقالات مسببة لقراء لا يحتملها الحيز المتاح .

ذلك كله عن القليل الذي يدل على الكثير . وأما الاسهاب في موضعه فهناك ضروب الاسهاب الصحفي العديدة ، لو كان الأمر يتطلب ذلك ، أو كانت المساحة المتاحة من فراغ الصفحات تتطلبه أو تسمح به ، أو كان الوقت المتاح يعين عليه . ولا يقتصر الأمر هنا على التقارير والتحقيقات والحماسات والبراسات والملاجزيات ، تلك التي تنشر أحيانا على أكثر من صفحة واحدة ، من الصحيفة اليومية العادية ، وعلى ملزمة كاملة — ١٦ صفحة — من المجلة ، أو تكون في حلقات يستمر نشرها يوميا أو اسبوعيا على صفحة أو أكثر ، لعدة أيام أو لعدة أسابيع ، بالنسبة للصحف اليومية أو الأسبوعية ، أو

صحافة المجلة ، أضف الى ذلك بعض الترجمات والمقالات التحليلية والخطب وما اليها ..

اقول ، لا يقتصر الأمر على ذلك كله ، وإنما يمتد ايضا ، حتى الى هذه الأخبار الصغيرة وربما الصغيرة جدا ، والمركزة ، فإن بعضها يمكن أن يكون مختصرا لخبر كبير تم « ضغطه » أو نشر على حالته في طبعة ما ، لأنه مما يهم قراء منطقة معينة ، بكل تفصيلاته وأركانه وزواياه ، ثم نشر « مضغوطة » في طبعة أخرى لا يهتم قراؤها بغير المعرفة السريعة به ، وهكذا .

وباستطاعة القارئ على أمر صحيفة تصدر في عشر صفحات مثلا ، أن يسهبوا وأن يضيّقوا حتى تكون في أكثر من ضعف لهذا العدد .

— ومثلما يبدع الأديب في اختياره لفكرة مقالته الأدبية ، أو صورته القلمية ، أو انتقاء أشخاص قصته ، أو نماذج مسرحيته ، فإن ابداعا مماثلا يقوم به الصحفي الممارس والخبير — وليس أى صحفي — من أجل العثور على الفكرة المناسبة ، الجديدة ، الطازجة التي لم يسبق اليها أحد ، أو العثور على الزاوية الجديدة التي يتناول من خلالها الفكرة القديمة أو المطروقة .. وعندما يعثر المحرر على مثل هذه الفكرة ، فإنه يحق لنا أن نقول أنها تدخل ضمن باب « الأدب الصحفي » .

● وبعض الموضوعات والتقارير وكثرة من التحقيقات وأغلب المقالات ، وبعض جوانب القصص الصحفية ، والأحاديث ، هذه كلها يمكن أن يتدخل « الإبداع » فيها ، ويلعب « الإلهام » دوره في مساراتها من أول الاختيار ، حتى كتابة آخر حرف فيها ، بل وحتى اختيار الوقت الأمثل لنشرها ، أو أكثر الأوقات مناسبة لذلك العمل .

● ثم يبدو « الأدب الصحفي » بعد ذلك كله ، وربما أهم من ذلك كله وقبله ، في تلك الأمور المتصلة بجوانب التحرير نفسها ، ففضلا عما يتصل بالاختصار والتركيز في موضعهما وهو أدب ، أو الإسهاب في موضعه ، وهو أدب أيضا ، فإن هذا اللون من الأدب الصحفي يتجلى هذه المرة في أكثر من صورة من بينها على سبيل المثال :

● الإبداع فى اختيار أفكار العنوانات والمقدمات والنهايات .

● جانب « الحس الصحفى الفنى » فى اختيار العنوان والمقدمة والنهاية التى تكون أكثر مناسبة لموضوعاتها من أنواع هذه الوحدات المختلفة .

● وبالمثل يكون « الأسب الصحفى » متمثلا فى حسن وبقة ونجاح اختيار القالب الفنى الأكثر ملاءمة لصياغة مادة تحريرية أو أخرى ، أن كان لابد من استخدامها .

● ثم هو يتمثل أكثر فيما تقدمه المواهب من أنواع عنوانات ومقدمات ونصوص ونهايات جديدة ، ابتكارية ، غير مسبوقة ، أو قليلة أو نادرة الاستخدام ، أطلق عليها بعضهم - فى مجال قوالب الصياغة فقط - تعبير : « القوالب غير الفنية » لأنها تخرج عن المألوف استخدام من جانب كثرة من المحررين ، وأقول أنها الأكثر فنا والأكثر إبداعا .

● ثم هناك بعض « الفنون » و « الأنماط » الصحفية الكاملة ، التى تحتاج مع تتابعها أو مع تتابع تحريرها من أن آخر ، ومن يوم الى يوم ، تحتاج الى قدر غير قليل من الذوق الأدبى ، والحس الأدبى ، .. وهكذا فإذا كنا قد أشرنا الى أن ما نطلق عليه فى مؤلفاتنا « الوحدات الفنية التحريرية » تحتاج الى جانب من جوانب الإبداع - كوحداث فقط - بينما نشترط الفكرة الجديدة أو التناول الجديد للفكرة بالنسبة لبعض الفنون والأنماط لاسيما الموضوعات والتحقيقات والتقارير والمقالات الصحفية .. فان بعض الموضوعات والتحقيقات والصور القلمية الصحفية والتقارير المصورة تأخذ بقدر طيب ومعقول من هذه « اللمسة » الأدبية الفنية الصحفية معا ، كل ذلك بينما نجد - مع تتابع الأعمدة ومقالات الخواطر والتأملات ومقالات الفقرات أو اليوميات الصحفية - نجد بعضا منها مما تزيد فيه الجرعة الأدبية ذاتها ، عن الجرعة الصحفية ذاتها ، ومن ثم تمثل - بذلك كله - هذا الأدب الصحفى الذى نتحدث عنه ..

ولعله مما يثبت صحة ذلك ، أن كاتب هذه النوعية الأخيرة ، أو محررها ، يكون فى بعض الأحيان من هؤلاء الذين دخلوا الصحافة من باب الأدب ، أو دخلوا الأدب من باب الصحافة ، فهم من الصحفيين الأدباء ، أو هم من

الأدباء الصحفيين ، وحيث نجد أنفسنا أمام طائفة جاحظية جديدة ، تمت الى رجلنا ، أو تمت المادة التي تكتبها بصلات عديدة وعلى الرغم من « معاصرتها »  
٠٠ الى المادة الجاحظية ، أو الى التراث الجاحظي ، بكل أصالته ، وتنوعه ،  
وتعدد مجالاته ، وأساليب بلاغته .

● حتى الصورة نفسها التي يمكن أن تصاحب كل ذلك ، وهي هنا الصورة الصحفية الملتقطة بواسطة الكاميرا - هي ، وكما أطلق عليها عدد من رجالها ٠٠ « أدب بصرى » ٠٠ نمية الى البصر هنسا وليس الى مدينة البصرة ، التي سيرد ذكرها خلال الصفحات القادمة لكن ما يتبعها في أحيان كثيرة ، أو يشرحها أو يضيف إليها ، أو يتناولها أو يعلق عليها يمكن أيضا أن يقترب من هذا الأدب الصحفي ، عند بعض المحررين الحريصين على التفرد وعلى الامتياز وهكذا .

● وهكذا نجد صوراً وأساليب هذا الأدب الصحفي ، تلك التي تتجه الى معالم الابداع في جانبين أساسيين هما :

( ١ ) ما يتصل بالفن الصحفي في مجموعه عامة ، ويجوانب فن التحرير خاصة .

( ب ) ما يتصل بتلك الوحدات أو الأجزاء أو القوالب ، أو الأنماط الكاملة التي يضيف عليها مصرها قدرا من الأدب والذوق الأدبي ، قل أو كثر ، ويقدمه ممزجا بالحس الصحفي والذوق الصحفي ٠٠

من هذا المزيج المتكامل من المادة الصحفية ذات المضمون الموضوعي المرتبط بالواقع الحثي ، أو المتصل به أو المتفرع عنه ، بطريقة من الطرق ، أو بشكل من الأشكال واللمسة أو الجرعة الأدبية التي تغلفها أو تصري في جنباتها وبين سطورها وكلماتها ٠٠ يتكون هذا « الأدب الصحفي » ٠٠ الذي أطلق عليه بعضهم تعبير « الأدب الموضوعي » ونرى أنه يشمل ذلك الأدب الصحفي وغيره ، ومن ثم فإنه عندنا ، أدب صحفي ٠٠ لأنه لا يركز على جوانب ذاتية ، قدر تركيزه على جوانب موضوعية وواقعية ومجتمعية .

● قبل أن نضع هذه الأفكار السابقة كلها في ضوء التداول الخاص

من زاوية صلتها بموضوع التراث الجاهلى ، نتوقف برهة لنقسم تبسيطا وتلخيصا لها ، لعله يكون أكثر مدعاة لتوضيح ما نريد ، وما نحرص على وضوحه .

ان باستطاعتنا ان نقول ، ان هذه التعريفات السابقة فى مجموعها ، ما نكر منها عن الصحف ، وما قيل فيها عن المجلات ، وما اشار فى كلماتها الى « العامل البشرى » يمكن ان نوجزها ، وأن نستنتج منها ايضا ، هذه النقاط كلها :

( ا ) من حيث الصحيفة ومادتها ( المحتوى التحريرى ) :

ان الصحيفة اليومية أو الأسبوعية ، هى تلك الأوراق المطبوعة التى تحمل الى الناس يوميا ، أو بصورها فى أكثر من طبعة واحدة يومية ، أو اسبوعية ، وبمعرفة أعضاء أسرة تحريرها وبأقلامهم ، ويعنصات مصوريها ، وبجهد الفنانين والعمال بها ، ما ينبغى أن تحمله الى هؤلاء من تسجيل للأحداث المهمة ونقل للوقائع والتفصيلات المرتبطة بها وتقديم المعلومات والبيانات المفيدة وثبت ظواهر الأنشطة والمشكلات وعرض وتفسير ومناقشة الأقوال والتصريحات والأفكار والآراء والاتجاهات والمواقف والقضايا والحلول ذات النفع ، وكذا البحوث والدراسات والمادة الأدبية المختلفة ، والتعبير عن ذلك كله تعبيرا صحيحا مناسباً للقراء ، بواسطة لغة صحيحة ، تختلف أحيانا من مادة لأخرى ، لكنها تكون فى شكل عمل فنى صحفى ، يمثل رسالة موجهة الى القراء فى الوقت المناسب .

( ب ) من زاوية المجلة ومادتها ( المحتوى التحريرى وأهم مواده ) :

وأما المجلة ، أسبوعية أو نصف شهرية أو شهرية أو فصلية ... الى غير ذلك كله فهى — من زاوية المحتوى — تختلف من واحدة لأخرى ، حسب نوعيتها وطابعها العام وطبيعة قرائها وسياساتها التحريرية والهدف من إصدارها ، لكن أهم موادها المشتركة ، التى تتفق عليها كثرة من المجلات هى :

— التحقيقات الصحفية المصورة ( عامة مشوقة — مشكلات — دراسة صحفية ) .

- التقارير المصورة
- افتتاحيات المجلة
- الأحاديث الصحفية
- مقالات النقد الأدبي
- الأخبار البحثية من نوع
- أخبار المجلة
- الموضوعات الاخبارية
- القصص الصحفية
- المقالات العامة
- المقالات الفكاهية
- والكاريكاتورية
- مقالات التخصص العام
- العمود الصحفي
- اليوميات
- القصص
- مواد التسلية والامتناع
- الذهنى
- الأبواب والأركان والاجزاء
- الخاصة

#### ( د ) عن الصحفي وطبيعة عمله ( أنواع من التحرير ) :

أن ذلك يعنى - بطبيعة الحال - أن العمل الصحفى ليس صورة واحدة فقط ، أو لا يأتى فى شكل واحد فقط . خاصة إذا نظرنا الى الاختلاف القائم بين صحيفة وصحيفة وصحيفة ومجلة .

فصحيح أن العمل الاخبارى - جمع الأخبار وتحريرها - يأتى فى المقامة من هذه المهام ، وصحيح أيضا أن المندوبين هم من أبرز أعضاء أسرة التحرير ، انطلاقا من أهمية الأخبار نفسها لكن هناك أيضا من التحريرين من يعتمد عليهم ويمثل كل منهم إحدى القواعد الهامة فى العمل وركيزة من ركائزه ، ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر ، وحيث تكاد أعمالهم تقترب - بشكل أو بآخر - من النشاط المتميز لرجلنا .

١ - محرر التحقيق الصحفى ومن أهم أعماله جمع المادة من مختلف مصادرهما والمقارنة بينها واستخلاص النتائج واتخاذ المواقف .

٢ - محرر التقرير الصحفى الذى ينتقل الى المواقع ليكتب ما يرى وما يسمع مدعما بالصورة .

٣ - محرر الحملة الصحفية على وجه من وجوه السلب أو من يمثلها ، أو بالدعوة الى جوانب الايجاب .

٤ — محرر الدراسة الصحفية فى جانب من جوانب الأهمية الاجتماعية أو الثقافية أو غيرهما •

٥ — المحرر العلمى ، برصيده المتميز الذى يحصل عليه من هنا وهناك واضعا له فى خدمة القارئ ، بكل ما يقدمه من معلومات عن موضوعه •

٦ — الناقد الأدبى والفنى برؤيته الدقيقة ، وحسه النقدى المتميز ومتابعته لموضوعه •

٧ — محرر المقال ، بأنواعه المختلفة ، بحسه النقدى الجماهيرى الأدبى الواقعى معا •

٨ — المحرر المراجع ، بقدرته على تقديم الشكل الأمثل والمضمون المناسب وعلى الاختصار والتركيز •

### ● ● واخيرا — وليس بآخر — نقول :

ان كانت هذه هى الصحافة فى أبرز جوانبها — ولا أقول كلها — وان كان هؤلاء هم الصحفيون ، مع تركيز شديد على بعض نوعياتهم من المتألقين ، من الباحثين والدارسين والكاتبين ، وليس على أى صحافى منهم ، وإذا كانت هذه بعض طبائع العمل الصحفى الذى يقوم على البحث وجمع المادة والتأكد من صدقها ، وعن مختلف المصادر ، وإضافة الجديد المتتابع إليها ، مع تنوع كامل ، أو « تخصص عام » وان صاحبته أحيانا بعض جوانب « الاهتمام الخاص » ، ومع أسلوب بليغ ، وان كانت بلاغته تتجه الى صور واقعية وعملية •• الى غير ذلك ، فأين يقف الجاحظ منها ؟ وما هو موقعه على خريطةها ؟ وماذا يعنى بخصائصه الفريدة ، بالمناسبة لهذه النقاط ، ولغيرها ولأكثر منها ؟ ذلك ما تقرره السطور التالية ••



● ● هوامش هذا الفصل :

- (١) على فتحي يونس وآخرون : « أساسيات تعليم اللغة العربية » ص ٢٢٠
- (٢) طه ندا : « الانب المقارن » ص ١١ .
- (٣) بنوى طيانة : « علم البيان » ص ٦ .
- (٤) محمد غنيمي هلال : « الانب المقارن » ص ١١ .
- (٥) أبو الحسن على بن اسماعيل بن سيده : « الخصص » مجلد ٤ ص ٦ .
- (٦) عبد العزيز الفنام : « مدخل في علم الصحافة » ص ١٢ .
- (٧) خليل صابات : « وسائل الاعلام نشأتها وتطورها » ص ٤٧ .
- (٨) خليل صابات : « الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم » ص ١٢ .
- (٩) محمد سيد محمد : « الصحافة بين التاريخ والانب » ص ٧ .
- (١٠) اجلال خليفة : « الصحافة » ص ٢ .
- (١١) حسين سعيد وآخرون : « الموسوعة الثقافية » ص ٨٨٦ .
- (١٢) تعريف La Rousse المصور طبعة ١٩٧٢ ص ٢٥٧ .
- (١٣) اجلال خليفة : « الصحافة » ص ٧٧ .
- (١٤) محمود ادعم : « التعريف بالمجلة » ص ٢٧ ، ٢٨ .
- (١٥) اجلال خليفة : « الصحافة » ص ١٧ .



## الفصل الثانى

### معالم جاحظية

( الجاحظ )



وقبل أن نعد الركب ، أو نقوم بتجهيز قاربنا ، تمهيدا لرحلة في بحر « أبي عثمان عمرو بن بحر » الملقب بالجاحظ - ليبروز في حدقتي عيني - اجسطهما ، أي خرج بحدقتيهما قليلا الى الامام - مما جعل البعض يخافونه ، وبعض « الكبراء » لا يرحبون به في مجالسهم على الرغم من علمه وأدبه ، لأنه وإن كان يزينها بهذين ، إلا أنه لا يزينها بدمامته تلك التي « سخر » منها هو نفسه كثيرا ٠٠٠ قيل أن نقوم برحلة مع تراثه ، أو نقحم بمثل هذه الأفكار ساحته ٠٠ فأننا نتوقف قليلا عند عدد من « المحطات » أو « معالم » الطريق الى هذا التراث ، أو هذه الساحة ، نحاول أن نلم فيها ببعض مكونات شخصه وأن نطوف بالأسس والقواعد التي يستند إليها ذلك البناء الشامخ المتمثل في هذا النتاج الغزير كله ، الذي قدمه الرجل ، والذي نزع من بعضه كان نتاجا صحفيا ٠٠

لكننا - بالطبع - لن نقتصر على مجرد الوقوف عند هذه المعالم ٠٠ أو مجرد التعرف عليها واستجلاء أثرها في تكوين هذا التراث المتعدد الجوانب والمعارف والمؤلفات والرسائل والصفحات ، وإنما سنحاول قدر الطاقة - أن نقيم بينها وبين موضوعنا جسرا نعبه معا ، ليساعدنا على الاقتراب أكثر ، مما نتوجه به من أفكار خاصة ليس بالملاحظ الأنيب فقط ، وإنما من زاوية صحفية أيضا ، إن هذه العلامات ، وما يصل بينها من جسور ومعايير ، هي طريقنا الى ذلك كله ، ومن ثم نقول عنها ، أو - حتى نكون أكثر دقة - عن أهمها فقط ما يلي :

## « نتاج عصره »

هل هناك عصر يفضل عصرنا في صنع الرجال ؟

لننا لن ندخل في مناقشات فلسفية عديدة ، كتلك التي نقول - مثلا - أن الزعيم مطبوع أو مصنوع ، أو أن الجندي الماهر يصنعه - أو لا يصنعه - القائد الماهر وما الى ذلك كله ، ولكننا نتوقف قليلا عند بعض العصور التي ساهمت وساعدت بأحداثها على ظهور طائفة من قادة الفكر والرأي والأنب والعسكرية ٠٠

إن « الحروب » تطعم الرجال ، وإن الأحداث تحركهم ، وإن المواقف

تدعم من قوتهم وصلابتهم ، وإن التجارب العديدة ، بحلوها ومرها ، وخيرها وشرها تبرز هؤلاء ، وتقصص عن مكنوناتهم ، وتخطب مواهبهم ، بل إن هذه الأحداث الجسام نفسها ، والوقائع العظام ذاتها لتستحثهم على العمل ، وتدعوهم إلى ركوب الصعاب ، وتستغفر همهم ، وقد تستغفرهم أيضا ، فيعمدون إلى مواجهة التحديات ، وإلى العمل على تغيير الواقع ودمغه إلى الأمام عدة دفعات ٠٠ ومن هنا فإن هؤلاء تصبرهم الأحداث في يوتقتها ، وتعيد - في أوقات كثيرة - تشكيلهم و « ضخ » دماء جديدة في عروقهم ٠٠

لكنهم - وهو مهم أيضا - لا يكتفون بمثل هذا التأثير ، ويصـوره المختلفة ، وإنما يجعلون نتاجه بدوره مؤثرا ، وحصاده مغيرا ، لما حولهم من مواقع ومجتمعات وأفكار وخطط ومواقف واستراتيجيات ، تقم صورا جديدة ، قد يدفع بعجلة الأحداث والتاريخ نفسها من حالة إلى حالة ٠٠

انتا تقم هنا - وعلى سبيل المثال لا الحصر - هذه الصور كلها لزعماء وقادة ومفكرين وفنانين ، كانوا نتاج عصورهم ، ثم عادوا يؤثرون في مسيرة امتهم ، ويفتحون أمامهم أبواب عصر جديد :

● فالبطل المصرى « أحمدس » ١٥٩٠ - ١٥٤٥ ق م ، بطل معركة التحرير ضد الهكسوس أو « ملوك الرعاة » ٠٠ كان نتاجا للحالة السيئة التي وصل إليها الشعب المصرى الذى كان يعانى من اضطهاد المحتل وجوره فتثار على ذلك وقاد مواطنيه إلى التحرير والنصر ، حتى طارد هؤلاء إلى موطنهم الأصلي ، ووضع حجر الأساس لامبراطورية مصرية قوامها جيش الشعب .

● والداهية السياسى الألمانى « بسمارك » صهرته البوتقة السياسية الأوربية وصراعات الملوك والأمراء وعركته مشاكل السياسة ، حتى انتجت « الرجل الحديدى » الذى حير أوربا وأسقط عروشها وخلع قلوب برلمانين وصنع معارك ، حتى وحد ألمانيا بالقوة ، وأنشأ أول امبراطورية ألمانية ، وكان ساسة أوربا وقادتها يرتعون لمجرد ذكر اسمه .

● والرحالة البنقى « ماركو بولو » كانت تربيته البحرية ، ورحلاته منذ صغره ، وراء حبه للترحال ، الذى أسفر عن عدد من الكشوف الجغرافية التى أفادت منها البشرية كثيرا .

● بل ان السماء التي جرت في ساحة الثورة الفرنسية لا يمكن فصلها عن بروز رجل مثل « رويسبير » دموى النزعة ، تخلص من منافسيه جميعا وزرع « عهد الارهاب في فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر .. »

● والظروف القاسية من سجن وعذاب وتشريد ، كانت وراء هذه الاتجاهات الانسانية والنفسية التي حفلت بها مؤلفات « ويستويكسكي » التي عكست تماما أحداث عصره وتأثيرها عليه لاسيما في رواياته : « المساكين - منزل الأموات - الجريمة والعقاب ، وغيرها . »

● والقضية المصرية وحاجتها الى مصام قدير يدافع عن الحق والسيادة الوطنية كان لها دورها في اتجاه شعلة الوطنية « مصطفى كامل » نحو دراسة القانون ، فالتحق بمدرسة الحقوق ليكون هذا المدافع بالصوت والقلم ، في قضية الوطن الكبرى .

● والمؤلف الموسيقى الالمانى الكبير « بيتهوفن ١٧٧٠ - ١٨٢٧ » كان المناخ العام الموجود حوله دافعا له الى تعلم الموسيقى ، ليصبح من اشهر الموسيقيين في التاريخ وليتم رسالته رغم اصابته بالصمم ، وليصبح « الأستاذ » كما يطلق عليه عن حق وجداره .

● والأحداث التي تعرض لها الوطن العربى في حربه مع الروم ، كانت ذات اثر بالغ على مسيرة وشعر رجل مثل « ابي فراس الحمداني » ، لا سيما أحداث أسره ، والمؤامرات التي كانت تحاك ضده وضد ابن عمه « سيف الدولة » ..

● واذا كان رواد الصحافة العالمية ، مدينون ايضا لعصرهم بأحداثه ورجاله ومخترعاته وحروبه وفتنه ومؤامراته ، تلك التي كان لابد من تناولها ، وتقديرها للناس - عامة القراء - في شكل أخبار ومادة اخبارية وما يتفرع عنها .. وحيث تحضرنا هنا أمثلة لأسماء عديدة صنعتها الأحداث ، او صنعت صحافتها نفسها بكل ما ظهر على صفحاتها من افكار وقضايا ومواقف واتجاهات وآراء عبرت عنها الكلمات والصور .. ثم عادت هذه تؤثر في مسيرة مجتمعاتها ، وكان من بين هؤلاء ، على سبيل المثال لا الحصر .

« جون بيتر زينجر - دانيال دينو - رقاعة رافع الطهطاوى - الشيخ

محمد عبده - عبسد الرحمن الكواكبي - جيمس فرائكلين - جيمس ج. بنيت - أمين الرافعي - أحمد حلمي - المويلحي الكبير - جوزيف بوايتزر - الى غير هؤلاء جميعا .

وحيث نقول هنا ، ان فترات الهدوء الكامل ، والواقع المستقر ، لا تصنع اخبارا ، ولا تقدم مادة اخبارية ، حيث تكون هذه وكما اطلقنا عليها من قبل ، فترات « الركود الاخباري » .

لكن ، ليس شرطاً تاماً ان تكون هذه الأحداث حروياً كبيرة على الحدود ، او بين أكثر من بلد واحد ، أو تسيل فيها الدماء دائماً ، وإنما يكفي ان تكون من نوع الأحداث المحركة لسطح المجتمع ، المثيرة لجذباته ، المغيرة لآفاقه ، المؤثرة لأبنائه ، التحدية لهيئته ، المقلقة لراحة افراده . . وحتى ان كان السطح نفسه هادئاً مستقراً ، يعيش بلا صخب ولا ضجيج ، فقد يخفى تحته بعض أسباب التوتر والتحريك القلق للأحداث نفسها .

● بل ان ذلك ليس وفقاً على الصحافة ، وصناعة الاخبار والموضوعات والقصص والتحقيقات والأحاديث والمجريات الصحفية وحدها هذه التي تكون الأحداث مايتها ومداد أقلام اصحابها ، وإنما وينفس القدر أيضاً ، وربما بأكثر منه أحياناً ، تكون صورة أدب فترة معينة . . أو يكون أدبها من نفس جنس هذه الأحداث ومن نفس لونها ، ومن نفس طابعها كله . . بل وقد يكون دافعا الى تغيير الصورة تغييراً كاملاً . . ولن تجهدنا أسماء هؤلاء الأدباء يتتبعهم كثيراً . . فهم من مثل من ذكرنا ، وغيرهم كثير كانوا صوت عصرهم ، ومראה أحداثه ، ومسجله ، وكتابه وديوانه أيضاً . . وخذ عندك هذه الأسماء فقط ، وما قدمت الأحداث المعاصرة لها ، وما انعكس في شعرها عنها ، في العصر الجاهلي وحده . . وحيث نجد عندنا أمثال هؤلاء :

« عمرو بن كلثوم ، عنترة العبيسي - زهير بن أبي سلمى - ثابت شرا » وغيرهم . .

وحيث نقول هنا أيضاً ان فترات الهدوء والاستقرار قد تصنع أدبا ، وهي تصنع فعلا ، لكنه يكون في معظمه أدبا لترجية الفراغ ، تنثر وروده على غنيات البعض ، وتغرد أطيابه في مواكبهم ، ويكون بقدر المنح والعطايا . .



هكذا يكون في معظمه وقد يعيش بعضه ، وقد يخلد قليل منه لجوانب الجمال والابداع فيه ، لكنه مع ذلك لا يعبر كثيرا عن واقع شائكة ومحتسم ، عن دخان معارك ومثار قضايا وصراع فكر .. بل انه ليطفئ فيه الخيال والأسلوب على الواقع ومخاطبة العقل ، وما كان صاحبنا كذلك ..

أردت بهذه المقدمة الطويلة أن أقول أن الجاحظ كان نتاج عصره ، أيها وصحافة وأنه كما يكون الأديب صورة ذلك العصر ، والصحفي محصولتها ، فقد كان « رجلنا » أيضا وهو من هذه الزاوية يعتبر أيها وصحفي معا ، بكل ما أكد أنه نتاج عصره .. ولكن كيف ؟

● أما العصر المؤثر والمتأثر فهو « العصر العباسي » فإذا شئنا أن نحدد على طريقة مؤرخي الأدب ، فهو « العصر العباسي الأول » . ذلك الذي يبدأ منذ قيام الدولة العباسية ، بعد الحروب المستمرة بين الجماعات الشيعية والأمويين ، تلك التي انتهت بانتصار هذه الجماعات ، وفرار عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » إلى الأندلس ليؤسس هناك دولة أموية أندلسية جديدة استمرت قائمة نحو ثلاثة قرون .. فإذا شئنا أن نكون أكثر تحديدا لقلنا أن الرجل قد ولد عام ٧٧٥ م - ١٥٩ هـ أي بعد قيام هذه الدولة بحوالي ١٧ عاما فقط بمدينة البصرة .. تلك التي كانت « نافذة عربية » على العالم الشرقي المعروف في ذلك الوقت ، خاصة بلاد فارس والهند ، كما أنها التي تقع على طريق الكوفة ، التي لم تكن نار ثورتها قد خمدت تماما بعد بل كان وميضها يتأجج أحيانا من « خلل الرماد » ، فترفع بذلك راية العصيان ، وكما حدث أكثر من مرة ، مما دعا « أبو جعفر المنصور » إلى ترك « الهاشمية » عاصمة أبي العباس السفاح ، واتخاذ قرية صغيرة تقع على الضفة الغربية لنجلة ، لتكون عاصمة له ، وحاضرة لدار الخلافة هي « بغداد » .. تلك التي سرعان ما أصبحت ولقرون طويلة ، أهم مدينة في العالم الإسلامي .

وبينما كان « صاحبنا » يخطو خطواته الأولى على مدارج الصبيا ، منتقلا بين حدائق البصرة ، وقنواتها تلك التي تشبه قنوات « البندقية » ، وبينما كان يعدو من بستان إلى بستان ، ومن حي إلى حي ، وعنها بعد ذلك ذاكرته وصورتها بأكثر من طريقة .. كانت الأحداث حوله أكثر عدوا ، وأكثر سرعة ، كانت معالم حضارة جديدة كاملة ، قد بدأت في الوضوح ، كانت ملامح عصر جديد ، مخالف ، خصب ، نام ، متطور مؤثر .. قد أخذت

نشق طريقها بسرعة ويقوة معا ، بينما كان الصبي يتيم الأب جاحظ العينين طموح العوائد عزيز النفس يجمع بين بيع الخبز والمسمك لطلب الرزق من جانب ، وبين التردد على « الكتاب » وبعض دكاكين الوراقين ، ثم بعض مساجد المدينة المتلازمة بنور الدين والعلم والأدب ، من جانب آخر ، كانت الصورة من حوله ، تتحدث بتلك الوقائع ، وتتكلم بمشاهد التغيير ، بل كأن ضجيجها يكاد يعلو على أى ضجيج آخر ، فى العالم المعروف وقتئذ - قرب منتصف القرن الثانى للهجرة - وكانت هذه لقطات سريعة من جوانب وتوايا هذه الصورة نفسها .

● فالانفتاح الفكرى الثقافى والتجارى يمضى على أشده خاصة على بلاد فارس ، وكان هناك حاضرة أخرى تشترك مع بغداد المدينة الكبرى - وليست القرية المسيحية الصغيرة - فى سباق حول هذا الانفتاح ، لاسيما على الحضارة الفارسية ، أيهما ينهل ويغترف وينقل ويترجم أكثر ، ولو حاولنا أن نقوم بحصر لعشر معشار ما كان يجرى فى هذه الميادين كلها ، لما كفانا مثل هذا الكتاب ، ويكفى أن نقول أن نظاما بأكملها ولوائح فى معظمها ، ومكتبات فى مجملها ، ومئات الصور الحضارية الأخرى ، جميعها نقلت ، شكلا ومضمونا ، نواوين ووزارات وكتب ومعمار وفرش ورياش وزخارف وأطعمة ومشروبات وضروب جد ولهو ، وملابس وحجاب وعبيد وقيان وحفلات وتقاليد جديدة وفنون جديدة ، جميعها نقلت إليها ، ومرت بالبلاد العراقية الأخرى ، واستقرت فى معظمها أو انتقلت إليها العدوى البغدادية نفسها .

● وحتى هذه العاصمة الجديدة نفسها ، فقد تجمع من أجل إقامتها وتشييدها ومن أجل عمارة أحيائها وقصورها وشاطئها وحدائقها ومنازلها مئات من المهندسين والوف من الصناع والحرفيين والفنيين من كل المسكن العراقية والفارسية معا بل وجمع لها كل غال ونفيس ونادر مما حوته قصور « الأكاسرة » وانقاضها ، من « الدائن » . تلك التى أصبحت انقاضا ، تنعى من بناها ، أو ينق البوم بها ، لتقوم بدلا منها ، وترتفع عوضا عنها قصور الخليفة والوزراء وأثرياء التجار وقادة الجند وما اتصل بها من حدائق وبرك مياه وناقورات مختلفة الألوان والأشكال .

● وكانت دولة متسعة الأطراف، أو كما يقول علماء «الجيوپولوتيك» . . دولة « عملاقة » بمقاييس هذه الأيام تمتد أطرافها من كشمير وبعض

مناطق الهند وفارس شرقا حتى أقصى بلاد الشام شمالا ، وإلى المحيط الأطلسي غربا ، أى أنها تكونت من حضارات عديدة وشعوب عديدة ولغات عديدة وتقاليد عديدة أيضا ، وكان هذا الاتساع مصدر ثراء وترف ، لكنه أيضا كان مصدر صور ومشاهد وعادات جديدة ، كما كان كذلك مصدر كثير من "القلق والفتن" التي أزعجت الدولة والخلفاء كثيرا ، وحيث كان عليها من هذه الزاوية أن تدفع الثمن من أمنها واستقرارها ، لاسيما وقد استعانت فى القضاء على الثورة ضدها ، بغير العنصر العربى .

كان الصبى يكبر ، وتتأصل أمام عينيه وعلى مسمعه هذه الصور كلها ، وتزداد حجما واتساعا ووقعا واثرا وتأثيرا .. وإذا كنا هنا لم نتوقف عند الجانب الثقافى لهذه المشاهد كلها فما ذلك الا لأننا سنعود الى رؤيته وتبعه فى مواطن أخرى ، أو فى أكثر من موطن آخر ..

المهم ، رجل كانت هذه نشأته ، وتلك هى الصور والمشاهد التي وقعت أمام عينيه ، فراجتا تتابعانها بحس الأديب ، وفكر الملتقط الماهر بل راحت نفسه وراح عقله وراحت عينه وراح فكره ، جميعها تنقلها وتبقيها فى الذاكرة ، أو تخلط بين أطرافها ، وتجمع بين خيوطها ، لتكون منها صورا ومشاهد أخرى ، معظمها واقعى عقلى ، لأنه يقوم على الرؤية والمشاهدة والتتبع والالتقاط ، فقويت بذلك عنده حاسة الصحفي والأديب معا .. فما هى الأحداث أمامه ، بعضها واضح وبعضها الآخر غامض ، بل وشديد الغموض أيضا ، وبعضها معروف ، ومتابع ، وبعضها الآخر غير معروف يحتاج هو أو تحتاج معرفته الى بحث وراء بعض خيوطه أو لاستجلاء بعض معانيه ، أو من أجل مزيد من الشرح والتفسير لها ، وبعضها كذلك ، يحتاج الى سفر طويل أو قصير ، وإلى لقاء مع أكثر من شخص ، بعضهم يقيم بالمدينة ، وبعضهم يضرب خيمته بالبادية ، وقد يحتاج الأمر الى تأكيد وتدقيق ، ليكون ذلك فى « يكاكين الوراقين » نفسها .. وهكذا ، وما الى ذلك كله ، وغير ذلك ، كله .. مما كان موضوع نتاج الرجل ، ومجال فكره ، بل ونتاجه هو نفسه وإذا كنا سوف نناقش أو نتعرض لهذه الأمور كلها مرة أخرى عند تناولنا للمجاذب « مصور عصره » وليس صورته ، فإننا نضيف هنا ..

ان هذه الأحداث كلها ، هذا العصر بما فيه ومن فيه قد تدخل فى « تشكيل » صورة الزجل ، ورسمها ولونها الى حد كبير جدا ، ومن ثم فقد

أزديحت رأسه بأمثال هذه الشاهد ، وزخر بها صدره ، وطلعت على فكره ، وملكت عليه حسه وقواده ومن ثم فقد جاء نتاجه معبرا عن ذلك كله ، يظهر فيه أثره ، كما لم يظهر في كراسات أو رسائل أو كتب غيره من أبناء العصر نفسه ..

وحتى لا تختلط الحدود أو الأوراق عندنا بين « الجاحظ » نتاج عصره ، والجاحظ مرآة عصره ، فإننا نقول أن السطور القادمة سوف تقدم — بانن الله — مزيدا من الضوء حول هذا النتاج ، بأسلوب أكثر التصاقا من كتابات الرجل ، لكننا نركز هنا على نقطتين :

● أن تأثره بعصره قد دفع به إلى أن يعيشه بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، دفع به إلى أن يرتاد المساجد والمكتبات والدواوين والقصور ودور اللهو ومجالس الأنس ومجتمعات الندامى وبكاكين الوراقين وأحياء الزنوج ومواقع السفلة ، بل لقد اكتوى الجاحظ بنار الفتن السائدة ، وخاض مواقف التحديات ، ورأس إحدى طوائف المعتزلة وتحدث بلسانهم ، وقبض عليه أكثر من مرة ، وسبق مكبلا بالأغلال وسجن ، وبولغ في أهانتته ، وفي السخرية منه ، تماما كما بولغ في مديحه والثناء عليه ، كان نتاجا للعصر بكل صوره و « متناقضاته » و « كرنفاله » جده وهزله ، علمه ولهوه عمله ومجونه .. ومن ثم كانت خبرته بذلك كله ، وراء كتاباته العقلية والموضوعية والتسجيلية الصادقة ، ألا يعنى ذلك كله أن الرجل كان نتاجا صادقا وواقعا لهذا العصر بكل ما فيه ، ومن فيه ؟!

● أننا نشير هنا إلى بعض الأقوال التي اتجهت إلى بيان ذلك ، وانفقت فيه مع أفكارنا ، بعد أن أضفنا إليها « الملحق الصحفي » :

— أن أحد كبار الدارسين لنتاجه الفزير ، يقول في مقدمة تحقيقه لكتابه « البخلاء » ... أن الجاحظ : « من أوفى أهل عصره لطابع ذلك العصر » (١) .

— ويقول دارس متابع آخر : « كان معظم النتاج الأدبي قبل الجاحظ لا موضوع له يدور في حلقات مفرغة منمقة الحواشي من الفاظ مرصوفة أنيقة على غير مضمون ، فإذا بصاحبنا يشق طريقا جديدة ساعده فيها ابن المقفع

فيجعل من الأدب مرآة المجتمع والحياة ، فإذا كل شأن من شئون الوجود يصلح مادة لقلمه ، حتى القينة واللص والجن وجدت لها مقاما في آثاره المتنوعة بتنوع الأشياء والكائنات ، (٢) ٠٠

ومن المؤكد — بإذن الله — أن السطور القادمة سوف تضيف جديدا إلى هذا الموضوع •

### مكوناته

وإذا كان الصحفي عند بعضهم — ونحن نميل إلى ذلك الجانب — هو الرجل المكون من عدة رجال ، أو هو الذي يأخذ من كل بستان زهرة ، أو — وكما نحب أن نقول أيضا ونكرر في مؤلفاتنا ومحاضراتنا — هو رجل « الاختصاص العام » ، وأن جمع إلى جانبه « اهتماما خاصا » ٠٠ إذا كان الصحفي عند بعضهم هو ذلك الرجل ، فإن من الضروري أن يكون « تكوينه » ٠٠ وبمعنى استعداداته وتربيته وثقافته وتعليمه مما يتجه إلى احراز هذا الجانب العام في شخصه ، حتى وإن كان له اهتمامه الخاص ، ذلك الذي قد يكون أدبا ، أو ما يتفرع عن الأدب ، أو يكون علما أو ما يندرج تحته أو يكون غيرهما ، وما ينبثق عن هذا الغير ٠٠

وياختصار شديد نقول ، وحتى دون أن نقدم أكثر من مثال لذلك ، أن مدارس الصحافة (٢) ، وإن معاهدها ، وإن كلياتها وإن أقسامها قد وعت هذه الحقيقة منذ انشائها في الربع الأخير من القرن الماضي ، وقبله بقليل ، فقد كانت برامجها التعليمية تتكون من قسمين رئيسيين أولهما « القسم العام » الذي يبرز في عقل الطالب وصدره بذور « الرجل العام » أو « المثقف العام » ٠٠ ويعمل على تكوينه بأعطائه من كل بستان زهرة ، ومن كل بحر قطرة ، حتى يشب على ذلك ، ويتعوده ، ويمارسه ، ومن ثم فقد كان هذا القسم الأول من البرنامج الدراسي يشمل هذه المناهج كلها ، وأحيانا يشمل أكثر منها مع تركيز شديد على أساسياتها :

- مبادئ الاقتصاد •
- القانون العام •
- الجغرافيا الاقتصادية •

- الجغرافيا السياسية •
- النقد الأدبي •
- المجتمع العربي •
- التاريخ خاصة الحديث وتاريخ العصور الوسطى •
- الثقافة الإسلامية •
- التطور العلمي •
- الترجمة الانجليزية •
- الترجمة الفرنسية •
- بعض اللغات الضرورية خاصة الانجليزية والفرنسية والالمانية •

الى غير هذه من مواد مشابهة ، أو متفرعة عنها ، لكنها — فى جميع الأحوال — كانت تحاول تكوين مثل هذا الصحفى الذى يعرف شيئا من كل شيء ، كما كان بعضها يتسم بالرونة ، ويساير روح العصر ، وماجريات أحداثه ، لاسيما مادة « التطور العلمى » ومادة « الجغرافية السياسية » •

وأما المجموعة الثانية أو القسم الثانى من هذا المنهاج ، فقد كان هو القسم الخاص بدروس ومقررات الصحافة المطبوعة ، وما اتصل بها من مواد تقف على هامشها (٤) وكان من أهمها :

- التحرير الصحفى العام •
- الخير ومصادره •
- تحرير الخير •
- تحرير التقرير ( الحديث والتحقيق والمآجرى والتقرير المصور ) •  
( وبعضها يدرس كل فن على حده فى فصل دراسى مختلف )
- تحرير المقال •
- تاريخ الصحافة فى العالم ( بعضها يقسمه الى مقررين للصحافتين الأمريكية والأوروبية ) •
- تاريخ الصحافة العربية •
- تاريخ الصحافة فى البلد نفسه أو فى منطقة ما : ( مصر — سوريا — تونس — السعودية — أو فى افريقيا أو تاريخ الصحافة الخليجية ) •

- ١ — تشريعات صحفية « جرائم النشر »
- ٢ — الإخراج الصحفى ( بعضها يدرس الإخراج والطباعة معا أو يفصل بينهما ، وبعضها يفصل بين إخراج الصحفى من جانب وإخراج المجلات من جانب آخر ) •
- ٣ — الطباعة •
- ٤ — التصوير الصحفى •
- ٥ — المكتبة الصحفية « توثيق المعلومات الصحفية » ••

الى غير هذه كلها ••

وبعضهم يقسمها الى ثلاث مجموعات أو أربع ، فتكون هناك مجموعة خاصة لغوية للغات والترجمة ، أو للمقررات أو المواد الهامشية ، وقد تضاف اليها خامسة لمتطلبات التدريب أو « العمل الصحفى » •• أو تكون لكل مادة صحفية تدريباتها العملية ••

المهم انه كانت هناك : مجموعة يرجون من ورائها تكوين مثل هذا « المثقف العام » وأخرى ياملون من ورائها تكوين مثل هذا الصحفى ••• ويلحون فى ذلك ايضا ••

أردت بهذه السطور أن تكون بمثابة مدخل للحديث عن مكونات رجلنا ، أو موضوع هذا الكتاب « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » •• فهل كان هناك ما يتصل به هو شخصيا من زاوية هذه المقدمات ؟ ••

● ونبدأ بالثانية — المكونات أو المقررات التى ياملون من ورائها تكوين مثل هذا الصحفى — لنتناولها من خلال نقطتين أساسيتين :

★ اما النقطة الأولى ، فهى انه لم يكن من المحقول أن يقوم «الجاحظ» فى طفولته أو فى صباه ، أو فى شبابه أو حتى فى شيخوخته بدراستها ، لأنها لم تك موجودة كما نعرفها الآن — الصحافة هنا — حتى يدرسها هو أو غيره وأن كانت الصلات قائمة ووثيقة بين بعض ألوان النشاط الفكرى السائد وبينها لا سيما ما اتصل بنشاط براوين عديدة من أبرزها ( الخبر — الانشاء — الرسائل ) •• وبين بعض الفنون الأدبية من أمثال : « القصص العربى —

القصص القرائي - الأخبار والأخباريون - آداب الرحلات - فن المقامة - فن الترجمة الشخصية « ٠٠ وما إليها ، كان الصلات قائمة ووثيقة بين نشاط هذه الدواوين والكتابة في هذه الفنون وغيرها من جانب وبين الصحافة ، أو الأدب الصحفي من جانب آخر ، حتى دون معرفة هؤلاء بالصحف التي تصدر اليوم - لكنهم - بالمقطع - كانوا ينظرون إليها على أنها من جنس الأدب لا الصحافة ، وليس لأحد أن يطالبهم بغير ذلك ٠٠

لكن - من حيث « تعليم الصحافة » ٠٠ فإن الجاحظ لم يكن بدعة في ذلك فحتى أوائل الخمسينيات في مصر ، لم يكن من الضروري أن يكون الصحفي متعلما وما يزال بعض من لم يدرسها يحتل المراكز المرموقة جدا في بلاطها ٠٠ وما تزال كثرة من المحررين في بعض البلاد ، من انصاف المتعلمين ، أي أنهم لم يدرسوا لا الصحافة ولا غيرها ٠٠

★ وأما النقطة الثانية - فقد كانت دراسته للفنون الأدبية تجب ذلك كله ، لا سيما وقد ركز في هذه الدراسة - كما قال هو نفسه ووضح في دراساته - على ما يفيد منه الخاص والعام ، وعلى ما يجد تجاوبا عند عصره ، وأقول ، أن من يقرأ الجاحظ يعرف أن دراسته هذه ، كانت تتجه من حيث يدرى ، أو من حيث لا يدرى ، إلى هذه الفنون الأدبية التي ولدت بعد ذلك عددا من الفنون الصحفية أو أثبتت الأخيرة منها ، أو انسلخت عنها ورضعت لبانها ، ونمت وترعرعت بين أحضانها أيضا ، أي أنه من هذه الزاوية ، وعلى الرغم من عدم وجود مدارس وأقسام وكليات الصحافة ، وعدم معرفة هذه العصور بتلك الدروس كما نعرفها اليوم ولا بتلك الفنون كلها ٠٠ إلا أنه درس أصولها ومنابعها الحقيقية وكيفى نظرة واحدة إلى تلك المصادر الأصيلة ، والبشرية ، وتلك الينابيع العذبة ، التي استقى منها مادة كتاب من كتبه ، مثل « البيان والقيمين » ٠٠ ليضع الباحث في « فن التحرير الصحفي » أو « البلاغة الصحفية » أو « الأدب الصحفي » يضع يده على كثير وكثير جدا ، من أسس وقواعد هذه الدراسات كلها ٠٠

لقد درس « الأصول » ٠٠ ولكن بأسلوب يتلاءم مع عصره واتجاهاته ومعارفه .

● وأما الأولى : وأكاد أقول أنها عندنا أهم من السابقة ، فهي



دراساته ، و تلك المكونات التي أسفرت عن تكوين هذا الرجل ، الذي نقول أنه كان طرازاً نادراً من رجال « التخصص العام » ٠٠ أو من « الموسوعيين » الذين قامت على اكتافهم صحف ومجلات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا ، خاصة صحافة المجلة كما قامت على اكتافهم هذه الصحافة الأخيرة أولاً ، والعامية ثانية في مصر وسوريا والعراق والجزائر في نهاية القرن السابق ، وأوائل القرن الحالي .

• وبداية نقول أن « صاحبنا » كانت دراسته شمولية ، متنوعة ، تضرب في أكثر من مجال واحد ، وتتصل بأكثر من تخصص واحد ، بل وبالعديد من المجالات والتخصصات المختلفة ، قبل أن نتحدث عنها ، نلقى نظرة على عدد من هذه الينابيع التي استقى منها هذه الثقافة بمعناها المتسع والكبير ، والتي جعلت منه في النهاية ، رجل « التخصص العام » وهي صفة صحفية في أغلب الأحوال ، ولازمة للمعاملين في بلاط صاحبة الجلالة من أمثال « الكتاب الصحفيين » ٠٠ وغيرهم ، وحتى أصغر المنوبين ، الذي يكون عليه أن يعرّف إلى جانب حقل عمله ومنطقة اختصاصه ، كثرة من الحقول ومناطق الاختصاص الأخرى ، والاضاقت الفرص أمامه ، وأصبح حبيس جهة واحدة ، ومصادر واحدة ووجوه واحدة فقط ، بل ولعلاء الصدا ، واعتراه الجمود ، وتسللت إلى عمله الرقابة ، والركود ٠٠ وجميعها في غير صالحه ، وفي غير صالح العمل الصحفي في مجموعه ، وبالطبع فإنه يستثنى من ذلك بعض المنوبين في جهات « القمة » وأماكنها الحساسة التي يوقف المنوب عليها عمره وتستحق هي ذلك كله ٠٠ ولكن ليست أية جهة أو منطقة اختصاص غيرها .

أما هذه الينابيع فهي :

١ — الكتاتيب : تلك التي راح يلتحق ببعضها منذ طفولته المحرومة ، وصباه الشقي المكافح ، وواضح أن ما تقدمه هذه يتركز معظمه في حفظ القرآن الكريم ودراسة الحديث النبوي ، وقدرا معقولا من علوم التفسير والفقه إلى جانب بعض المسائل اللغوية التي كانت تقدم لمن هم في مثل سنه ، وأنن قالأساس ديني لقوى ، كأساس غيره ، وهو أقوى الأسس التي ارتكزت إليها طوائف « الموسوعيين » ٠٠

وواضح أننا إذا كنا نعني الكتاتيب مكانا أو أطارا ، فإن التوجه كان

أولا للقرآن الكريم والحديث النبوى .. لا سيما فى مؤلفاته اللغوية والبلاغية  
وحتى العلمية أيضا .

٢ - سكاكين الوراقين : وعند بدأ الجاحظ « الغلام » هنا ، يشب عن  
الطوق ويتعرف على من حوله ، قويت لديه الرغبة كزملائه الكبار فى المزيد من  
المعرفة ، أو الثقافة العامة ، وليست الدينية فحسب ، وكان من المعسرف  
أن هذه يمكن أن يجدها فى أكثر من مكان من أهمها « سكاكين الوراقين » ..  
ومن ثم راح يفضاها ، فى بعض الأحيان أو يستأجرها فى أحيان أخرى ،  
يجلس بها الساعات الطوال ، ويصل ليله بنهاره حتى يأتى على أغلب الموجود  
بها ، وهو ممثل لثقافة العصر العربية ، وتلك المنقولة أو المترجمة عن الفارسية  
والهندية واليونانية ، التى وصلت كتبها مع من حضر من أبناء هذه الشعوب  
الى عاصمة الخلافة ، أو البصرة - العاصمة الثانية - أو مع التجار أو مع  
الرحالة والجنود ، ومن خلال ما حدث من امتزاج بين العنصرين ، العربى ،  
والعناصر الأخرى ، خاصة الفارسية والهندية ، التى تقع البصرة على طريقها ،  
وتعتبر من مناطق الجذب بالنسبة لها ..

وكما وضعت « الكتاتيب » أسس ثقافته الدينية ، فقد أضافت إليها سكاكين  
الوراقين كثيرا ، ثم جاءت بأكثر من لون من ألوان الثقافة الأخرى ، اللغوية  
والأدبية والفارسية والهندية لتضعها بين يديه ، وطوع بنائه .

٣ - المساجد : وإذا كان انتشار المدارس الفكرية والفلسفية والعقائدية  
يعد ظاهرة فى هذا العصر ، فقد كانت هناك أيضا « المدارس المسجدية » ، تلك  
التي كانت تؤمها طائفة كبيرة من الذين كانوا يربون العلم من أجل العلم ،  
ومن ثم شهدت هذه المساجد حركة ثقافية دينية علمية كبيرة ، كانت مناقشاتهما  
تمتد طويلا ، وتتفرع وتتشايك ، كما اتصلت بموضوعات عديدة أخرى ، لغوية  
وتحوية وبلاغية وأدبية يقوم عليها عدد لا بأس به من العلماء أطلقت بعض  
المراجع العربية عليهم تعبير « المسجديين » وكان من أهم ما يميزهم تنوع  
المجالات والاهتمامات ، حتى قيل عنهم أنهم وأن انطلقوا من الأساسيات الدينية  
واللغوية ، إلا أنهم لم يتقيدوا بها ، بل لم يتقيدوا بعلم واحد ، وأكثر من ذلك  
وأهم منه أيضا أن هؤلاء لم « يتبحروا » فى علم واحد من العلوم ، ولم يكونوا  
من أصحابه دون غيره أو من أهل « التخصص الدقيق » فيه .

وعندى أن هؤلاء ، بالإضافة الى استعداد الرجل نفسه ، والى عدد من الذين يمكن أن نطلق عليهم تعبير «الموسوعيين» ٠٠ كانوا هم من أبرز المؤثرات فى مكونات الجاحظ العامة ، او فى اتجاه « التخصص العام » الذى سيطر عليه .

٤ — العلماء : كثير من العلماء والرواة واللغويين والخطباء اثروا فى اتجاهات الجاحظ عامة ، لكن من الملاحظ هنا أن بعض العلماء كان اثره وقتيا محدودا وإن أفاد منه ، وبعضهم الآخر كان تأثيره كبيرا ، ومهما ، ومن الغريب أن هذه الطائفة التى كان تأثيرها على فكره أشد وقعا ، وأمضى استجابة ، كانت من بين هؤلاء الذين عرفوا بالشمولية وانطلاقة الفكر الى ميادين عديدة قد تستعصى على بعض علماء اليوم ، وهكذا اجتمع له تعدد موضوعات هؤلاء ، مع تعدد موضوعات « المسجيين » ، لتترك هذه كلها أثارا فى نفس الرجل وصدره وفكره ، وكان من بين هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر خاصة ممن اثروا فى اتجاهاته الكتابية التى نعتبرها أدبا صحفيا :

● « أبو عبيدة » ذلك الموسوعى الذى نعتبر أنه كان من أكثر من ترك « بصماته » الواضحة على فكر الجاحظ « الشمولى » أو ما يتصل بجانب « تخصصه العام » لا سيما وأن تأثيره قد جاء فى فترة مبكرة من الوقت ، وهو يجتاز المرحلة من الصبا ، الى الشباب المبكر ، ومن ثم فقد حفر هذا الرجل اثره فى وقت مناسب ، وصدر مستعد وتعامل مع فكر متقبل وذائكة حافظة ، وقد أوفاه الجاحظ حقه ، فتحدث عنه كثيرا ورفعته الى المكانة التى يستحقها ، وكان مما قال عنه « لم يكن فى الأرض خارجى ولا اجماعى أعلم بجميع العلوم منه » (٥) .

وإذا كانت لرجل مؤلفاته المتعددة ورسائله التى جلت عن الحصر، وخاصة فى موضوع الطير والحيوان والحشرات، الى جانب عجائب البر والبحر، واللوان الشجر والثمر ، فأننا نضيف هنا أننا لا نستبعد أن يكون اهتمام الجاحظ يمثل هذه المخلوقات والأشياء يعود الى هذا الرجل أولا ، وقبل غيره ، والى انجذاب الجاحظ به وبحكاياته ورواياته ورسائله ، فى تلك المرحلة المبكرة من العمر ، وهو ما أسفر بعد ذلك عن كتاباته المماثلة ، والتى أوشك أن يتفوق فيها على الأستاذ نفسه خاصة مؤلفه الكبير « الحيسوان » الذى سيرد ذكره فى حينه باذن الله .

( الجاحظ )

● « النظام » وإذا كان الموسوعي السابق هو من لفت نظر الجاحظ ووجه فكره الى التناول الشمولى عامة ، وموضوع الحيوان والطيور والحشرات والعجائب خاصة ، فقد كان هذا الأخير « أبو اسحق إبراهيم بن هانيء » هو الذى وجه نظره ، ومهد فكره للمسائل المتصلة بالفلسفة والسياسة وجوانب الرأى العقائدى معا لاسيما تلك التى تتصل بالفرقة الدينية المعماة بـ « المعتزلة » ، خاصة اتباع هذا الرجل من « المعتزلة النظامية » ٠٠ وعموما فإن الرجل لم يكن وحده الذى فعل ذلك ٠٠ على أنه كان من أهم مؤثرات النظام فى صاحبنا :

- البحث وراء العلل والأسباب لكل الظواهر القائمة ، أو ما يستجد منها .
- الشك فى كل ما هو قائم حوله ، واتخاذة بداية للتفكير فى الأصول والفروع .
- الحرص على حرية التفكير والتعبير والعرض عليهما بالنواجد .

— الكلام المختصر المرسل وغير المسجوع الا ما جاء غفر الخاطر ٠٠ باختصار شديد ، كان النظام مذهبيا وصاحب فلسفة ورأى وعالم وباحث ، ومن ثم ، فاننا لا يمكننا استبعاد تأثيره على اتجاهات الجاحظ الفكرية والمذهبية ، بل والتأليفية والكتابية — أو التحريرية — العامة ، واضيف هنا ما نكره باحث جاد ، عن جانب من جوانب أثر هذا الرجل : « ٠٠ وقد أثر النظام فى الجاحظ تأثيرا بليغا ، وكانت طريقته فى التحرير من أركان طريقة الجاحظ العلمية » (٦) .

● « الأصمعى » ٠٠ قلنا أن أبا عبيدة لم يكن وحده هو المؤثر ، ولا كان النظام أيضا وإنما يقترب منهما ، فى بعض هذه المجالات الشمولية ، ويضيف اليهما جديدا من الأثر فى عديد من الموضوعات اللغوية وما يتصل بالاختصار والرواية وجمعها ، الى جانب تعود تقديم الملح والطرائف والاهتمام بما يثير الفضول والتشويق ، وجمع النوارد ، وما إليها ، تلك التى حفلت بها كتابات « صاحبنا » بعد ذلك ، وكانت طابعا عنده ، لا سيما تلك التى جاءت على صفحات « البخلاء — الاخوان — الأخبار وكيف تصح » وغيرها ٠٠

وغيرهم ، وغيرهم ، خاصة من عرب البادية ، وهؤلاء الذين كانوا يجمعون بين أكثر من مادة واحدة ، أو موضوع واحد ، على النحو السابق ٠٠

مما يعود الى تذكرنا بمناهج ومقررات اقسام وكليات ومدارس الصحافة ، تلك التي تهدف الى اعطاء شيء من كل شيء ٠٠ مع الاحتفاظ لكل بمستواه وطابعه ، وما ابعد المسافة بينهما ، او شتان بين مستوى قديم واصيل وجوهري ، ومستوى معاصر « قشري » او يكاد يكون كذلك .

## التثقيف الذاتي

لكننا في واقع الامر نعلم « رجلنا » ظلمنا فادحا ، ونبخسه حقه تماما ، ان نحن قلنا ان هذه المكونات وحدها ، كانت وراء هذا المستوى الجاحظي فكرا وثقافة وبحثا ولغة ٠٠ متجاهلين بذلك ، او متناسين ذلك الجانب الذاتي الخاص بهم ٠٠ فلا العصر نفسه بكل ما فيه من نشاط بيئي وعلمي واغوى وفلسفي وادبي ، وبكل ما شهده من نمو وازدهار ، ومن صراع فكري وعقائدي ، ومن كثرة في المساجد والمدارس والكتاتيب ، ومن انشاء للمكتبات ، ومن تشجيع الخلفاء والأمراء والأثرياء للعلماء والأدباء ، ومن مجالس للعلم والادب ، تقدم فيها الهبات وتمنح « الاكراميات » وتتابع العطايا ٠٠ ومن مترجمات كاملة عن الفارسية والهندية واليونانية ومن وقود علماء الدنيا المعروفة على حاضرة العباسيين - بغداد - وعاصمتهم الثانية - البصرة - يحملون نتاج حضارات عديدة مجتمعة ، قديمة وجديدة ، شرقية وغربية لم تكن هذه كلها لتؤثر وحدها ، دون قيام هذا الجانب الذاتي الخاص نفسه ، بل ان الكتاتيب ، و « نكاكين الوراقين » و « المساجد » و « عشرات العلماء » لم تكن لتنتج أو لتثمر كل هذا الحصاد الوافر أو الفيض الغامر ، دون قيام لهذا العامل الذاتي المهم ٠٠

٠٠ ان هذه « الأجواء » الفكرية والسياسية والعقائدية والثقافية التي سادت هذه السنوات الخصبة المثمرة ، كانت تظلل الجميع بظلالها ، وتمد أثرها الى كل مكان ، ولم تكن وفقا على المدينتين الكبيرتين وحدهما - بغداد والبصرة - وإنما راحت تنساب مع مياه دجلة والفرات من أقصى البلاد الى اقصاها ، تأثر بها الريف والحضر ، بل امتد أثرها الى خارج الحدود أيضا ٠٠ أي أنه كان في طائف الجميع أن يفهموا منها ، وكانت هي ، بكل اشراقها وضجيجها وجلبتها طوع ايديهم وافكارهم واسماعهم ٠٠

فلماذا افاد منها الجاحظ ونفر قليل من أمثاله قبل غيرهم ؟ وافاد منها

هو قيل غيره بحيث لم تر له مثيلا في عصره ، اللهم الا ناسرا ؟ ٠٠ حتى قيل عنه ، من جانب مؤيديه ومعارضيه معا ، ومن بين كثير مما قيل عن الرجل :

● « القرن الثالث يسميه صديقنا الأستاذ أحمد أمين : عصر الجاحظ » (٧) .

● قلما عرف الأدب العربي في مختلف عصوره أدبيا موسوعيا بلغ ما بلغه الجاحظ من غزارة في المادة ودقة في التحليل وعمق في النظر وتنوع في مجالات الابداع ، (٨) .

● « كان دائرة معارف عصره » (٩)

بل ، لقد أتيج لأبناء الخلفاء والأمراء وكبار التجار والأثرياء ، اضعاف ما أتيج له من فرص التعليم والتثقيف والاعتراف من هذه المصادر كلها . وهو الصبي اليتيم ، ابن الأسرة الفقيرة ، الذي كان يتكسب عيشه ببيع الخبز والسمك ، عند ملتقى بعض القنوات بالبصرة ٠٠ لكنه ، ومع ضيق ذات اليد ، كان يحمل بين جنبيه ، هذه « الكوفات » الخاصة كلها ٠٠ التي اعانته على شق الطريق وتحمل مصاعبه ، ومن ثم ، فقد بز هؤلاء جميعا ، ووصل الى هذه المكانة الهائلة ، التي يحسده عليها أمثالهم من معاصريه ، ومن غير معاصريه ، بل وربما لم يصل اليها لا أقول بعض هؤلاء الأثرياء ، أو كبار التجار ، وإنما بعض الخلفاء والأمراء والوزراء أنفسهم ، ممن قد لا يعرفهم البعض الا من خلال دروس التاريخ ، بينما يطويهم النسيان وتطوى صفحاتهم بمجرد انتفاء الحاجة ٠٠ ذلك كله بينما يعيش الجاحظ بفكره وأدبه وجوانب عبقريته من حقبة الى حقبة ، ومن عصر الى عصر ، ومن جيل الى جيل ، في وجدان الطالب والباحث والمثقف والأديب ٠٠ وحتى هواة « الفكاهة » أيضا ، تلك التي كان الرجل علما من اعلامها ، وله مدرسته المعترف بها ، في هذا الفن أيضا .

ان باستطاعتنا ان نتوقف عند عدد من أهم معالم هذا الجانب الذاتي نفسه الذي بز به أقرانه ووصل الى تلك المكانة ٠٠ ان من بينها :

★ احساسه « الجذري » العميق ، والذي لازمه منذ صباه بضرورة الاعتماد على نفسه وتحمل مسئوليته وقد بذر ذلك في صدره ، وحتى يمكن

أن يتحقق له هذا الاعتماد على النفس أكثر من بذرة سرعان ما نمت وترعرعت لا سيما بعد أن أضيفت إليها وتشابكت معها عوامل أخرى عديدة ، أما هذه البذور نفسها فهي :

- عدم التخوف من مخالطة الناس ، وتعود مناقشتهم والشد والجذب معهم .
- معرفة طرق البعض في التفاصيل وقيادة الحديث وتوجيهه الى صالحهم .
- عدم التسليم بما نعه ، الا عن رضى واقتناع كاملين .
- الاستماع الى ما يدور حوله من مناقشات على قارعة الطريق وبجانب قنوات البصرة وفي حدائقها ..

باختصار شديد ، لقد كان هذا الواقع نفسه وراء ما يكون لديه بعد ذلك من « حاسة اجتماعية » جعلته يختلط ويناقش ويحل ويفسر ، في هذا السن المبكر .

★ ولعل الاستماع الى امثال هذه المناقشات العامة ، ثم ما كان يدور في الكتاب قد فجر عنسده بعض « المواهب » لأول مرة ، لا سيما موهبة « الاستماع » او « الانتصات » وكذا موهبة « الحفظ » .. فتترب خلال هذه الايام ، وكثر تدريبه على حسن الاستماع وله اثره الكبير في دقة المتابعة ، ويقتطع الفكر واستيعاب ما يدور ، ثم كشف ذلك عنده عن هذه « الذاكرة القوية » التي تحسن النقاط الصور والمشاهد وتجيد الحفاظ عليها ، لتخرجها « عند اللزوم » .. وفي الوقت الذي تريد .

★ لكن نفسه الطموح ، ورغبته في الاستزادة ، واحساسه بأن فكره يريد ما هو أكثر من علوم الكتاتيب التي كان يؤمها غيره ممن هم في مثل سنه ، وليسوا في مثل تجربته ، دفع به الى نكاكين الوراقين ، ليقرأ فيها بنهم ، محاولا اشباع فكره الذي يلح عليه بالمزيد ، ومن ثم بدأ يقترح مجالات ثقافية جديدة ، وكلما أخذ شيئاً طلب فكره المزيد .. حتى كان من بين ما قاله عنه في هذا المجال صاحب « معجم الأنبياء » « حدث ابو هفان قال : « لم ارقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط

الا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى انه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبيت قبيها للنظر . (١٠) ٠٠

لكن حتى هذه لم تكن تشفى غليله الى القراءة والمعرفة ، واكاد اقول ، لم تكن هذه الدكاكين على اتساع وتعدد وتنوع ما حوت من تصنيفات ومترجمات ومخطوطات الا لتشبع بعض حاجته ، من ذلك ، ومن ثم فقد راح يبحث عن مناهل جديدة يضيفها اليها ، ليفتخر منها ما شاء له الاغتراف ، حيث كانت هناك هذه الطائفة من العلماء ، ما نكرنا منهم وما لم تذكر ، وكان هناك ايضا عرب البادية ، وأهل المريد والمساجد ومجالس القصور ٠٠ وما الى ذلك كله ٠٠

لقد جعل ذلك منه ، هذا الانسان المثقف «الأمويونجي» أو المثقف «القياسي» أن صبح استخدام مثل هذا التعبير ٠٠ بل لقد أصبحت هذه الرغبة في المزيد من المعرفة «حاسة» و «ظاهرة» لازمته حتى آخر لحظة من لحظات حياته ، بل كانت «الكتب» التي يحتفظ بها بالآلاف ، في بيته البصري الذي شهد نهايته ، هي سبب وفاته ، عندما سقطت عليه ، فهوى تحتها جسده العليل ، ولم يستطع النهوض وهو يحمل «تلا» منها ، كتمت أنفاسه ، ولم تتركه الا بعد «تكفن» بورقها ومدادها ولعلها «الوقاة المناسبة» الوحيدة ، التي كان يرجوها لنفسه ، ويشاء الله الا يحرمه منها ٠٠

★ باختصار نقول ، كانت المعرفة منهجه الحياتي ، وكان لا يشبع ولا يرقى منها أبدا ، بل دائما يحس بحاجته الى المزيد ، ومن هنا فقد راح يطرق مجالات جديدة من الفكر لم يسبقه أحد اليها ، الا فيما ندر ، وليس بنفس الدرجة من الوضوح ، والعمق ، في أن واحد ، أو نقول ، ليس الى هذه الدرجة من «التخصص العام» ومن الشمولية ، والبراعة معا ، لقد امتدت ثقافته الذاتية الجديدة الى موضوعات عديدة ، كان من بينها على سبيل المثال لا الحصر ، هذه كلها التي تناولتها كتبه ، أو تناولها في مجالسه ٠٠

- المفاضلة بين الشعوب التي دخلت الاسلام من زوايا الفكر والأثر في الحضارة الانسانية وبعض معالم «الشخصية» الخاصة ، وجوانب الابداع المختلفة .
- كتبه في «الأخلاق»
- تناولاته للمذاهب والعقائد المختلفة



— صورة القلمية

— الجديد الذى أضافه الى « الفكاهة » ، من حيث الموضوع والدلالة  
والخصائص الفنية معا

كانت هذه بعض ما أوجت به ودفعت اليه وقادت هذه الثقافة الموسوعية  
المتميزة من أفكار ، انبثقت عن تلك الأغراض والموضوعات « التقليدية » أو  
« الكلاسيكية » التى كان يحوضها أو يتناولها علماء عصره ، وكتابه .

وأن ٠٠ فقد كان حبه للثقافة « فضيلة ذاتية » أولا ، وحاسة خاصة،  
تحدد له أضيفت الى هذه المكونات الأخرى ، ودعمتها ، واكبت على جوانب  
الاقادة منها ٠٠ لتتشابك هي ، وتتعانق وتآلف ، وتنتج فى النهاية هذه الملامح  
المعقدة لشخصية أدبية وصحفية معا ، يزدحمان فى جوف مصدر وفكر  
رجل واحد ٠٠

فإذا عدنا الى استعراض أبرز هذه المكونات الجاحظية ، فى ضوء مكونات  
الصحفى المبرز ، المرموق ، الموهوب ، المتصل ، الممارس ، المثقف ، وليس  
أى صحفى ، لوجدنا أن مكونات الرجل ، وروافد فكره ، وتعدد منابع معرفته ،  
واهتمامه بإضافة الجديد « الحادث » ٠٠ وولعه بإبتكار الموضوعات والأغراض  
الجديدة ، وحرصه على ذلك كله ، لتأكد لنا أننا أمام شخصية أدبية وصحفية  
معا ٠٠٠

وخذ عندك مثلا ، أو على سبيل المثال لا الحصر ، هذه النقاط الأخيرة  
فقط ، والتى وردت تحت عنوان « التثقيف الذاتى » ٠٠ لقد رأينا ان مؤثرات  
حياته ، وان رغبته العارمة التى لا تنقطع من أجل مزيد من المعرفة ، قد أدت  
به الى :

— انتهاز الفرص التى تمنح من أجل مزيد من الكسب «الثقافى» هنا

— تكوين حاسة اجتماعية « تتعرف وتستمع وتناقش وتدعم مسلات

صاحبها باناس وافكار وعادات ومواقف متباينة

— تكوين ودعم وتدريب حاسة حافظلة وذكرة قوية

— تكوين « النموذج » للباحث الملقب الذى يضرب فى أكثر من ميدان،

وأكثر من حقل ٠٠

هل أقول أن هذه جميعها تعرفها أيضا « مكونات الصحفي » ، كما ينبغي أن يكون ؟ أم « أنظر » حتى نتعرف على جوانب جديدة من شخصيته ، حتى تكتمل الصورة نفسها ، صورة « الجاحظ صحفيا » ؟ أو - على الأقل - الجانب الصحفي عند الرجل ؟

اثنى ، وقبل الانتهاء من هذا البحث ، اتوقف عند نقطتين أخيرتين ، تتصلان بهذا الموضوع نفسه ، موضوع « المكونات الجاحظية »

● أما أولاهما : فهي عودة سريعة ، نلقى فيها نظرة الطائر على مناهج ومقررات و « مساقات » أقسام ومدارس وكليات ومعاهد الصحافة ، ترى هل اختلفت كثيرا ، تلك التي اعتمدها المعاصرون كمكونات وروافد للصحفي ، عن تلك التي استقى منها واغتترف الجاحظ ما كان معينا لا ينضب لهذا التراث الجاحظي بكل ثرائه ؟ ٠٠ حتى هذا الجانب الأخير ، جانب الثقافة العامة ، انها في معظم الأحوال ، بدءا باختيار طلاب هذه الأقسام والمدارس والكليات والمعاهد ، ومرورا بجوانب تدريبه وسنوات عمله الأولى ، وحتى آخر ما يكتب ، تكون هي مرجحة للصحفي على غيره أو لغيره عليه ٠٠ خاصة عندما يتساويان في بعض الظروف والمكونات الأخرى أو يتقاربان ، أو يتشابهان .

● وأما ثانيتهما : فهي أننا - كعادتنا - ننهي هذا الفصل ، ببعض الكلمات ، لهؤلاء الذين اقتربوا من الجاحظ مثلنا ، أو أكثر مما اقتربنا ، بقليل أو كثير ، وجلهم من رجال اللغة والأدب ، حتى يستقيم معهم المثل القائل : « شهد شاهد من أهلها » أما الشاهد هنا فهو الأديب الناقد المؤرخ « شوقي ضيف » ، وأما شهادته فهي تلك التي يقول فيها : « ٠٠ وهذا العكوف على القراءة هو الذي جعل كتبه ورسائله أشبه ما تكون بدوائر معارف فليس هناك جدول من جداول الثقافة في عصره إلا وتسربت منه فروع ومنعطفات إلى كتاباته وتأليفاته وأن كتبه من هذه الناحية لتشبه تمام الشبه معارضنا الحديثة ، فأنت منذ دخالك في كتب الجاحظ تجده يعرض تحت بصرك جميع ألوان الثقافة التي عاصرت من هندية وفارسية ويونانية وعربية وهو يجمع ذلك في شكل مشعث » (١١) .

لكن هذه لم تكن وحدها دليلنا إلى هذا الجانب الصحفي ، من شخصية

الرجل .. فما تزال هناك تلك الأبعاد الأخرى ؛ المائلة ، أو التي تقترب من  
مأدبه الصحفي ، إلى حد كبير ، نطوف خلال السطور القادمة ببعضها ، دون أن  
ننصرف تماما عن هذه السطور السابقة لأنها جميعها ترتبط بالموضوع نفسه ..

بل إن تعبير « المعرض » الذي استخدمه صاحب الكلمات السابقة ، هو  
تعبير يطلق على الصحافة عامة من صحف ومجلات ، ويضاف إليه عن الأخيرة  
— والجاذب إليها أقرب — تعبير « الاستعراض » (١٢) الذي يعد من أشهر  
التعبيرات التي تطلق على المجلة ..

.. لكن هناك أكثر من زاوية أخرى ترتبط بالموضوع نفسه ..  
تري ما هي ؟

● ● هوامش هذا الفصل :

(١) الجاحظ : «البيخلاء» ، من مقدمة المحقق : د - طه الحاجري .

(٢) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » ص ٤ .

(٣) "School of Journalism"

(٤) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن العودة الى عدة مؤلفات من بينها : اليونسكو : التأهيل الصحفي — اليونسكو العربية : بحوث الاعلام — عبد اللطيف حمزة : مستقبل الصحافة في مصر — محمود أدهم : الأسس الفنية للتحرير الصحفي العام وغيرها .

(٥) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ١ ، ص ٢٢٤

(٦) حنا الفاخوري : « الجاحظ » ص ٢٤

(٧) زكى مبارك : « أدب القرن الرابع » ص ٩٦

(٨) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » من المقدمة

(٩) الأب فيكتور شلمت اليسوعي : « الفلسفة الكلامية في أسلوب الجاحظ » ص ٧

(١٠) ياقوت الحموي : « معجم الأنبياء » ج ١٦ ص ٧٤

(١١) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٥٥

(١٢) Review وللاستزادة رجاء العودة الى كتابنا السابق :  
« التعريف بالمجلة » ص ١٨ وما بعدها

## **الفصل الثالث**

### **شواهد صحفية**



- قلنا انه لم تكن هذه المقدمات والخصائص السابقة فقط ، هي التي أنتجت هذا « المزيج » الجا حظى ، أو هذا الفيض من تراث الرجل والمكون من جانبين ، جانب للادب ، وجانب للصحافة ، وركزنا على بعضها الخاص بالآخيرة على وجه تحديد ، أقول ركزنا على بعضها ، أو على عدد منها ..

وخلال السطور القادمة ، نضيف - كما وعدنا - جديدا الى هذا الموضوع ، وتتناوله من أكثر من زاوية مغايرة ، وليلينا الى ذلك كله عدة صور ومشاهد من حياة الرجل الحافلة ، ومن نشاطه الواقف ، ومن صلاته بمجتمعه وأبطال أحداثه وصناع حضارته وثقافته وقيمه ، وحتى هؤلاء الذين تسببوا فى وجود بعض الرقع فى ثوبه - ثوب المجتمع العباسى نفسه - الأبيض الناصع البياض ..

غير أننى هنا ، وقبل المضى مع هذه الأفكار كلها ، وقبل الاسترسال فى تعداد صور « الأدب الصحفى » ، وليست الصحافة الأدبية عند « صاحبنا » ، وكذا قبل التوقف عند هذه « الشواهد الصحفية » كلها .. أقول انها هنا تتم فى ضوء :

★ تناول جديد ، أو نمط جديد من التناول يخلط بين الجانبين ، الأدب والصحافة بما يتصل بهما من نقاط وعلامات ارتكاز وملامح جاحظية خاصة .

★ يقدمها باختصار شديد ، لكنه غير مغل ، مع الاحتفاظ بحقنا فى العودة الى بعض مرتكزاتها ، بطريقة ميسرة ، على صفحات أخرى قادمة ، فحسبنا هنا ما نقدمه خلال هذه السطور .

## الرجل ومصابره

ولعل هذا « العنوان الفرعى » يذكر بتلك المادة الأصلية ، التى لا بد لطلاب الاعلام عامة ، والصحافة خاصة من دراستها فى بداية دراستهم لهذه المناهج حتى تقوم عليها ، وتنبثق منها مواد أخرى عديدة ، انها ما يطلق عليه ، مادة أو مساق : « الخبر ومصابره » .. وحيث الصلة شديدة بين الموضوعين

هنا نتساءل : ما هي مصادر هذا الرجل ؟ ، وهل كانت جميعها مما يندرج  
— بشكل أو بآخر — تحت تعبير أو نوع أو بند « المصادر المخطوطة » على عادة  
الكثرة من أهل زمانه من الباحثين وواضح أنها هنا « المصادر المنسوخة » ،  
لأن الطباعة لم تكن قد عرفت بعد ، وإنما كانت الرسالة تنسخ أو تخط بأعداد  
كبيرة في دكاكين الوراقين والناسخين ويدور العلم والمكتبات وبعض الدواوين .

وفي تعبير آخر ، هل كان « الجاحظ » يتجه في جمعه لمادة كتبه ورسائله  
وتصنيفاته المختلفة إلى جانب أرفف دكاكين الوراقين ، وأضابير الدواوين ،  
وخزائن المكتبات يجمع من بين صفحاتها شتات مادته ، ويللم المبعثر منها  
هنا وهناك ، ينقل معلومة من مخطوطة هنا ، وسطورا من مخطوطة هناك ، ورأيا  
من رسالة في مكان مهمل وشذرات من مترجمة من المترجمات ، وحاشية من  
كتاب فارسي ، وأخرى من أضبار هندية . . هل كان يفعل ذلك كله ، ثم يوحد  
بين هذا الشتات المبعثر ، ويقرب بينه وبين غيره ويقوم بدراسته وتحليله  
واستخلاص النتائج منه ، ثم تقييمها في صورة جديدة تماما ، هي من تأليفه  
هذه المرة ، يحمل بصمات فكره ، وطابعه الخاص شكلا ومضمونا ، لغة  
واسلوبا ؟ هل كان هذا هو ما يفعله الجاحظ فقط ، أم أنه كان يلجأ إلى غير  
هذه من الطرق ، حتى وإن اتبعها غيره ، أو كثرة من أهل زمانه ، وأهل  
زماننا أيضا ؟

إن الواقع يقول ، أن هذه كانت طريقته أحيانا ، ولكنها لم تكن طريقته  
الوحيدة ، أو طريقته الأساسية ، وإنما كان اعتماده على طرق أخرى كثيرة ،  
أو على مصادر أخرى ليست مخطوطة فقط ، أو منسوخة فقط ، وإنما  
مسموعة ، ويشرية أيضا ، قبل أن نتحدث عنها تفصيلا ، نقوم بالقاء سؤال  
آخر ، نلك السؤال هو : هل كان ما كتبه الجاحظ كله تأليفا من بنات أفكاره ،  
حتى وإن كانت تسبقها خطوات البحث العادية في بطون الكتب ، أم كان بعضه  
« جمعا » أو « تجميعا » من مصادر أخرى ، خاصة المصادر البشرية ؟

إننا — كمداخل لتأنيجي فقط — نقول أن « صاحبنا » كما كان مؤلفا  
« ماهرا » فقد كان على نفس الدرجة من المهارة « جامعا » و « منلقيا » و  
« مستمعا » وكذا « مسجلا » أمينا وبنيقا وموهوبا . .

ومرة أخرى نعود إلى مقرر الخبر ومصادره ، أو إلى « مصادر



الصحفي ، بشكل عام ٠٠ لنجد أن من المهم المميز منها «المصادر البشرية» ٠٠ وهنا نقول ٠٠ أننا لا نقصد بهذه المصادر عند الرجل ، أساتذته الذين كان يستمع إليهم ، أو هذه الطائفة من «المسجدين» الذين شغف بهم واعتبر في وقت من الأوقات واحدا منهم ، أو هؤلاء الذين كانوا يتحدثون في المجالس والدور والقصور بحضوره ، وحيث كانت ذاكرته الدقيقة الحافظة تعمل عملها وتسجل «جواهر» ما يدور ، وخلاصة ما يجري ٠٠ وهي نفس طريقة غيره مع اختلاف بينه وبينهم ، ومع تفوق له عليهم بفضل هذه المراهب كلها ، التي لم تتج إلا للقليل النادر من أهل زمانه ، وأقول ، وأهل زماننا أيضا ٠٠

لا نقصد بهذه المصادر البشرية هؤلاء ، وإنما نقصدهم في صورتهم الصحفية عامة وفي ملامحها الاخبارية خاصة ٠٠

أو ٠٠ في أسلوب آخر ، نقصد هؤلاء ممن كانوا يملكون تقديم ما يريد الجاحظ منهم ٠٠ هؤلاء الذين كان يبحث عنهم ، كبحث المندوب الصحفي أو المراسل ، فإذا عرفهم ، وحدد مواقعهم قام بالانتقال إليها وسعى من ورائهم حتى يتم اللقاء ، أو يتم أكثر من لقاء واحد بينه وبينهم ، يحصل خلاله منهم على ما يريد من مادة ، من أقوال أصحابها أو أبطالها أو شهود العيان عليها ، أو المتصلين بها عن قرب ، اتصال عمل ، أو قرابة أو نسب أو معرفة ٠٠٠ وغيرها ، فإذا وجد ضالته عندهم ، لم يكتف بها بل سعى وراء المزيد والجديد والدقيق والمحقق منها ، عند غيرهم في أماكن ومواقع أخرى ، وربما عند فئة ثانية وثالثة وهكذا ٠٠

وفي سبيل ذلك ، انتقل الرجل الى المدن الكبيرة والصغيرة والقرى ، وقطع البادية وخاض بقدميه في بحر الرمال ، وأقام بين القبائل ، واقتحم بعض الأحياء الخلفية واجتمع بهؤلاء يأخذ عنهم ، ويرصد ويجمع ويسجل ، وكان له من وراء ذلك كله زادا كبيرا ، ومحصولا وافرا ، توزع على فصول ومباحث هذا التراث الجاحظي ٠

لكن هذا الانتقال من جانبه الى مواقع من يريد الأخذ والاستماع والنقل عنهم ، لم يكن سوى هذا الوجه الأول لذلك النشاط ، أما الوجه الآخر له ، أو الصورة الأخرى ، فكانت تتمثل في حضور هؤلاء اليه ، واجتماعهم أو لقائهم به ، ووصولهم حتى مكان وجوده ، وعرض بضاعتهم عليه ٠٠٠ ووضعها بين يديه ، أو بين يدي فكره وتناوله ورؤيته الخاصة ٠٠

وإذا كان الأسلوب الأول ، هو الشائع صحفيا ، فإن الأسلوب الثانى يعتبر موجودا أيضا وله صورته وشواهدة العديدة ، فكم من مصابر بشرية عديدة تأتى ، لأسباب عديدة أيضا ، حتى دار الصحافة — مهما يعتد بين هؤلاء وبينها الشقة ، وحتى صالة التحرير ، وحجرة المحرر أحيانا ، بل ويكون معها خطاب رقيق وأحيانا « هدية » لمن يقبل ، وأنوه هنا بما يفعله مديرو العلاقات العامة فى المصالح والشركات ، ومصـسـدرو النشرة الصحفية ، و أصحاب المصلحة الخاصة فى نشر أخبارهم» (١) ٠٠ وغيرهم، وغيرهم، خاصة هذه الطائفة الأخيرة ، التى تتصل بالمحرر أو بالصحيفة بطريقة ما لتقدم لهم أخبارها وتحرص على ذلك تماما (٢) ٠

أريد أن أقول ، أن الجاحظ ، كما كان يبحث ويختزن فى فكره ، ويجمع الشتات ويؤلف بيـنه فقد كان كذلك يقوم بجمع مادته بطريقة يعرفها تماما مخبرو اليوم ومحرروه وكتابه لا سيما « المندوبيون » و « المراسلون المتجولون » ومحررو الموضوعات والتقارير والتحقيقات الصحفية ، وأن كان الى هذه الطائفة الأخيرة أقرب ، وأو كان عصره يعرف ، كما نعرف نحن اليوم استخدام « المسجلات » بأنواعها وأشرطتها المختلفة ، أو كان يعرف « الفيسديو » أو حتى « الكاميرا » لزيد مقدار ما جمعه أضعافا مضاعفة ولحققنا منه خيرا كثيرا جدا ، مما يتصل بالعلوم والمعارف السائدة عامة ، وجوانب الأدب والصحافة خاصة ٠٠ لكن — وللأسف الشديد — لم تكن هذه المستحدثات قد عرفت بعد، تماما كما لم تكن « الطباعة » قد عرفت أيضا، والا لتضاعفت مؤلفاته ورأينا العجب العجيب مما قام بتأليفه أو جمعه ، ولما ضاع جزء كبير من هذين ٠٠ بل أننا نقول فى النهاية ، أن ما فعله « الجاحظ » من تأليف وجمع معا ، ليس بدعة صحفية فى هذه الأيام ، فعند كبير من المحررين ، خاصة ممن وصل الى مرتبة « الكاتب الصحفي » يؤلف أيضا، ويعضهم يتبع طرق البحث المعروفة، لكنه فى نفس الوقت لا يترك فرصة تمر دون حصول على الأخبار الهامة ، والهامة جدا ، كما أن بعض جوانب مادته المقلية ، وقبلها مادة التحقيقات الكبرى أو الأتمونجية التى يكتبها تتطلب مثل هذا الجانب « الجمعى » جانب السعى وراء الجديد من الأخبار والمعلومات والآراء والمواقف والتحليلات ، فتلك هى « مادة مادته » أن صبح التعبير ، وبها تثرى ، وتجذب أفضل العقول القارئة ٠٠

أى أنه حتى فى الحالتين ، التأليف والجمع معا ، يبقى الجانب الصحفى

الجاحظي واضحا للعيان يقدم دليلا جديدا على « حضوره » الأدبي والصحفي معا ..

### ثم ماذا ؟

غير أنني وأنا ألفت النظر الى هذه « المصادر البشرية » التي استقى منها « الجاحظ » مادة أدبه وصحافته أتوقف قليلا لأقول :

( أ ) أنها كانت متعددة المستويات والفكر والشخصيات والمواقع والمهام أو المناصب ، كان من بينها الوزير والعالم والراوية للشعر لشاعر واحد أو لأكثر من شاعر ، وكان من بينها أصحاب القصص والأخبار ورواة الأنساب ، تماما كما كان من بينها في بعض الأحيان طائفة من النوعيات الغريبة تجمع بين رجال الطرب وأهل الفن وهواة الغرائب ، وحتى للصيوص والسفلة .

( ب ) أنها لم تكن هي والمصادر المخطوطة مؤلفة أو مترجمة تمثل مصادره الوحيدة الى ما جمع وألف ولكن كانت هناك بعض المصادر الأخرى ، لا سيما تجريته الخاصة ، وما أجدرها بأن تكون في مقدمة هذه المصادر نفسها ..

وكالعادة ، يبقى أن نقدم أمثلة مما نكره « أهل الدار » ، من رجال الأدب واللغة ، مما يتصل بهذا الموضوع نفسه ، ومما يؤيد دعوانا ، وأكرر على طريقة « شهد شاهد من أهلها » .

★ أن دراسة قيمة ، بل هي عندي من أفضل الدراسات التي تناولت الرجل ، يقول فيها صاحبها مما يتصل بهذه الزاوية : « وأقام أركان بحثه واستقرائه على المشاهدة والتجربة والاختيار ، ورحل في سبيل تحقيقه العلمي والطبيعي الى كثير من الأقاليم والأقطار » (٣) .. ليس بالامكان ، أن نضيف هنا ، الى جانب « تحقيقه العلمي والطبيعي » تحقيقه الصحفي « أيضا .. ولا سيما وهذه المادة بالذات .. كما أشرنا وكما سنرى بعد ذلك بأن الله ، كانت هي الأقرب الى ألوان كتابته ، حتى ليفصلهما أحيانا خيط رقيق ، ورقيق جدا ؟

★ ويقول رائدان من رواد الأدب العربي بحثا وشرحا وتحقيقا ، في تركيز منهما على طريقته التي اتبعها في تأليفه لكتابه الأشهر : « البخل » .. ( الجاحظ )

« لم يجهز الجاحظ اثر صور الخلاء في كتابه هذا ، لأنه لم يبعثهم من بطون التاريخ وتديم الاخبار وعتيق الأسفار ، بل جاء بهم من بيئته واستمدهم من خصاصه وخطائه ذرى الظرف والدعابة ، اما من البصريين واما من البغداديين واما من غير هؤلاء وأولئك ممن سمع عنهم أو رويت له أخبارهم في البخل ومذاهبهم في الجمع والنوع » (٤) ٠٠

ثم ماذا أيضا ؟

### معاشية ٠٠ وحضور

عند حديثنا عن الجاحظ « نتاج عصره » ، خلال صفحات سابقة — الفصل الثاني : معالم جاحظية ٠٠ توقفنا عند حد معين من تقسيم الدلالات والشواهد التي توضح كيف أن الجاحظ هو نتاج شرعى أصيل ، للعصر الذي عاشه ، والذي أطلق عليه بعضهم ، على الرغم من كل ما زخر به وأزحم من صور ، تعبير « عصر الجاحظ » ، توقفنا حتى لا تختلط الحدود وتتشابه بين فقرة وأخرى ، وثالثة أيضا ، ومن هنا ، وإذا كانت الفقرة السابقة تصور مؤثرات عصر الرجل عليه ، فإن فقرتنا الحالية تتجه الى بيان صور مشاهد تفاعل الرجل مع بيئته ، ومعاشيته لكل هذا « الزخم » العصري ، بمن فيه وما فيه ٠٠ تماما كما سنتناول في فقرة ثالثة — بائن الله — كيف قام الرجل بتصوير هذا العصر لنفسه وكان خير شاهد عليه ٠٠ هل أقول أن جميعها تعتبر من بين الشواهد المؤكدة لجانب صحافة الرجل ؟ ٠ أم أنتظر حتى نفرغ من سطورها وكلماتها ؟ ٠ أن الأمر يستوى — في رأينا — بعد أن اتضحت بعض ملامح صورة « الجاحظ صحفيا » ولكن مهلا ٠٠ فما يزال هناك الكثير !

إن صحفى العصر الحقيقى ، ابن مهنته ، العارف بها وبمطلباتها فى أى مكان كان موقعه من خريطة العمل الصحفى ، مندوبا كان أو كان مراسلا ، أو مخبرا أو محررا أو رئيسا لقسم من الأقسام النوعية من مثل : « الخارجى — الشؤون العربية — التحقيقات — الفن » وحتى ان كان من قسم لالاخراج أو ما يعرف عربيا بـ « سكرتيرية التحرير » ٠٠ وغيرهم وغيرهم — وقياداتهم قبلهم — لابد لأمثال هؤلاء من الالام بأشياء كثيرة ، ومعرفة أشياء أكثر ، ومثلها وعلى نفس الدرجة من الأهمية ، الانصهار فى بوتقة العمل ، والذوبان فيه الى أقصى درجة ، بل والى درجة « الوجد » و « العشق » أيضا ، فتكون الصحافة « محبوبته » التى تملك عليه لبه وحسه ومن هنا فهو يعيش صحفيا

بطوال يوبه ٠٠ حتى وهو نائم تقتحم عليه إجلامه وتتداخل معها ، فيقفز من فراشه أحيانا لطلب مكالمه مهمة أو تسجيل فكرة جديدة بسرعة قبل أن ينسائها ، أو يحاول تذكرها في الصباح ، فيجد أنها قد تبخرت منذ طلعت عليها شمس يوم جديد يكون حافلا بالعمل ككل أيام الصحفي ، أو هكذا ينبغي أن يكون حاله ٠٠ نحن نقول هنا - معشر الصحفيين - ما عبرت عنه - علميا - في سطور سابقة بقولى أن الصحفي ، أى صحفى ينجح لأنه يكون من بين ما يحرص على أن يحققه لنفسه وفى نفسه ، وإلى جانب أشياء وخصائص أخرى عديدة ، هذين الجانبين :

#### أولا - المعيشة الكاملة لما حوله \*

ثانيا - الحضور الذهنى الصحفى ، لما يسمع أو يشاهد أو يجرب أو يحس ٠٠

٠٠ ما الذى يعنيه هنا بالنسبة لموضوعنا ؟ ٠٠ وما الذى يربط بين هذين ، وهما من شروط النجاح على المستوى الصحفى العام والخاص والفنى ، ويكل أشكال العمل ، وبين « الأنب الصحفى » عند صاحبنا ، أو جانب الصحافة فى شخصه ٠٠

ولعله يكون من المناسب هنا ، أن يكون مدخلنا الطبيعى الى الموضوع ، يتمثل فى قراءة سريعة ، لسطور من بعض مؤلفاتنا تتناول هذين الجانبين ٠٠

● - أما عن الجانب الأول - المعيشة - فاننا نقرا قولنا عن هذه النقطة انها : « المعيشة - الصحفية هنا - الكاملة لكل هذه المصادر المتنوعة - المعيشة الكاملة للناس والمشاهد والصور التى يمر بها من زاوية مكانية أن يوجد بينها ذلك المشهد أو تلك الصورة ، أو ذلك التعليق الشفهي ، أو تلك الهمسة الخافتة التى يمكن أن تتحول الى فكرة موضوع أو حديث أو تحقيق أو مقال (٥) ،

● وأما عن الجانب الثانى - الحضور الذهنى الصحفى - فاننا نضيف قراءة قولنا :

انه يكون مثل حضور ممثل المسرح وهو يقدم دوره على خشبته ، ويعيشه تماما ، انه أيضا ، الحضور الصحفى لكل ما يسمع أو يرى أو يقال ، فلا تكفى المعاشية الصحفية وحدها ، وانما لابد من جانب « الاثارة » نحو ذلك الموضوع أو الفكرة أو المشهد الذى لابد من التوقف عنده ، والكتابة عنه بما يعكس هذه المعاشية نفسها ومن هنا فالحضور هو أبرز الخطوات الصغيرة أو الفرعية التى تتم من خلال هذه المعاشية وتتفاعل معها ٠٠ وحيث يصدق قول القائل : « المادة الصحفية عامة ، والتحقيقات والمقالات خاصة ، هى بنات شرعيات للأفكار التى لن تأتى بغير حضور صحفى كامل » (٦) .

٠٠٠ وإذا كان ذلك كله ، على الرغم من اختصار ما قرأناه ، يقترب بنا من حقيقة ما نتناول ويؤكدده أيضا ، فانه يعنى عندنا أن نعود فنتساءل فى مدخل آخر « مفتاحى » وأكثر اقترابا من الموضوع نفسه ، مع تركيز هنا - بشكل وقتى فقط - على الجانب الأول ، وإلى حين ٠٠ نقول ، نعود فنتساءل : هل كان الجاحظ « معاشيا كاملا » لما حوله من أحداث وصور ومشاهد وزوايا أنسجم بها مجتمع « آل عباس » وشبهتها حواضر « العباسيين » ويوآلهيهم ، ونزخرت بها مساجدهم ومكتباتهم ، وضجت بها ، أو تلالات ، دورهم وقصورهم ؟ ٠٠

هل عايش الرجل ذلك كله وباحساس مسئول ، وانخرط فيه ، وذاب معه ، وشقه الوجد بصوره ، وأخذ العشق بملامحه ، أم انه وقف بمعانئ عنه ، وعن أحداثه ، وبمعزل عما تتابع من ألوان نشاطه ؟

وفى تعبير آخر ، قد يكون هو الأكثر دقة ، ونحن نتحدث عن واحد من أبرز رواد البيان العربى نقول : هل تم التفاعل بين الرجل وبيئته وعصره ، شأن كل مفكر عظيم وأديب خالد ، وصحفى قدير ؟

من خلال هذه الزاوية الصحفية نقول ، وتقدم صورا ومشاهد معضدة ومؤيدة : وبطبيعة الحال ، فانه لا يمكننا - فى هذه العجالة - الاحاطة بكل ما كان ينبغى عليه - كرجل أدب وصحافة معا - أن يتفاعل معه ، أو يشارك فيه ، أو يقتحم أتونه ، مما كان يمر به هذا العصر ، ويضطرب فى عيابه ، فحسبنا هذه الصور المختلفة كلها :

### ( ١ ) فى المجال الدينى العقائدى :

وإذا كنا قد اشرنا من قبل فى سطر واحد الى أن الرجل قد رأس إحدى طوائف أو فرق « المعتزلة » وتحدث بلسانهم ، فالتنا نفس هذا الكلام كله ، ونضيف اليه مزيدا يلفت النظر الى هذه المشاركة الفعالة ، أو المعيشة الايجابية ، لما كان ينتشر فى عصره من نزعات ومذاهب ، نقول عنها وعنه :

إذا كان من المعروف تاريخيا ، أن مسألة « الخلافة » هى الموضوع الأول الكبير الذى دب بشأنه الخلاف بين أمة المسلمين ، وتكونت حولها فرق الخوارج والشيعة ثم المرجئة والمعتزلة الذين ينتسبون الى « واصل بن عطاء » الذى اعتزل مجلس استاذة « الحصن البصرى » على اثر مخالفته له مع « عمر بن عبيد » واستقلالهما بنفسيهما فى مسألة الكبيرة ، الى جانب تفسيرات أخرى عديدة لهذه التسمية (٧) ٠٠

المهم أن من أبرز تعاليمها الاعتداد بالعقل وحرية الفكر ٠٠ ولم يكتف الجاحظ بأن كان من أتباع شعبتها الأساسية ومقرها البصرة ، بل انخرط للرجل فى هذه الفرقة ، وحارب مع قادتها بالوعى والفكر والدعوة الى العدل والتوحيد والمنزلة بين المنزلتين بالنسبة كمرتكب الكبيرة وكان له فى ذلك مواقف وكتابات عديدة ، خاصة فى مجال الدعوة الى اعمال الفكر واستخدام العقل والحرية المسئولة وعدم تقييد العقل والفكر ، كل ذلك مع ايمان كامل باث ، وقدرته وعظيم صنعه فى خلقه ٠٠ بل لقد نشأت عن مواقفه مدرسة معتزلية جاحظية كاملة ، شأن قادة الفكر المؤثرين ٠٠ وعن ذلك يقول أحد الدارسين ٠٠ : « ٠٠٠ وهكذا تقوت على يدهم - يقصد اساتذته كالأخفش والنظام وغيرهما - نزعة العقلية الى أن اكتملت شخصيته الفكرية فكون مدرسة مستقلة عن بقية المعتزلة سميت بالجاحظية » (٨) .

### ( ب ) فى المجال الفكرى والعلمى والثقافى :

٠٠ وإذا كان الجاحظ - شأن كل قائد فكرى وأديب ملتزم وصحفى متفاعل - لم يرض الا بالدور القيادى فى صفوف المعتزلة ، وطور من أفكارهم وأرائهم ، فانه كذلك فى مجالات الفكر والعلم والثقافة الأخرى ٠٠

ان نظرة على مشاركته الجادة ، في المجالين الأدبي والفكري ، في هذه  
الفكرية في عهده لتؤكد ذلك كله ، وان جولة مع العديد من مؤلفاته ، في هذه  
التجالات المتعددة ، لتضيف الى ذلك مزيدا من التأكيد ، وإذا كنا - في سطور  
أخرى - سوف نشير الى هذه المؤلفات والتصنيفات المتعددة ، فاننا هنا  
نقول :

— فهو لم يترك مجالا معروفا ، الا درسناه وألف فيه

— وهو قد سبق الى موضوعات وافكار جديدة ، لم يتوصل اليها احد  
من قبله ، وبذلك بلغ قمة تفاعله مع حضارته ، وتأثيره بالايجاب في  
صورها ومشاهدتها .

— وهو قد قدم لمجتمعه ولتاريخ الأدب والعلم زهاء ثلاثمائة وستين  
مؤلفا في ألوان شتى من المعرفة . . . رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة  
الأنعمان ببغداد سبط ابن الجوزي المتوفى ٦٥٤ هـ ، (٩) . . . الا يعني ذلك انه  
من واضعي أسس الموسوعية وصلاتها وثيقة - كما قلنا - بصحافة المجلة ،  
وتاريخها .

#### ( ج ) في المجال اللغوي والأدبي :

أما في هذا المجال ، أو في هذين المجالين ، فمن المؤكد أيضا ان كتاباته،  
وان دراساته ، وأن كلامه ، وأن لغته ، وأن أسلوبه ، جميعها ، قد امتدت  
الى آخر ما وصلت اليه هذه كلها في عصره ، وتفاعلت معها ، وهضمتها ،  
وخبرتها ثم ، راحت بعد ذلك ، ويفعل هذا الحس اللغوي والأدبي والمجتمعي  
النادر المثال وكأثر للثقافات المتنوعة ، والمترجمات العديدة التي راح يغترف  
منها ، ويقتنز فرصتها ويرد ينابيعها المتدفقة من حضارات أخرى عديدة ،  
راحت « العبقرية الجاحظية بعد ذلك كله تقدم لغة صريحة متطورة ، وعصرية،  
وأدبا جديدا في فكره وموضوعاته ، لم يعهده الناس من قبل ، ولم يكن  
للمجالين أو المنتديات أو أهل الدور والقصور معرفة به ، بعد أن أعمل فكره،  
وسلط بصيرته النافذة ، وأطلق عينه الفاحصة المدققة ، على مجتمعه ، ومن  
ثم راح يقدم لنا هذا الأدب الواقعي ، الذي نقول هنا ، ان المسافة كانت قريبة  
جدا ، بينه وبين الأعمال الصحفية بل لقد اختلطت المسافات والمساحات وذابت



الحدود والألوان وأصبحنا - باستثناء طابع العصر نفسه - في حاجة الى عين خبير ، لتفصل بين ما هو أدبي ، وما هو صحافة ولذلك ، قلنا ونقول ، أن هذا النتاج نفسه كان أدبيا صحفيا رفيع المستوى ، بل أن تصفه كان للأدب، ونصفه الآخر للصحافة ..

والأكثر من ذلك ، أن لغته قد طارعت تماما ، وإن ثروته من الألفاظ والمفردات قد أعانتها على تقديم هذا اللون الجديد من الأدب الحى الواقعى الذى يعيش بين الناس ، ويتحدث عنهم ، وبهم ، ومن هنا فقد قيل عن ذلك كله ، وعن حق وجدارة أيضا :

● فعن أدبه يقول أحد الدارسين الذين أشرنا اليهم من قبل : « .. ومن هذه المظاهر أنه أدب واقعى لا أدب خيالى ، وهذه الواقعية تظهر فى نواحيه المختلفة ، ومنها أنه يعتمد على إبراز الصورة كما يراها الرأى وكما يرسمها المصور لا على الصور الخيالية » (١٠) .

● وأما عن لغته وأسلوبه الذى عرف به ، فاننا نكتفى هنا بهذا القول الذى يتناولهما ، مما يقربنا من الأسلوب الصحفى ، وهو موضوع دراسة خاصة خلال الفصل الأخير من هذا الكتاب .. يقول دارس آخر للغته أو « المنزعة الكلامية » عنده : « .. لم يكتف الجاحظ باختيار الألفاظ مطابقة للمعنى مطابقة مادية فحسب ، بل انه اختارها سهلة المخرج ، متلائمة الحروف ، موسيقية مناسبة صوتا للحركة المعنوية ، تتوافر فى مقاطعها صفة التجانس بين اللفظ والمعنى أما من حيث السهولة والسلاسة فاننا نعرف أن الكلمات الكثيرة الأحرف تعد بوجه عام من الكلمات الصعبة » (١١) .

#### ( د ) فى المجال الاجتماعى :

عرف الجاحظ مجتمع العباسيين وخبره ، ورأى صوره المختلفة ، الإيجابى منها والسلبى بل وانخرط فى بعضها ومارسه ، ولكنه - من زاوية صحفية - كان كغيره من المحررين ، من ذوى الاختصاص العام ، أو غير العام ، أضاف الى معرفته بهذا المجتمع ، بناسه ورجاله وساسته وعلمائه ولغوييه وثواره ، وحتى أكثر جوانبه رمادية ، أو حتى أكثر مواقع ثوبه الزاخرة بـ « الرقع » .. أضاف إليها التفاعل الإيجابى ، المتمثل ليس فقط

فى نقل صورده ومشاهده فى واقعية وصديق ، وليس فقط فى جانب رواية ماكان  
يجرى ، أو وصف ما كان يدور هنا أو هناك ، فى المساجد والمنشآت والدور  
والقصور والأسواق وأحيانا الزنج ومجتمعات الفارسيين والروميين ،  
والمكتبات وغيرها ، وغيرها ، وإنما وبإضافة النقد الاجتماعى إليها وكان هذا  
النقد يبلغ فى أحيان كثيرة ، مرتبة حادة ، أكثر من حساده وخصومه ..

بل اننا نستطيع أن نقول أن جوانب نقده ، قد غطت صور السلب فى  
مجتمع العباسيين كله ، بل وامتدت من المجال الاجتماعى ، أو المجتمعى ، الى  
غيره من المجالات لا سيما المجال السياسى نفسه ، شأن كل أديب وصحفى  
متابع ، متفاعل وملتزم .. وإذا كنا هنا نكتب عن ذلك كله باختصار شديد ،  
لأن حياة الجاحظ وفكره وجوانب شخصيته تحتاج الى أكثر من مجلد ، فإنا  
نكتفى بهذه الكلمات ، نضيف إليها - كما نبتنا - قولاً لأحد من اقترىوا من  
الرجل ، أكثر مما اقترينا .. وذلك عندما يقول :

« .. يكفى أنه نبه على فساد أوضاع حاولت ثورة الزنج ٢٦ رمضان  
٢٥٥ هـ - أغسطس ٨٦٩ م - أن تقوم منها ما قدرت على التقويم وفهمه ، وربما  
بدت المغالاة فى تلك المقالة إلا أن من يقرأ كتاب البخلاء الذى وضعه الجاحظ  
فى آخر أيامه ، الى جانب بعض رسائله التى ترتفع أحيانا الى مستوى  
الكتب النادرة ، يلحظ أن صاحب الزنج أو قائد الثورة ، كان ينطلق فى الواقع  
من حيث انتهى صاحب البخلاء ، .. (١٢)

فهل يعنى ذلك ، أن كتاباته ، كان لها أثرها فى قيام هذه الثورة شأن  
جميع الكتاب المؤثرين ؟

بل لقد قمنا بعمل احصاء لهذه الفئات والصور والمشاهد والأشخاص  
الذين تناولهم نقده الاجتماعى ، وقلمه الذى اعتبر « ترمومترا » لقياس درجة  
حرارة هذا المجتمع بما فيه ومن فيه ، فبلغت أكثر من مائة فئة وصورة ومشهد ،  
كان من بينهم على سبيل المثال لا الحصر :

« الذين يأكلون على جميع الموائد - المتلونون - الماديون - المنجمون -  
المحتفلون - البجالون - البخلاء - العصبيون - الجشعون - المستقلون -

الأطباء المزيفون - المسرفون في تصوفهم وزهدهم - العسامة الجاهلة -  
المتشبقون بما ليس فيهم - المقرورون - الذين يشوهون الحقائق - الذين  
يفسرون الأشياء والظواهر على هواهم - الرواة - رواة الأخبار من البحريين  
- العامة الجاهلة - المترجمون - الخ ٠٠٠

ونكتفى بهذا القدر ، حتى لا تختلط الأوراق ، ونقتحم مجال الحديث  
عن الجاحظ المؤرخ أو شاهد عصره ٠٠ كما ستصوره السطور القادمة بأن  
الله ٠٠

#### ( هـ ) في مجال الامتاع الفكاهي :

لكننا في هذا المجال السابق نفسه - مجال النقد الاجتماعي - لابد وأن  
نتوقف قليلا ، لنشير الى أن هذه الحاسة نفسها - الحاسة النقدية الأدبية  
الصحفية المجتمعية معا - قد امتدت به واطلعتنا على جانب آخر من جوانب  
شخصيته المتفاعلة مع مجتمعا ، المؤثرة فيه ، المتأثرة به ، والراغبة في  
تحويله من حالة الى حالة ، ومن صورة الى صورة ٠٠

أما هذا الجانب ، فهو جانب الفكاهة عنده ، فإنه لما رأى الثغرات تنتشر  
وجوانب السلب تزخر بهذا المجتمع ، كانت الفكاهة بمعناها القريب من الأدهان ،  
هي أحد أسلحته النقدية التي أحسب أنها حققت - مجتمعا - ما كان يجب أن  
تحققه ، كما قدمت لنا إحدى مقدمات وطلائح «المقال الكاريكاتيري» ٠٠ وهو  
أدب صحفي من الدرجة الأولى ٠٠ نكتفى هنا بالإشارة الى أن الرجل يعتبر  
فارسه بلا جدال ٠٠ وإلى ذلك يشير أديب كبير قائلا : « ومن مفاخر تراثنا  
أن نرى الجاحظ يرسم بنثره ما يرسمه هذا الفن المعاصر الذي نسميه  
الكاريكاتير هذا اللون من الكتابة الذي مارسه عندهم - الغرب - في القرن  
السادس عشر وأبين في كتابه - الأحلام المضحكة - كما نجده عند إيراسم في  
كتاب تعجيد الحماسة ٠٠٠ ، (١٢)

ونكتفى بهذا القدر من صور التلاحم وننتقل الى صورة أخرى ، أو  
جانب آخر هو :

## شاهد على العصر

ان المعاشة لما يدور حول الانسان من صـسـور ومشاهد ، مهما كانت درجتها أو درجة تأثيرها عليه فكرا وعملا وأداء ، ومهما بلغت شدتها ، لا تكفى وحدها لكي تصنع منه كاتبا ، أو مفكرا ، أو أدبيا ، أو صحفيا ، خاصة ، هذا الأخير ، كما نعرفه وتعرفه المساحات الهامة المؤثرة ، والتي تستقطب أنظار القراء ، على صفحات جريدة أو مجلة .. أقول ، ان هذه المعاشة وحدها لا تكفى لكي تصنع منه أمثال هؤلاء وانما ينبغي أن يتبعها هذه الصور ، كلها أو بعضها ، ودرجات متفاوتة ما بين أديب وأديب ، ومحرر ومحرر ..

— رؤية خاصة لها — الأحداث والصور والمشاهد — الجليل منها والحقير ، العظيم والثقافه ، الواضح والغامض ، البين والمستتر ، دون اهمال لجانب منها .

— حضور ذهنى يلمح ما يمكن أن يحظى به بعضها من جوانب أهمية حالية أو متوقعة .

— استجابة لما يمكن أن يسفر عنه بعض هذه الأحداث والصور والمشاهد من دلالات ونتائج حالية أو مستمرة تستقطب اهتمامات القراء .

— اختيار هذه كلها ، ورصدها وثبتها .. تمهيدا لاعمال الفكر حولها ، والبحث عن عللها وأسبابها ، وما يتصل بها أو يتفرع عنها من قضايا ذات أهمية أدبية أو علمية أو سياسية أو دينية أو تاريخية أو مجتمعية .

— ثم التعبير عنها ، بعد استقراء واستنفاد وتجربة ودعم مادتها .

— فى شكل فنى أدبى أو صحفى معين ، أو هما معا

— وتقديمها للقراء بعد ذلك كله ، وبعد تحرير وحداتها الفنية المختلفة وصياغتها بالأسلوب المناسب لمادتها ، وإن ينتظر أن يقبل عليها من القراء قراء الصحف والمجلات كما نعرفها اليوم ، وقراء الأوعية ، الأدبية والصحفية خلال هذا العصر .. عصر الجاحظ .

ان المعاشة الكاملة ، ينبغي أن تترجم الى مثل ذلك ، والا كان الأديب -  
أو الصحفي كغيرهما من العاديين من الناس ، أو اكتفى بالجلوس في مكان  
النظارة ، أو « مقاعد المتفرجين » وهو ما لم يعهد الناس منهما ، ولا يرتضيه  
لهما أحد ، وإنما يكون عليهما - جزء ما منحهما الله من فكر وموهبة - أن  
يترجما ذلك التفاعل ، وأن يحولا ذلك الانصهار مع أحداث العصر ، الى مادة  
مقروءة ومسموعة ومشاهدة ، يكون فيها راحة للقلوب ، وملذا للنفوس ،  
وثرء للعقول وتنمية للفكر ، وتوجيها وثقيفا وتعلما ، وحثا على الخير  
ودعما للدين والوطن ومشاعر الانتماء اليه ، بل ويكون فيها أمتاعا يجلو حسنا  
العقول ومؤانسة تضيء جذبات القلوب ، وترقيها يجدد النشاط ويغسل العقل.  
مما علق به من أدراخ ويزيل كبر النفوس القلقة المعذبة المؤرقة .. تماما كما  
يكون فيها من زاوية الصحافة هذه المرة ، وبالإضافة الى ذلك كله ، اعلاما  
للقارئ بما يهمه ، وإطلاعا له على ما يتصل ببيومه وغده وتوضيحا وتفسيريا  
يساعدانه على تلمس الطريق واختيار الأصلح واتخاذ القرار ، كما تقدم له -  
ما يترجم اليه هذا التفاعل من مواد وأنماط - حلا لمشكلاته التي تعذبه أو تؤرقه ،  
وتوجيها مثمرا نحو الخير والعدل ، وتأبيدا وتعضيدا لقيم مجتمعه ومثله ..  
وغيرها ، وغيرها ..

تلك هي ما ينبغي أن يسفر عنه هذا التفاعل ، أو هذه المعاشة ، فما  
بالك ونحن لا نتحدث عن أديب أو محرر عادي ، وإنما نحن نتحدث عن  
« الجاحظ » ؟

ويلا تردد نقول أن الرجل الذي شهدناه خلال الفقرة السابقة ، يعيش  
أحداث عصره معاشة كاملة ، في جوانبها المختلفة التي ازدهم بها هذا العصر  
نفسه دينية وعلمية وثقافية وأدبية واجتماعية ، وحتى ما اتصل بها من جوانب  
الفن والطرب أو اللعب واللهو .. وقدمنا لمعيشته لهذه كلها .. عدة صور  
مختارة ..

نقول أن الرجل الذي فعل ذلك ، لم يكن من النوع الذي يقنع بالجلوس  
في صفوف المتفرجين ، أو المستمعين فقط ، ما تقدم منها أو ما تأخر وإنما  
وكما شهدناه غير مرتض بالوقوف كجزيرة معزولة ، وسط بحر من الأحداث  
المتلاحمة ، بل مشاركا في تحديد مسارات بعضها ، وصنع البعض الآخر منها ،  
وتوجيه دفة البعض الثالث ، والمعارضة القوية لبعضها الرابع ، والتأييد

يجرجائه وعن وعي كامل منه لبعضها الخامس ، وهكذا فاننا نقول أيضا أنه لم يتوقف عند هذا الحد من المشاركة ، الشفهية ، أو تلك التي تقوم لتهنأ بعد حين ، أو هذه التي تتم داخل المساجد ، أو في الدواوين أو القصور أو الدور أو المجالس المختلفة مركزة على عشرات أو مئات الحاضرين حتى وإن كانت تنتقل بعد ذلك منها إلى غيرها من مجتمعات بغداد وأنبصرة وسامراء ، والكوفة ، والتجف ، وكربلاء والنجف والزيير ، وحتى خارج العراق أيضا ، لم يكتب الرجل بذلك كله ، لأنه بحسه الفني والجماهيري ، يعرف تماما أن صناعته هي الكتابة ، وأن الله قد يسرها له ، ويذر بذرتها في صدره ، لا لتظل حبيسة هذا الصدر ، أو تخرج في مثل هذه المجتمعات وحدها ، وإنما — وكل أديب وصحفي — لتصل بين الناس ، وتصل إليهم .

ومن هنا ، فقد راح الجاحظ يكتب في ذلك كله ، وينقل صورة ذلك كله ، حتى لم يترك كبيرة ولا صغيرة في مجتمعه بكل هذا الذي ازدحم به واضطرب في جنباته وثار على سطحه أو في أعماقه ، أو قريبا من هذه الأعماق ، بما تردد في أركان الدواوين ، ومباحات المدن والأسواق ، وفوق رمال الصحراء ، وتحت قباب المساجد وفي ظلال القصور الأسطورية ، وفي دهايز الأحياء الشعبية ، جامعا بين ذلك كله ، وبين قراءاته في بطون الكتب ، ومعاشرته للعلماء والأخذ عنهم حتى اجتمع للقراء متما لم يجتمع من آخر . . . ومن ثم فقد استحق ككل مفكر وأديب وصحفي مشارك بالإيجاب لا السلب ، وبالفعلية لا الهامشية ، وبالقوة لا الضعف ، وبالنشاط لا الخمول ، وبالمقول والفعل ، والشدة والجنب ، والهدوء والصخب ، هذه التعبيرات التي تطلق على أمثاله من هذا النفر . . . خاصة من الكتاب الصحفيين .

فهو « شاهد على العصر » ، وكتاباته مرآة للسنوات التي عاشها ، بل أن هذه الكتابات الجاحظية نفسها ، والتي تمثل هذا التراث الضخم المتنوع ، لتمثل أيضا إذا نحن رحنا تقسمها ونجزئها ، خير شاهد على صحافة عصره ، بالأسلوب المخطوط نفسه والذي جمع كل هذه الألوان السائدة ، والتي كانت جديدة على الناس والقراء وقتها ، وأحسب أن بعضها ما يزال يحتفظ بحيته حتى اليوم ، إلا بالنسبة لدارسي الأدب عامة ، أو متابعي الجاحظ خاصة . . .

وقبل أن نعود إلى هذه النقاط بالتفصيل مرة أخرى ، في فقرة خاصة توضح بعض معالم « الجانب الصحفي » عند رجلنا ، وقبل أن نقدم « شهادة

الأهل ، التي تتصل بهذه الزاوية ، زاوية الجاحظ الأديب الصحفي شاهد عصره ومرارته ، بكل هذه المعاشية والحضور ، وبيع بعض ما أسفر عنه من طرف صحفي ، تقوم بالقاء نظرة الطائر على كتابات هذا الرجل ، نقرأ فيها عصره ، ونشاهد — في مرآتها الصادقة — صورة وملامح ذلك العصر . بل أننا في هذا السبيل ، وحتى يكون حديثنا مستمرا ، ولنصل من الكلام ما انقطع ، فإننا نختار عددا من المجالات السابقة نفسها التي عايشها الجاحظ ، ثم نقوم بالتقاط أجزاء من رصده لها واختيار الصالح منها ، ومعالجته إياها وتصويره لدقاتها ، مما لا تقع عليه ولا تدركه بنفس هذه الدرجة غير عين أديب أو صحفي ، أو أديب صحفي ، أو صحفي أديب ، ثم تقدمها للقراء . تقديمنا مناسباً لها ولهم في شكل ومضمون غلب عليه الطابع الأدبي مرة ، والصحفي مرة . وهكذا .

● فعلى سبيل المثال لا الحصر ، من قوله عن هذه الطائفة التي انتشرت في عهده والتي تسمى الزنادقة ، وما اتصل بكتبهم والتأليف عموماً قوله ( نقد أدبي ومجتمعي وسياسي ) . لو كانت كتب الزنادقة كتب حكم وكتب فلسفة وكتب مقاييس ، وستن نبين وتبين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعرف الناس أبواب الصناعات أو سبل الكسب والتجارات أو كتب ارتفاعات ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب — وإن كان ذلك لا يقرب من غنى ولا يبعد من مآثم — لكانوا ممن يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان ، والرغبة في التبين ، ولكتبهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ، والذي يدل على ما قلناه أنه ليس في كتبهم مثل سائر ولا خبير طريف ولا صنعة أدب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية ولا تعريف صناعة ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحية ولا تدبير حرب ولا منازعة عن دين ولا مناضلة عن نحله . لا ترى فيها موعظة حسنة ، ولا حديثاً موففاً ، ولا تدبير معاش ، ولا سياسة عامة ولا ترتيب خاصة ، فأى كتاب أجهل وأى تدبير أقسى من كتاب يوجب على الناس الاطاعة والتخرج بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين والناس لا يحبون إلا ديناً أو دنياً .

● وإذا كان قد أوضح بذلك رأيه في الكتب والكتابة الهادفة ، وأعلن عن واقعية تفكيره ، فإننا نقرأ له في جانب آخر وهي هنا عدة صور من كتابه: « البخل » .

وكان رجل يغطي طعام الجوهرى ، وكان يتصرى وقته ولا يخطيء ، فإذا دخل ، والقوم يأكلون وحين وضع الخوان ، قال : « لعن الله القدرية من كان يستطيع أن يصرفنى عن أكل هذا الطعام ، وقد كان فى اللوح المحفوظ أنى سأكله ؟ » فلما أكثر من ذلك ، قال له رياح : « تعال بالعشى أو بالغداة ، فإن وجدت شيئا فالعن القدرية والحن آباءهم وأمهاتهم » (١٤) .

وجاء غلام الى خالد بن صفوان . . . يطبق خوخ ، اما أن يكون هدية ، .  
واما أن غلامه جاء به من البستان . . فلما وضعه بين يديه قال : « لولا أنى أعلم أنك قد أكلت منه لأطعمتك واحدة » (١٥) .

● ونعود مرة أخرى الى رؤيته لبعض جوانب الطوائف التى شاعت فى مجتمعه ، فيصور بذلك هذه الزاوية من زوايا عصره ، وما حفل به من فرق ومذاهب وشيع وجماعات . . . ليثبت بذلك كله ، ويصور عديدة أخرى ، هذه الشهادة الجاحظية على عصره ، أنظر قوله عن طائفة « المانوية » . . . أصحاب مانى بن فاكك الذى أخذ مذهبه الدينى من المجوسية والنصرانية . . . يقول الجاحظ :

« ان أناسا حين جهلوا الأسباب والمعانى ، وقصروا فى الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها ، خرجوا الى الحجود والتكذيب ، حتى أنكروا خلق الأشياء ، وزعموا أن كونها باهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا دارا قد بنيت اتقن بناء ، وفرشت أحسن فرش ، وأعد فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآذب ، ووضع كل شيء من ذلك فى موضعه على صواب وتقدير فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم ، فلا يبصرون هيئة الدار وما أعد فيها ، وربما عثر الواحد منهم بالشئ ، قد وضع فى موضعه وأعد لئلا يراه وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتندمر وسخط ودم الدار ويأنيها . . . » (١٦)  
ويضيف قائلا . . . « فهذه حال هذا الصنف فى انكارهم ما أنكروا من الخلقة ، وأنهم لما غيبت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل فى الأشياء ، صاروا يجولون فى هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه فى اتقان خلقتهم ، وصواب هيئته ، وربما وقف الواقف منها على الشئ يجهل سببه والأرب فيه ، فيسرع الى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والاحالة ، كالذى أقدمت عليه وجاهرت به المانوية الكفرة » . . . الخ (١٧)



كانت هذه مجرد قطرات قليلة من ذلك الغيث الأدبي الصحفى ، الذى صور به مجتمعه بما فيه ومن فيه ، أو كانت عدة نقساط من ذلك « المحيط الجاحظى » الذى انعكست على صفحته الهائلة حيناً ، غير المستقرة فى حين آخر ، الثائرة فى أحيان كثيرة ، لكنها الصادقة الى أبعد حدود الصدق ، الأمانة الى أبعد حدود الأمانة وذلك فى حدود وسائل البحث العصرية المتاحة انعكست على هذه الصفحة ، أحداث ووقائع وظواهر وعلوم وفنون وجسمل وفلسفة وأدب وأشخاص وعادات وتقالييد وجد ولهو ولعب وتفاهات وقيان ورقيق وفساد ولمصوص عصره ، تلك التى عاشها وخاض غمارها ، وراها يعينى أديب وصحفى معا ، وعبر عنها تعبير الرجلين معا ٠٠

لكننى وحديثى عن الجاحظ ، لا أترك هذا المجال أيضاً ، دون أن أتوقف قليلا لاستشهد مرة أخرى - بأقوال من هم أقرب منى الى ساحته وإلى تراثه ، أو من سبقنى الى الوقوف على مشاركته ، أو خاضوا عبايه ، وخبروا أمواجه ٠٠ بالعلم ، والعلم وحده ٠

★ ان واحدا من هؤلاء يقول ، بعد أن يعدد جوانب تخصصه العام الذى أخذ فيه من كل بستان زهرة وعلى سبيل المثال لا الحصر : ٠٠ وكما مثل الجاحظ حرية الفكر فى عصره ، مثل أيضا نتيجة تلك الحرية وهى مزوجة : نتيجة حسنة هى ازدهار العلوم العقلية ، ونتيجة سيئة هى الانحلال فى العقيدة والأخلاق فمثل الجاحظ فى آثاره تشعب الحركة الفكرية وانطلاقة العلوم واتساع الآفاق ٠٠ - ومثل الجاحظ من جهة أخرى الأخلاق والعقائد وأظهر انحلالها فى فئات من أهل عصره ، قصور حيل التجار وخزعبلات المتسولين ومخافات الشبان المتخنتين وزندقة المتزندقين وما أشبه ذلك من ضروب الفساد « (١٨) ٠

★ وبعد أن يتحدث عن بعض معالم طريقته الفنية وأساليبه تناولته للناس والأشياء والصور والمواقف فى عصره ، وهو ما سنخرج عليه بعد قليل بأنن الله ، يقول أحد رواد الدراسات الأدبية العربية : ٠٠٠٠ اننا نجده يعنى بحكاية عصره وتمثيله تمثيلا دقيقا بحيث تعد أعماله أهم مراجع تكشف لنا حقائق العصر الذى عاش فيه « (١٩) ٠

★ ويقول الأستاذ نفسه فى مكان آخر ٠٠ وفى معرض حديثه عن هذا

الموضوع : « أما بعد ذلك فانه كان مصورا عظيما ، اذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها وبقائتها تسعفه في ذلك قدرة غريبة على الملاحظة ، وهي قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة ، كما يحسن القصص من جهة أخرى » (٢٠) .

وهكذا يبدو الجاحظ الكاتب الواقعي ، القريب من الناس ، المعاش لهم المصور لعصره ، بكل ما فيه ومن فيه من صور الايجاب والسلب ونكتفي بهذا القدر من النقاط التي تقف مؤيدة لشهادته على العصر ، ودقة وصدق وحالية وواقعية تصويره له . وهي - في مجموعها - تمت بصلة نسب غير منقطع وشائج قريى « أصيلة » الى المادة الصحفية . كما سنضيف الى « مصداقية » ذلك ، جوانب جديدة ، تتناولها السطور القادمة بانن الله . فالى نقطة أخرى هي :

### ٠٠٠ وأكثر من حاسة

واذا كنا قد تحدثنا في سطور سابقة - هي السطور الأخيرة من الفصل الثاني - عن بعض المعالم الجاحظية ، التي تعتبر من جنس الصحافة ، قدر اعتبارها من جنس الأدب ، أو تلك التي تقف بصاحبها على الجسر الموصل بينهما ، ومع اقتراب من جانبه الصحفي ، وكانت هي على وجه التحديد حسه أو حاسته الاجتماعية وحسه أو حاسته الحافظة ، وحسه أو حاسته الثقافية ، أو النهمة دائما ، الظماى أبدا ، الى المزيد من الثقافة والمعرفة .

اذا كنا قد تحدثنا عن هذه الحواس ، أو الاحساسات عنده ، فأننا هنا توصل ما بنأناه ، أو تصل من الحديث ما انقطع ، لنقول انها لم تكن الحواس أو الاحساسات السابقة وحدها ، وإنما تجمع له غيرها ، مما يضعه أيضا في مرتبة أفضل المحررين وكبار الكاتبيين ، خاصة في مجالات الأخبار والموضوعات والتقارير والتحقيقات والمقالات بأنواعها خاصة مقالات التجربة الخاصة ، والنقدية والكايكاتورية . أما هذه الحواس أو الاحساسات التي نضيفها هنا والتي تصلح لأن تضعه في مصاف هذه الطائفة الموهوبة والموهوبة جدا ، من الصحفيين ، تماما كما هو بين الأدباء ، فأنها :

- ٢ — الحسن السياسي
- ٣ — الحسن الاتصالي
- ٤ — الحسن الجماهيري
- ٥ — الحسن الفكاهي
- ٦ — الحسن الأنثوي
- ٧ — الحسن الفني

أما عن الحسين الأخيرين ، فلا اعتقد أننا نستطيع أن نضيف إلى ما قاله عنه النقاد والمؤرخون ورجال اللغة العربية ، من معاصريه ومعاصرينا ، من عرب وأجانب ، من مؤيدين ومعارضين ، من مستشرقين وغير مستشرقين ، لا نستطيع أن نضيف إلى ما قاله عنه هؤلاء جديدا مؤثرا ، ونكتفي هنا — مؤقتا — بإشارة واحدة مختصرة إلى قول المستشرق المعروف « شارل بلان » والذي جاء فيه ، ونحن معه في ذلك إلى حد كبير ، بعد أن رأينا « العجب العجيب » خلال هذه الرحلة مع كتابات رجلنا ٠٠٠ « ليس هناك كاتب معاصر أو لاحق يشبه الجاحظ » (٢١) ٠٠

على أننا وإن كنا سوف نعود إلى تناول هذين الحسين في سطور قادمة بإذن الله ، تتناول « الأسلوب الجاحظي » وصلته الشديدة بالأسلوب الصحفي ، فإننا — باختصار شديد جدا — نحاول أن نحيط ببعض معالم هذه الحواس كلها ، التي تجعل ممن يفوز بها ، أو يتمتع بوجودها في نفسه وصدره ، تجعل منه صحفيا « أنموذجيا » ٠٠ قل أن يوجد مثله في زمانه ، وأقول وفي زماننا أيضا ٠٠ أنها :

#### ١ — الحاسة الاختيارية :

نلك أن المشاهد للمادة التي كان الجاحظ يقوم بجمعها خاصة من « المصادر البشرية » وعن طريق « السماع » ٠٠ من الملاحظ أن هذه المادة تعكس حسا اخباريا كانت هذه بعض ملامحه ٠٠ التي يعرفها جيدا « مخبرو الصحف » و « مراسلوها » هذه الأيام ٠٠

٠ — الاهتمام بالجوانب التي ينتظر أن تعكس اهتماما بين أبناء عصره  
٠ — القيام برحلات وأسفار وزيارات متتابعة للمواقع والأماكن والأشخاص التي يعرف بحاسته وخبرته وتجربته ، أنها يمكن أن تقدم أخبارا ( الجاحظ )

— القرب والاختلاط الشديد بـ « الاخباريين » في زمنه ، حتى يأخذ عنهم بعض ما يتابعه ويقدم الجديد بشأنه ، ويضيف اليه ما يستطيع ، كما يتعرف على طرقهم في الحصول على مادتهم الاخبارية ، ويختار منها ما يطورها

— الاهتمام بتنوع مادته الاخبارية ، وجعلها تضرب في أكثر من مكان وموقع ، وتتحدث عن أكثر من غرض

— اعطاء عنصر « الشهرة » حقه ، ولذلك فقد كانت عنايته بالغة بأخبار مشاهير عصره من خلفاء وأمراء ووزراء وقادة وقضاة أولا .

— وفي المقابل ، الاهتمام بأخبار « الحوادث » وأخبار « الناس » من تلك التي يعرف تماما أنها تستقطب أكثر من غيرها أنظار الجماهير ، وتكون حديثهم لعدة أيام أو شهور أو سنوات ، انطلاقا من جوانب تشويقها واثارتها ، وتلييتها لفريضة « حب الاستطلاع » عند أبناء مجتمعه ، والمجتمعات الأخرى عامة .. خاصة وقد كان مجتمع العباسيين في صورته « السالية » يقبل ذلك كله مع وجود هذه الصورة به .

— الاهتمام بجانب صحة المصدر ، والتأكد من ذلك قدر الطاقة ، بمسائله الخاصة ، كما يفعل الصحفيون اليوم ، فما ثبت صحته منها اعتمده وأضافه ، وما لم يتأكد من صحته انتظر حتى تواتره شواهد هذه الصحة ، وما لم تثبت صحته الغاه وأبعده ، وقد يشير الى ذلك أيضا .

— الاهتمام بجانب ثبت مصداقه ، والإشارة إليها في مقدمة كلامه وأحيانا أكثر من مرة ..

— الاهتمام بأن تستقطب أخباره جميع الطبقات الموجودة في مجتمعه ، ومن هنا فإنه لم يقصرها على قطاع واحد أو قطاعين أو ثلاثة ، وإنما راحت تغطي جميع الأفراد والطبقات والأعمال والوظائف السائدة في عصره ، نعم ، لقد تحدثت أخباره عن اللصوص والحواة بأنواعهم ، ولكنها تحدثت أيضا عن العلماء والشعراء وأصحاب الفرق والجماعات ، كما لم تهمل أصحاب الحرف ولا القيان ولا أرباب التجارة ومن هنا ، فقد راحت تغطي جميع المواقع الهامة ، التي يمكن أن يوجد فيها صناع هذه الأخبار ، وفي سبيل ذلك ، فإنه لم يرحل

الى الابدية فقط ، وانما غاص بقسديه فى احياء البصرة ، ودهاليزها ،  
ومستنقعاتها أيضا ، وكان « حى الزنج » يجد كثيرا من اهتمامه ، فى نقص  
الوقت الذى شهدته فيه مجالس العلم ، ومساجده ومتنديات الفلسفة والكلام ،  
وأروقة المخنيين .. وما الى ذلك كله ..

كان الرجل راوية ، وكان اخباريا ، وكان مؤرخا ، وجميع هؤلاء يمتون  
بصلة قريى كبيرة ، الى رجال الأخبار ، والى مندوبيها ومحرريها دون أن ننسى  
أو نتجاهل طابع عصره نفسه .. بظروفه واهتماماته .

بل لقد اثبتت بعض كتابات الرجل من تلك التى أشرنا وسوف نشير اليها  
أنه كان يتمتع ببعض مواهب العاملين فى حقل جمع الأخبار وملكاتهم الفريدة  
لا سيما : حب الاستطلاع ، والتوقع ، والتوجه المباشر الى مواقع الأحداث  
وصناعها .. بل انه لا بد من وقفة أخرى عند طبيعة مادته الاخبارية تؤجلها  
الى صفحات قائمة فحسبنا ذلك حديثا عن هذا الجانب .

## ٢ - الحاسة السياسية :

وهى تلك التى بواسطتها يترك الرجل أبعاد ما يجرى فى مجتمعه من  
أحداث سياسية ، ويعرف كنهها ويصل الى ما خفى من مقاصدها ، ويضع  
يده على أبعادها ، وتتكون له من خلال ذلك كله نظرة غالبا ما تكون صائبة ،  
يستطيع بها أن يحكم على مسار الحدث أو القضية وعلى ما وراء الآراء  
والاتجاهات والنزعات والمواقف ، بل ويمكنه جمع خيوط هذه كلها الى بعضها ،  
والربط بينها . والخروج من خلال ذلك كلها بالتحليلات التى تصبح فى معظم  
الأحوال ، وبالنتائج المحتملة أو المتوقعة ، والتى يقدمها للقراء أو يفيد منها هو  
نفسه فى جوانب اتجاهاته المختلفة ..

وواضح أن هذه الحاسة لا تتكون بين يوم وليلة ، وليس من السهولة  
بمكان أن يتمتع بها كاتب من الكاتبين أو أن تتوافر له ، وانما يكون من دون  
ذلك مشاق ومشاق .. فهى تحتاج الى مثل هذه المعرفة بالأجواء والأحزاب  
والطوائف وخططها وبرامجها ومعايشتها ، حاجتها الى الثقافة العامة  
والسياسية ، حاجتها الى معرفة التاريخ المعاصر ، والاتصال بأبطاله وصناعه ،

والقرب منها ، ثم حاجتها الى ملكة استقراء وتفسير وتحليل واستنباط للنتائج ، لا تتوافر للجميع وعلى نفس المستوى ٠٠ كما أن التجارب الملمة تكون خير دليل الى هذه الحاسة نفسها ٠٠

ولا أحسب أن هناك أحد المتابعين المنصفين ، للعصر وتياراته السياسية يمكنه باستقراء حياة الرجل ، ومعرفة جانب فكره السياسي ، وانتماءاته ، ومعايشته لهذه التيارات ، الا أن يحكم له بتوافر هذه الحاسة مرتين ، مرة من خلال هذه المعاشة نفسها ، ومرة من خلال كتاباته وهو يصور هذه الأحداث ويفسر بعض ما خفى منها ويعلق عليها ويستخلص أبرز نتائجها ، ضاربا المثل من التاريخ والأحداث المماثلة والمتاحة ، ثم ينهى ذلك كله بتوجيه مفيد ومثمر للقراء ، دون أن ينسى في ذلك كله ، أن يهاجم خصومه ، وأن يحمل عليهم حملة شعواء يفتد بها حججهم ويفضح أفعالهم ويكشف عن قساد ما يدعون له ٠٠ وهكذا ٠٠

أليس هذا هو ما يفعله بعض كتاب السياسة ، أو معظمهم هذه الأيام ؟ مرة أخرى نقول ان دليلنا الى ذلك هو كتابات الرجل نفسها ، واليك طريقا منها ، يتصل بهذا الموضوع نفسه ، موضوع حاسته السياسية ، والكتابات التي تتحدث عنها مما حفل به التراث الجاحظي :

● فهو يقول عن منهجه في الشك كطريق الى اليقين ، وبعد أن يروي إحدى الروايات عن عالم الحيوان : « ٠٠ ولم أكتب هذا لتقريبه ولكنه رواية أحببت أن أسمعها ولا يعجبني الا قرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يعجبني الإنكار له ، ولكن ليكن قلبك الى إنكاره أميل ، وبعد هذا فأعرف مواضع الشك وحالاتها المرجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما » (٢٢) ٠٠ وقد اتبع هو هذا المنهج على المجالين الاخباري والسياسي ، بل والأدبي النقدي معا ٠٠

● وإذا كان قد مر بنا خلال الصفحات السابقة بعض كلامه عن « الزناقة » كفرقة بينية ، فانتنا نلاحظ أن من أهم مظاهر كتاباته وفكره السياسي :

— الاهتمام بالجانب العقلي التفكيرى الشكى التحليلي

- الاهتمام بالمنظرة وطرح الشيء وضده
- الاهتمام بالأساليب الجدلية العديدة ..

● وفي النهاية ، نشير الى دفاعه الحار عن العرب ، كموضوع سياسي وجد اهتماما كبيرا عنده ، وأبدع فيه — ككاتب مقالة سياسي — ايما ابداع ورد على مهاجميهم والطاعنين فيهم ، كما رد على « الشعبوية » واتباعها حتى افحمهم بالمنطق والحجة ، والجدل السياسي رفيع المستوى ، والثقافة العامة والتاريخية ، التي تبهز القراء .

## ٢ — الحاسة الاتصالية :

يختصر الطريق الى النجاح ، ويقطعه بسرعة وتمكن في أن واحد ، هذا نفر من المحررين أو الكاتبين ..

- من نوى الشخصيات الجذابة
- الذى يزن الكلام على مواضعه ولا يتحدث الا بما يعرف
- حلو الحديث طيبه ، دبلوماسى الكلام
- الذى يضيف الى رصيده من المعارف والأصدقاء كل يوم جديداً
- الذى يحترم الآخرين ، ويفصح عن هذا الاحترام
- الذى تراه لأول مرة وكأنك تعرفه منذ سنوات
- الذى يحرص على حسن علاقاته بالآخرين ، ويدعمها كلما وجد الى ذلك سبيلا

- الذى يفيد منه جلساؤه ، معرفة وثقافة وأدبا وخلقا ، وحتى في مجال الملاح والطرائف ..
- الأوغيا بطبعهم وطبيعتهم ..

اننا نعبّر عن ذلك كله بالمحرر من نوى « الحس الاتصالي » ، من نوى العلاقات العامة الحسنة القوية المدعمة مع الجميع ، خاصة صنّاع الأحداث وأبطالها ، وحتى هؤلاء الذين يكونون « الصف الثاني » أو « الصفوف الخلفية » فكثيرا ما يكون هؤلاء من نوى الفائدة الكبيرة التي يقدمونها لأسباب عديدة (٢٣) .

فهل كان رجلنا ممن يملك هذا الحس ، هل كان سهل التعرف والتعارف ، يقيم العلاقات ويحرص عليها ، ويزين المجالس بطلو حديثه ، من الأوفياء والمعارف والأصدقاء ؟

اننا نقول هنا ، أن عددا من معالم هذا الحس الاتصالي قد توافر للرجل وتاريخه والمجتمعات التي كان يغشاها وبعض الأقوال عنه وكتابات — وهي مصادرنا إليه — شاهدة على ذلك ، أقول عددا ولا أقول كل هذا العدد ، أو كل معالمه ذلك أنه ولعدة أسباب لم يتمكن دائما وفي جميع الأحوال من أن يكون هذا الرجل ، ومن هنا أقول أن هذا الجانب قد توافر له بنسبة معقولة ، لا بأس بها وفي حدود ٦٥ بالمائة مثلا ، لكنه لم يتوافر بما هو أكثر من هذه النسبة ، أما هذه الأسباب فهي :

- دمامة وجهه ونقوء عينيه
- خوف الحساد له من نشاطه وسرقة الأضواء منهم ولذلك فقد اجتمعوا عليه ، وحاول هو قدر ما وسعه أن يكون بمنأى عنهم
- جرأته وشدته في الحق ، ومثله لا يرحب به الجميع
- بعض انتماءاته السياسية والحزبية والطائفية الحالية أو السابقة من تلك التي تغيرت ، أو انقلب الزمن عليها وعلى أصحابها
- تقده اللادع وسخريته المرة بمن يستحق ذلك ، حتى من أصحاب هذه المجالس التي كان يغشاها
- وإذا كان الدارسون له أو متابعوه أو معاصروه ، وإذا كان هو نفسه أحيانا ، جميعهم قد عبر عن ذلك بأقوال عديدة من بينها وعلى سبيل المثال لا الحصر ، هذه الأقوال كلها :

● ما يذكر عن بعض حاسديه ، ومؤيديه ٠٠ قال أبو القاسم السيرافي : « حضرت مجلس الأستاذ أبي الفضل بن العميد فجري ذكر الجاحظ فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به ، وسكت الوزير عنه ، فلما خرج الرجل قلت للوزير : سكت أيها الأستاذ عن الرجل في قوله ٠٠ قال ، لم أجد في مقالته أبلغ من تركه على جهله ولو وافقته وبيئت له لنظر في كتبته وصار بذلك انسانا » (٢) .



● وأعجب من ذلك ، ما رواه « المسعودي » في كتابه الأشهر : التنبيه بالاشراف من أن الجاحظ كان يقول : « كنت أولف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، وأنسبه الى نفسي فلا أرى الإسماع تصفى اليه ، ولا الارادات تتم نحوه ، ثم أولف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة وأنحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ويسارعون الى نسخها ، لا شيء الا لتسببها للمتقدمين ، ولما يداخل أهل العصر من حسد من هو في عصرهم ومنافسته على المناقب التي عنى بتشبيدها » (٢٥) .

إذا كان ذلك هو ما حدث بالنسبة لجانب « الحسن الاتصالي » ، وما عانى منه الرجل نفسه ، فأننى أرى هنا أنه لم يكن شرا كله ، فقد وفر له الوقت المناسب للبحث والدرس والتأليف ، وأبعده - نسبيا - عن حاقديه وحاسديه ومثله يكون له العديد منهم ، تماما كما صرفه الى دعم وتنمية الحواس الأخرى غير أننى هنا أيضا ، وفي مجال الاقتراب من الجانب الصحفي عند الرجل ، أعود فأقول :

— انه لم تكن له اليد الطولى في ذلك ، وبمعنى أن ذلك لم يكن موقفه من الناس بقدر ما كان موقف البعض منه للأسباب المباشرة ، حتى اليوم يحسدونه ويعارضونه .

— أن ذلك لم يكن دينه دائما ، ولم يكن حظه باستمرار ، بل لقد كان للرجل صداقاته وعلاقاته الطيبة والوطيدة ، بل وكما كان يوجد من يحقد عليه أو يحسده أو يغار من شخصه ويضايقه علمه وأدبه ولا يرحب به في مجالسه ، فقد كانت هناك أيضا هذه الكتلة التي رحبت به وحفلت بمجالسه واستمعت اليه وأخذت عنه ، وأنصفته ..

... ببني أن ذلك لا ينقش عنه كثيرا هذا الجانب من « المكونات الصحفية » ، لأن بعض المحررين والكاتبين يعيش أيضا هذه الصورة ، وربما لمثل هذه الأسباب أو لغيرها ، بينما الكل يشهد أنه « متصل ماهر » وأن علاقاته تكون جيدة ومفيدة وقائمة ودائمة ، وعلى الرغم من وفائه الذي جبل عليه ..

تلك صورة موجودة أيضا ، وفي أواسط عسدد ناجح ومرموق من المحررين ..

— أن من المؤكد أن هذه النسبة من الضعف القائم في جانب هذلة الحس الاتصالي عند الرجل ، كان يتجه أولا ، الى هؤلاء الذين أرادوا ابعاد أو عزله أو عزلته ، وهؤلاء ، ووفقا لنوعياتهم ، لم يكن يرتجى منهم خيرا كثيرا أو حصادا مثمرا ، وإنما المر والعلقم ..

— وحتى هؤلاء ، فقد قدم بعضهم للرجل فرصة كبيرة ، لتناول مواقفهم ، ومعارضتهم ، وحسدهم ، وانكارهم للحق ، فجاءت كتاباته عنهم ، خاصة في جانبها الفكاهي الساخط ، قمة في موضوعها .. ومثلا ما يزال يحتضنه محررو المقالات الفكاهية والكاريكاتيرية ، وغيرهما ، بل كان نقدم لهم ، فريدا في بابيه ، وجميعها سوف تعود اليها في سطور قادمة باذن الله ..

#### ٤ - الحاسة الجماهيرية :

وبالمثل ، يقفز بعطف القراء عليه ، وتأييدهم له ، ويحيطونه بحبهم ، ويكون مثار اعجابهم ، ذلك المحرر الذي يتمتع بما نطلق عليه تعبير : « الحس الجماهيري » ومن ثم يتابعونه وتحظى كتاباته باهتماماتهم ، ويبحثون عنها وينتظرونها ، ليس لأنه وعلى طريقة بعض المخرجين السينمائيين : « الجمهور عاين كده » .. أو هذا « نجم شباك » وذلك نجم « رصيف » .. وما الى ذلك ..

أن الحس الجماهيري هنا يعنى أولا ، وبإدنى ذى بدء ، هذه الأمور بعضها أو كلها أو أمثالها :

— أن يكون المحرر مع الجماهير في افراحها واحزانها وربما معهم في هذه الأخيرة أولا ..

— أن تكون قنوات اتصاله بهم وعلى جميع المستويات قائمة وقوية ودائمة ..

— أن تكون لديه فكرة كاملة ومعرفة طيبة ، عما يورق منامها ، ويطنح أحشائها ، ويهدد يومها وغدا ..

— أن يقف الى جانب قضاياها بكل قوة ، لا سيما قضايا الضعفاء ،

والذين ليس لهم سند ، والمظلومين ، والذين يعانون من النكران والجحود ،  
أو يطبق البعض على أنفاسهم ، أو يضطهدهم لسبب من الأسباب ..

— أن يحاول أن يأخذ بيدها ، ما وسعته في ذلك المحاولة ، وأن يفكر  
لها وبها ومن أجلها ، وأن تكون هي مجال فكره ، ومقياس جهده ، ومعين  
مايقته ، كلما وجد الى ذلك سبيلا ، وأن يجاهد من أجل شق الطرق ، والحصول  
على الفرص التي تتيح ذلك كله .

— أن يتمتعها ويؤنس وحشتها ويزيل صبا قلوبها ويبدد قلقها ، قدر  
الطاقة ، ويمقدار ما تسعفه أدواته الى ذلك فكرا وتعبيرا ..  
والى غير ذلك كله من جوانب تلقى بمسئوليات مضاعفة على كاهل  
المحرر أو الكاتب ولكنها في مقابل ذلك كله ، تكتب له النجاح وتحقق لكتابته  
الذيع والانتشار ، ويكون من ورائها العائد المناسب معنويا وماليا ، بل  
لقد ترفعه الجماهير هنا الى مرتبة القادة — قادة التفكير — الذين تنتظر  
كلماتهم وتوجيهاتهم وتأخذ بها ، وهكذا يكون أمثال هؤلاء ، محل ثقة القراء ،  
ومحط أنظارهم ، ومبعث آمالهم وسعادتهم ..

.. اننا نتبع هنا طريقة جديدة ، فمن رصيدنا الذي استطعنا جمعه  
من هذا التراث الجاحظي نفسه ، نقدم صورا مما يعكس هذا العصر عند  
الرجل ، مقداره ودرجته وربما ، مما خالف فيه كثرة من كتاب أهل عصره ،  
الذين كان جل اهتمامه وغايته موجهها الى الخلفاء والامراء والاثرياء ، ومن  
اليهم .. وصحيح أن ذلك كان هو طابع العصر ، وأن الأديب كان يقسم  
شعره أو نثره ليعيش ، ولا اعتراض لدينا على هذا الواقع الذي أملت الظروف  
نفسها ، ولكن ، في نفس الوقت فانه لا يسعنا الا ان نثبت ذلك للرجل ، ومن  
بين صوره على سبيل المثال لا الحصر :

« سكر زبيدة ليلة ، فكسا صديقنا له قميصا ، فلما صار القميص على  
التديم خاف الببوات — من يبدى زايه — وعلم أن ذلك من حقوات السكر ،  
فمضى من ساعته الى منزله ، فجعله ارتكازا لامراته ، فلما أصبح سأل عن  
القميص وتفقده ، فقيل له أنك قد كسوته فلانا ، فبعث اليه ، ثم أقبل عليه ،  
فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه وييعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ! ..

ويعد فاني أكره أن يكون لي حديد ، وأن يواجه الناس هذا منى على السكر .  
فردته على حتى أهبه لك صاحبا عن طيب نفس ، فاني أكره أن يذهب شيء من  
مالي باطلا ، فلما رآه قد صمم وأقبل عليه فقال يا هذا ان الناس يمزحون  
ويلعبون ولا يؤخذون بشيء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله . قال له  
الرجل ، انى قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبي على الأرض حتى جيئته  
لامراتى ، وقد زدت فى الكمين وحنفت المقاييم ، فان أردت بعد هذا كله ان  
تأخذه فخذ . قال نعم ! ، أخذه لأنه يصلح لامراتى كما يصلح لامراتك ،  
قال فانه عند الصباغ ، قال فهاته ، قال ليس أنا أسلمته اليه ، فلما علم أنه قد  
وقع قال بأبى وأمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع الشر  
كله فى بيت وأغلق عليه فكان مفتاحه السكر ، ( ٢٦ ) .

#### ٥ — الحاسة الفكاهية :

وإذا كنا نرى أن كثيرا من الصحفيين الأنبياء ، أو الأدباء الصحفيين ،  
فى الماضى والحاضر يتمتعون بقدر لا بأس به من الحاسة الفكاهية ، التى نرى  
حالا يراه الآخرون ، من جوانب السلب ، ومن الرقع الموجهة فى ثوب  
المجتمع ، ثم تتبع ذلك نقدا لاذعا يهدف الى الإصلاح ، ويدفع الى العمل على  
تقديم الحلول ، ويثير من يتناول هذا النقد بما يتضمنه من قدر كبير من التفكه  
والتندر ، يثيره الى الحركة ، فى اتجاه تغطيه ما كشف وستر ما جرت عليه  
هذه الروح ، وإذا كنا مع بعض كبار الممارسين فى قولهم بأن الكاتب ، لا بد  
أن يكون على قدر من الحس الفكاهى ، وأن محرر المقالات الصحفية بالذات  
يحتاج الى هذا الحس أكثر من غيره من مؤلفى الكتب أو الباحثين . إذا  
كان ذلك كله هو ما يدور ، فمن المؤكد أن « رجلنا » لم تنقصه هذه الحاسة  
أيضا ، بل كان له من طبعه وطبيعته ، وتجاربه وثقافته ، وجلساته ومخالطته  
الناس ، ومن عينه « الجاحظة » التى تطول المشاهد كلها ، ومن بصيرته  
الناقذة ، ثم من روح الدعابة المتأصلة فيه ، كان له من ذلك كله الرصيد الطيب  
الذى يتصل بهذه الحاسة نفسها وما تستطيع أن تقدمه فى المجالس ، ودكاكين  
الوراقين ، والمنتديات ، وعلى الورق ، مما يبهر حتى قارئ اليوم نفسه ،  
ويدفعه الى تقبل نتائجها ، من ملح وطرائف ونواير واللوان نقد وكاركاتير  
جميعها قدمها قلمه فى أكثر من مجال ومقال ، أشرنا فى السابق الى بعضها ،  
وسوف نشير فى اللاحق أيضا ، الى بعضها الآخر .

ان هذه الحاسة نفسها ، وان هذا القدر الكبير من تمتع الرجل بها ، كان وراء هذا النتائج المتميز مما اطلق عليه الباحثون تعبير « أدب الفكاهة » . . .  
والذى نستطيع ان نقول انه من أبرز كتابه العرب ، لا بل من أبرز كتابه في العالم كله ، بل من رواده الأوائل كما اشرنا الى ذلك من قبل ، ذلك لأن مستوى كتاباته الفكاهية ، ولأن كثرتها وتنوعها . . . جميعها تعطى له هذه المنزلة الرائدة ، فاذا أضفنا الى ذلك ان هذه الفكاهة ، كانت في اغلب الأحوال ذات المضمون الهادف ، الذى يفيد منه الفرد والمجتمع ، فضلا عما كانت تزخر به من معالم هذا الحس نفسه ، لاسيما في مجال اختيار وانتقاء هذه الصور والمشاهد والمواقف والشخصيات والافكار والقضايا ، التى تعرض لها قلمه اللاذع ، وتحويلها - جميعها - الى عمل فنى رفيع اذا أضفنا ذلك كله ، لعرفنا أى نوع من الرجال كان ، ولازدادت معرفتنا بهذه الحاسة . . .

اننا نقرا - على سبيل المثال - لأحد المهتمين بدراسة هذا الجانب ، دراسة جادة هذه السطور :

● « فالجاحظ كثيرا ما كان يستخدم الاطار الفكاهى ليوجه نقداته الهادفة وسخرياته المرة الى الأنواء الاجتماعية والنقائص الأخلاقية التى يراها فاشية فى الناس من حوله ، فكان يعالج نكيره لها ، ويصب نغمته عليها فى ذلك القلب الأنبى الرفيع ، الذى رأينا أن نطلق عليه : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » (٢٧) . . .

● ويقول المؤلف نفسه أيضا : « ويعد الجاحظ اسبق الكتاب العرب احتقالا بالفكاهة ، وحشدا لها فى ثنايا مؤلفاته ، وهو صاحب مذهب مشهور فى مزج الهزل بالجد ، والخروج بقارئه من أدق المسائل - فلا غرو اذا أن نجد الجاحظ رائدا للأدب الفكاهى عند العرب بحسب أنه أول من ابتكر هذا الأسلوب المرح ، وأسبق من عنى بمراعاة ميول قرائه وتقنن فى امتناعهم ، وابتدخال المرور عليهم ، ابقاء على نشاطهم وإبعادا للعمل والسأم عنهم » (٢٨) .

وإذا كانت هذه - بعون الله - ليست آخر كلماتنا عن هذا الجانب من جوانب الفكاهة عند صاحبنا ، فانتنا نقول هنا أن ارتباط هذه الحاسة الشديدة بكتاب المقالات ، وان اتصالها الوثيق بالأساليب التحريرية الصحفية الهادفة الى « كسر » حدة جمود مادة معينة ، ومساعدة القارئ على المتابعة ،

والقبض على « حبل انتباهه » كما يقول المؤلفون الأجانب في موضوعات التحرير الصحفي.. فضلا عن الرؤية الناقدة النافذة المحتجة المطالبة بالتغيير ، تقول أن في ذلك كله ما فيه من جانب صحفي كان الرجل يتمتع به ، الى جوار هذا الجانب الأنبيى .

وفي تعبير آخر ، ان هذه الحاسة الفكاكية قد أنتجت انبعا صحفيا كذلك، مما يقف الى جوار ما ندعو اليه من لقاء الضوء على « الجاحظ » الأنبيى الصحفي معا .

## ● ● هوامش هذا الفصل :

- (١) محمود أدهم : « فن الخبر » ص ٢١٠
- (٢) أخذ عنى هذا المصدر الخارجى الذى انفردت يذكره على هذا النحو ويستخدم هذه الكلمات ، ضمن كثير جدا مما أخذه من كتابى : « فن الخبر » دون اشارة الى ذلك الا مرتين « ذرا للرماد » وبطريقة خاطئة ، فى هامشه ، وثالثة بقائمة مراجعه التى أخذ كثيرا منها عن قائمة مراجعى بالكتاب المذكور ، وبوقوع الخطأ أيضا ، فعل ذلك مكتفيا بطريقة غير أمينة وسهلة الاكتشاف ، وترك بصماته تسمغه صاحب صفحات أطلق عليها اسم : « الخبر الصحفى » وضوابطه الاسلامية ، وقد آليت على نفسى التنويه بفعلته كلما جاء ذكر ما نقله عنى دون اشارة الى اسمى ، حتى لا يعود اليها ، هو وامثاله لما فى ذلك من تثبيط للهمم واضعاف للمعنويات ومجافاة للروح العلمية وأمانة البحث وتعارض مع روح الزمالة ، بل ومع « الضوابط الاسلامية » التى غلف بها هذه الصفحات وظن أنها تعطيه الحق فى السطو على مجهود غيره وابتزاز أفكاره .
- (٣) حسن السندويى : « أدب الجاحظ » ص ١٩٩ .
- (٤) الجاحظ : « كتاب البخل » ص ٢١ من المقدمة بقلم : أحمد العوامرى وعلى الجارم .
- (٥) محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحرير الصحفى العام » ٢١٩ .
- (٦) من حديث خاص أدلى به الى الباحث المرحوم الأستاذ سليم اللوزى بالرياض ١٩٧٦ .
- (٧) للاستزادة ، انظر أحمد أمين : « فجر الاسلام » ص ٢٨٢ وما بعدها .
- (٨) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ » ص ٢٥ .
- (٩) الجاحظ : « كتاب الحيوان » من مقدمة المحقق عبد السلام هارون ص ٥ .
- (١٠) الجاحظ : « كتاب البخل » من مقدمة المحقق د. طه الحاجرى ص ١٥ .
- (١١) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ » ص ٥٢ .
- (١٢) أحمد كمال زكى : « الجاحظ » ص ٥ - ٦ .
- (١٣) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ١/٢٢ / ١٩٨٥ ، من مقال بقلم توفيق الحكيم .
- (١٤ - ١٥) الجاحظ : « كتاب البخل » ص ١٢٣ .
- (١٦ - ١٧) حنا الفاخوزى : « الجاحظ » ص ٦٤ .

- (١٨) المصدر السابق ص ٤٦ .
- (١٩) شوقي خليف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٢ .
- (٢٠) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .
- (٢١) محمد زغلول سلام : « دراسات في الأدب العربي » ص ٤٥٦ .
- (٢٢) الجاحظ : « الحيوان » ج ٦ ص ٣٤ .
- (٢٣) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع في جانبه الاخبارى أقترح العودة الى كتابي : « فن الخبر » لاسيما ما ادرج تحت عنواني : « مفتاح العمل الاخبارى » ، « الأخبار من الكبار والصغار أيضا » .
- (٢٤) الجاحظ : « الحيوان » ج ١ ص ١٠ .
- (٢٥) حنا الفاخوري : « الجاحظ » ص ١٨ ، نقلا عن السعدى .
- (٢٦) الجاحظ : « كتاب البخل » .
- (٢٧ - ٢٨) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » ص ٥ ، ٦ .



## الفصل الرابع

### الحاسة الصحفية عند الجاحظ



خلال الفصل السابق ، تناولنا بالحديث بعضا من الحواس التى يقول  
أساتذة الصحافة وعلمائها بضرورة توافرها بقدر طيب ، فى ذلك الشخص  
الذى يرغب فى العمل المتميز ، وفى ارتقاء سلم النجاح فى بلاط صاحبة  
الجلالة ، حتى يصل الى درجة «الكاتب الصحفي» المرموق ثم قدمنا عدة نقاط  
توضح وجودها مجتمعة . فى صدر صاحبنا وفى فكره . .

وبالمثل ، وخلال السطور الأخيرة من الفصل الثانى ، قدمنا عدة شواهد  
على حاسة « الجاحظ » الاجتماعية ، وعلى حاسته الحافظة ، وكذا على  
حاسته الاجتماعية . . .

وذلك كله فضلا عن حاستيه الأدبية والفنية ، ولنا معها وقفة أخرى ،  
من الزاوية التى تعنى هذا الكتاب أيضا . .

أقول خلال سطور عديدة سابقة ، رحنا نقدم هذا الحديث عن وجود هذه  
الحواس جميعها عند الرجل ، وتمتعه بقدر كبير منها ، الى درجة يحسده  
عليها العديد من كتاب وصحفيى هذه الأيام ، شرقا وغربا .

تحدثنا عن هذه ، وعن ازدهارها فوق صفحات الرجل ، وانسياب  
ما يدل عليها بين ما يدل على ملكاته العديدة ، لكننا ، خلال هذه السطور  
السابقة نفسها لم نتحدث عن حاسة أخرى هامة جدا ، بل لقد اغفلناها عن  
عمد ، ذلك كله بينما يستطيع أن يدرك اغفالنا للحديث عنها ، أى طالب  
اعلام ، أو أى محرر جديد . . حيث ترتبط بها بشدة هذه الحواس السابقة  
كلها ، بل ونستطيع أن نقول أن محصلتها النهائية - محصلة هذه الحواس -  
تصب فى بحرها الصاخب وفى عالمها المتجدد ، الذى يعموج بالحركة والحياة . .  
والذى لا يعرف السكون أو الركود أبدا .

أريد أن أقول ، أن هذه تصيب وتنتهى الى « الحاسة الصحفية »  
والا أصبحت حواسا تعمل فى فراغ ، ولا تنتج عملا صحفيا جديرا بالنشر  
والقراءة والمتابعة . .

أى أننا هنا ، وخلال هذا البحث ، وبالإضافة الى ما سبق تقديمه من  
صور عديدة ، نستطيع أن نقف شاهدة على هذا الجانب « الصحفى » عند

( الجاحظ )

« الجاحظ » الأديب ، والتي كانت انعكاسا لدرجة طيبة من تمتعه بهذه الحواس كلها بالإضافة الى ذلك ، فاننا نواصل تقديم هذه الشواهد ، ولكن من زاوية أخرى وفي صور متجددة ، ترتبط هذه المرة ، بالحاسة الصحفية نفسها .

لكن من المؤكد ، أن ذلك يعنى أولا - وكما بحث بالتسبة للحواس السابقة أن نتوقف عند محاولة لتحديد « ماهية » هذه الحاسة نفسها ، ثم تقديم الصور والشواهد والدلائل الخاصة بها بعد ذلك .

ولن نجهد انفسنا كثيرا في تتبع هذه الحاسة الصحفية في الكتب والمراجع العربية والأجنبية لأن كثرتها لم تتوقف عند تعريف لها ، وإنما سوف نختلص عدة نظرات سريعة الى ما يتصل بها وبصورها من هنا أو هناك ، بينما التجربة نفسها هي خير معرف لها ، ومن هنا نقول أن هذه الحاسة تظهر واضحة ، وتتمثل وتتجلى في أكثر من مشهد أو « محك » أو « اختبار » لوجودها من عدمه ، ولهذا القدر من الوجود نفسه - ودرجاته في صلب صاحبها وفكره . ومن بين صور هذه الحاسة وما يتصل بها مثلا « ١٨ صورة فقط » .

١ - هي تتمثل في حاسة توقع الاخبار وأماكنها وأبطالها أو مواقعها وصناعها .

٢ - وهي تتمثل في حسن اصطفاء أو اختيار ما يصلح من بين هذا الكم الاخبارى الهائل ، للنشر والقراءة .

٣ - وهي تتمثل كذلك في حسن الانتقال والسعى وراء الصور والمشاهد الجديدة التي قد لا يهتم بها غير من يملك هذا الحس .

٤ - ثم في واقعية رصد واختيار وتحرير هذه كلها بأمانة وصدق .

٥ - وهي تتمثل كذلك في اختيار الافكار والموضوعات الجديدة من تلك التي يمر بها الآخرون من كاتبين ومحررين من الكرام ، ولا يحفل بها غير من يتمتع بهذا الحس نفسه ، حتى وأن بدا للناس تافها حقيرا .

٦ - وهي تتمثل أيضا في بحث الروح في الصور والمشاهد والأفكار والموضوعات القديمة ، ووضعها في أطر فنية وأشكال جديدة مبتكرة ورؤية معاصرة وصحيحة .

٧ - وهي تتمثل أيضا في التناول العكسي للأفكار والموضوعات المطروقة قديما أو حال طرقها على يد الكاتبين الآخرين أو الكاتب نفسه بما يشبه المعارضة أو المناظرة لهذه الأفكار والموضوعات نفسها « الشيء وضده » .

٨ - وهي تتمثل بعد ذلك كله في تقديم الفكرة الأجنبية المترجمة أو للنقولة « معربة » ، ثم الوقوف منها موقف التأييد أو المعارضة .

٩ - وهي تتمثل أيضا في ذلك التقديم الشمولي للفكرة المطروقة ، بما يعد سبقا لصاحب التقديم على غيره ، حيث يحيط بها من جميع جوانبها وزواياها القريبة والبعيدة وظلالها ونتائجها بما يذكر يكتابات الموسوعيين المختلفة .

١٠ - وهي تتمثل أيضا في حسن اختيار زاوية جديدة في الجانب المطروق ، أو الظاهرة المعروفة ، لكن لم يره أحد من قبل ، ولم يضع يده عليه ، بل ولم يشر اليه بنائه ، لكن الحاسة الصحفية هنا تعرف كيف تقصيد ، وترى هذه الزاوية ، وتتناولها .

١١ - وفي الحس الفكاهي وروح الدعابة ، والقبرة على تجسيم العيوب نجدها كذلك .

١٢ - وهي تتمثل أيضا في التركيز على جانب البطل ، لاسيما عندما يكون جديدا بصورته وشخصيته وعمله وتفرد به في جانبى الايجاب والسلب .

١٣ - أو جانب المكان ، فقد يكون هو البطل ، وغيره انصاف ابطال ، أو ارباع ابطال ، أو على هامش البطولة .

١٤ - وفي حاسة نقدية تعرف كيف تفرز الجيد من الرديء والصحيح من الفاسد .

١٥ - وهي تتمثل في حسن استخراج الشواهد والدلائل والبراهين والأمثلة ، لاسيما من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والسنة الكريمة ، وأعمال الصحابة ، وتوجهات أهل العلم والثقة ، ومن بطون الكتب ، وصور التاريخ .

١٦ - أو تكون في براعة التوصل الى اللغة التي تكون أكثر صدقا في تصوير ما كان وما يكون وأصديق تعبيراً عن الصور القائمة ، والمشاهد التي تجري أمام الناس ، حتى وإن اختلفت عما يكون قد عهده قراء ذلك الزمان ، بل أن في هذا الاختلاف نفسه ما يؤكد حاسته ، وما يدعم تفوقه مادامت لغة صحيحة بغير خطأ أو لحن ، وبغير إسفاف أو تعال على القراء . . . وحيث يتعدى المحرر أو الكاتب بهذه اللغة ، حدود عالمه ، وأبعاد حاضره ، ويقفز فوق جوانب محدودية القراء .

١٧ - بل أن هذه الحاسة قد تتجلى في حسن صياغة وحدة فنية واحدة أو أكثر من الوحدات التي يتكون منها العمل الفني كله ، أو النص التصريحي كله - الصحفي هنا - فقد تكون في جمال وبنقة وواقعية وجاذبية العنوان ، أو في براعة الاستهلال ، أو في حسن التقسيم أو في مؤثر ومؤكد ومقرر النهاية أو الخاتمة .

١٨ - تماما كما تكون في حسن اختيار الكلمات الصادقة والمعبرة والدالة ، وبراعة نسجها وتحويلها الى جمل معبرة شكلا ومضمونا ، ثم فقرات متماسكة ، تعكس ما يريد الكاتب التعبير عنه من أفكار ، وتشابك ، وتآلف وتتوحد مع غيرها لتكون هذا النص كله . . .

٠٠ أي أنها في النهاية وتقريبا تتمثل في :

« حاسة التعرف على الأخبار والأفكار والموضوعات الجديدة ذات الصلة بجوانب الأهمية المختلفة ، ومواقع استقطاب الأنظار ، ومواطن الجمال والجاذبية ونواحي المجتمع والثقافة والفكر والعلم والدين والسياسة ورصد هذه كلها والتعبير عنها تعبيراً مفيداً وواقعياً يقدمها ويبرزها ويحللها ويصل الى سبر أغوارها ، أو عرض أكثر من رأي أو موقف أو نتيجة بشأنها في

أطار فنى معين بحيث تؤدي جميعها عدة أهداف حالية ومستمرة يفيد منها العام والخاص ، القارئ الحالى ، والباحث والمؤرخ ، •

أو فى تلك الظواهر المتصلة بالحاسة التى ترى وحدها وترصد وتعبر عن هذه كلها ••

إننا هنا - فى واقع الأمر - لا نملك إلا الاعتراف بشيئين ، أو التوقف عند ملاحظتين هامتين :

● أما الملاحظة الأولى : وهى الأقل أهمية هنا على الرغم من جدارتها بالتوقف عندها ، فهى أن هذه الرؤية لما تعبر عنه هذه الحاسة وارتباطها بالنشاط الجاحظى أبداً وصحافة ، تكاد تقترب كثيراً ، بل تتداخل وتتشابك أيضاً ، مع تعريف لا نستطيع هنا التفاضى عنه ، أو تجاهله ، فى هذا المجال بالذات ، وهو تعريف التحرير الصحفى ، ذلك الذى يقول أنه :

« طريقة الكتابة الفنية ، التى تتيح للمحرر الصحفى ، استناداً الى فكر متميز ، ومن خلال قيامه بمسئوليات وظيفته ، تسجيل الأحداث المهمة الحالية والمتجددة ، ونقل الوقائع والتفصيلات والصور والمشاهد المرتبطة بها ، والتعريف بما أسفر عنه البحث وراء عللها وأسبابها الظاهرة والخفية ، وتقديم المعلومات والبيانات المفيدة ، وثبت ظواهر الأنشطة والمشكلات المختلفة والمؤثرة ، وعرض وتفسير ومناقشة الأقوال والتصريحات والأفكار والآراء والاتجاهات والمواقف والقضايا والحلول ذات الجدارة والنفع وتناول ما يستحق من تطوراتها ونتائجها المتتالية ، انطلاقاً من صالح الفرد والمجتمع والانسانية ووسيلة النشر ، والتعبير عن ذلك كله ، تعبيراً دقيقاً وموضوعياً فى أغلب الأحوال فى عبارات قصيرة ومتناسكة • وبواسطة لغة صحيحة سهلة واضحة وجذابة ، فى شكل عمل فنى صحفى ، يمثل رسالة اعلامية موجهة الى القراء ، تكون صالحة للطبع والنشر والتوزيع فى الوقت المناسب ، على صفحة أو صفحات جريدة أو مجلة ، (١) •

وبصرف النظر عن استخدام المصطلحات الاعلامية لا الانبئية ، ومما يتصل بها من أطر وأهداف وكذا ، بصرف النظر عن طبيعة الفترتين وهى ضوء هذه الرؤية الجديدة لأدب الجاحظ ، فإننا نقول أن هذا التعريف نفسه

المداخل مع تعريف هذه الحاسة الصحفية ، يصدق كثيرا على عدة الموان  
من كتابات الرجل ، فهي أدبية صحفية ، أو صحفية أدبية ، معا ..  
ثم ماذا ؟

● **وإما الملاحظة الثانية :** وهي الأكثر أهمية هنا ، فهي تلك التي  
تقول ، بأن أكثر صور هذه الحاسة ، ما ذكرنا منها خلال النقاط السابقة ،  
وما لم نذكر ، جميعها لا يمكن لتابع مخلص وندقيق لكتابات الجاحظ ، وعلى  
اختلاف أنواعها ، بل ولانعكاس تأثيراتها في حياته وشخصه .. إلا أن  
يعترف بوجود ما يقترب من بعضها اقترابا شديدا حيننا ، وأقل شدة في حين  
آخر ، بل وما يكاد ينطبق على بعض هذه الصور تمام الانطباق - وكما يقول  
علماء الرياضيات - لتتجلى في صورة منها أو أخرى هذه الحاسة نفسها  
ونجد أثرها واضحا جليا في هذه الكتابات الجاحظية ، مما يؤكد وجودها ،  
هي والحاسة الأدبية معا ، في صدر هذا الرجل .

إننا ، خلال السطور القادمة ، سوف نتناول هذه الصور ، وأثارها  
ودلالاتها في بعض كتابات الجاحظ ، ولكن من خلال مستويين من مستويات  
التناول ، إذ من غير المعقول تتبعها كلها في هذه الكتابات جميعها على مستوى  
واحد ، أو من خلال طريقة واحدة ..

أو - في أسلوب آخر - فإننا سنلقى على بعضها نظرة سريعة ، ومن  
عل ، تساعدنا - وهي نظرة طائر محلق - على المرور بها مرا سريعا ..  
وإما بعضها الآخر فإننا سنقترب منه اقترابا شديدا ، إلى حد التوقف عنده  
تماما ، ومحاولة سبر غوره ، من زاوية هذه الحاسة نفسها :

## **أولا : إشارات ودلالات سريعة**

نعم .. عند إعادة استعراضنا لهذه الصور السابقة ، من تلك التي  
تؤيد أو تؤكد وجود الحاسة الصحفية ، عند أحدهم ، وهو هنا « الجاحظ »  
ومن خلال النظرة السريعة لوجدنا وعلى سبيل المثال لا الحصر :

١ - فالمتتبع لكتاباته ، خاصة الاخبارية منها ، والتي تعكس جهده في



سبيل الحصول عليها ، وبالأذات ، عندما يكون من العاملين في حقل الأخبار الصحفية ، يدهشه حقا عندما يلمح - بخبرته أن الرجل قد توصل الى بعض مبادئ وأسس وقواعد « العملية الاخبارية » ، وإذا كنا قد أشرنا عند حديثنا عن « الحاسة الاخبارية » الى بعض هذه المبادئ والأسس ، فإننا نضيف اليها هنا جوانب « توقع » الحصول على مادة اخبارية ، وحديثه هو عن انتقاله أو ارتحاله طلبا لها ، أو كرد فعل لهذا التوقع في اماكن وجودها ومع صناعتها وابطالها في المواقع المختلفة .

٢ - ثم في السعي وراء ثلاثة جوانب أساسية تعكس بعض صور هذه الموهبة نفسها ، وتلك الجوانب هي :

( ١ ) جانب انتقام أو اصطفاء ما يصلح منها للنشر على قرائه ( ليس كل مادة اخبارية تصلح للنشر في زمانه وظروفه وإن صلح بعضها للنشر في زماننا وظروفنا ) .

( ب ) جانب العناية بما وراء المادة الاخبارية المتقاة أو المصطفاة ، وعدم التوقف عند حدودها الاخبارية ، أو ما نطلق عليه اليوم الاهتمام « بما وراء الأخبار » ومن هنا كانت صورته القلمية ومادته التي اقتربت في أحيان كثيرة من الموضوعات والتقارير والتحقيقات الصحفية ، فضلا عن الدراسات والمقالات المعنى بها .

( ج ) جانب استكمال هذه المادة أو تلك بما يضيف اليها الجديد من معلومات وتجارب وكتابات الآخرين .

وإن شاء أن يرى أو يقرأ مصداق ذلك كله ، فإن عليه بصفحات أو سطور فقط من أمثال هذه الكتب والرسائل والكتابات كلها : « الزبدي - الرافضة - الصرحاء والهجاء - الجن والانس - التاج في أخبار الملوك - النصراني واليهود ... الخ » .

٣ - وأما عن حاسة « بعث الروح في الصور والمشاهد والموضوعات القديمة التي كتب فيها من سبقه » ، وتناولها بما يعكس هذه الموهبة نفسها ، فقد بدأ في كتابات عديدة للرجل ، يستطيع القارئ أن يتتبعها في أمثال هذه

المؤلفات والرسائل ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر بالاضافة الى بعض ما ذكر منها سابقا : « الأصنام - الهاشميات - خلق القرآن - الحجة في تثبيت النبوة - الحنين الى الأوطان - الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير ... » وغيرها .

٤ - ومن هذه أيضا ، ومما يعكس حسنه الأدبي والصحفي معا ، هذه الصور بالغة الدقة ، صادقة التعبير ، واقعية النقل ، التي قدمها لعدد كبير من الأشخاص الذين عرفهم المجتمع العباسي عامة ، والبغدادى والبصرى خاصة ، أو من هؤلاء الذين طفروا على سطحه ، أو اشتهروا به ، وقد تناولها الرجل وكما نقول ، ليس تناولا أدبيا فقط ، وإنما اختلطت في سطورها مظاهر المداول الأدبي والصحفي معا ، لاسيما ما يتصل بجوانب المقال الصحفي ، والنقدي والفكاهي ، بل اقترب في بعضها اقترابا شديدا من « تقارير الشخصية » ، فضلا عن جوانب الصورة القلمية الأدبية .. وأدب الرجل زاهر بهذه المعالم الصحفية لاسيما في هذه المقالات والرسائل والتصنيفات كلها :

« البخلاء - الصرحاء والهجناء - الترييع والتنوير - في الوكلاء - المؤلف المسود - الجاحظ والمجوسى - القاضى والذباب - كتاباته عن العلماء »

ونكتفى بهذا القدر من تلك الاشارات والدلالات السريعة ، التي القينا خلالها نظرة الطائر على آثار هذه الحامسة عنده ، وننتقل الى جوانب أخرى ، مؤكدة لهذه الدعوى نفسها ، وبأسلوب « المتابعة البطيئة » هذه المرة ..

## ثانيا :

### شواهد صحفية مختلفة

.. ونتوقف أخيرا عند عدد ثان من هذه الشواهد على قيام الحامسة الصحفية ، في صدر هذا الرجل النابغة ، والذي قلنا انه مكون من عدة رجال لعل أبرزها خلال هذا الحديث ، وبعد الجاحظ الأديب ، الجاحظ الصحفي ، وغيرهما أيضا مما سنشير اليه بعد قليل ..

وكما قلنا ، فأننا سنتوقف عند كل نقطة من هذه النقاط ، أكثر مما

توقفنا عند النقاط السابقة ، ومن هنا ، فلن نتناول جميع ما تركنا ، وإنما بعضه فقط ، وقد نضيف إليه جديدا مؤيدا ، معبرا بالأسلوب نفسه عن صحة ذلك الذى ندعو اليه ، وفى هذا نقول :

## ( ١ ) الأفكار الصحفية الجديدة

للصحفى الموهوب دلالات وإمارات ، وفى حياته وقراءاته ومتابعاته أكثر من شاهد على ذلك ، ولكن أبرزها خاصة فى مجالات ما وراء المادة الاختيارية ، من موضوعات وقصص وتقارير وتحقيقات ودراسات ومقالات صحفية بأنواعها ٠٠ أبرزها هنا هو ذلك القدر الذى يتمتع به من الحس الصحفى من زاوية العثور على الأفكار الجديدة ، غير المعروفة أو غير المطروقة ، أو التى تمر على غيره دون ادراك لجوانب أهميتها وفائدتها وجاذبيتها ٠٠ لكنه بحسه ، وما يتمتع به من موهبة ، يضع يده عليها ، ويقتنصها ، ويتوقف فكره العامل بجذع عندها ، وحتى اذا كانت من تلك الأفكار القسيمة ، التى سبق طرقها وتناولها على الصفحات ، فإن له من هذا الحس ما يدرك به كيف ينفذ الى زاوية جديدة فى هذه الفكرة القديمة ، لم ينفذ اليها أو يتناولها الآخرون ؟ أو كيف ينقض عنها الغبار ويقدم فى شكل وإطار وتناول جديد يكون الفارق كبيرا بينه وبين تناول السابقين بتناولها ؟ وهكذا .

وإذا كنا قد أشرنا مجرد إشارة سريعة - الى مثل ذلك وفى كلمات قليلة جدا أيضا ، عند حديثنا عن معالم « الأنسب الصحفى » (٢) ، فإنا نتساءل هنا : هل أسفرت الموهبة الجاحظية ، عن مثل هذه الأفكار الجديدة ؟ هل وضع الرجل يده عليها ، بما لم يحدث من قبل عند غيره تماما ؟ أو بما لم يحدث بمثل أسلوبه ؟ وهل نجح الرجل فى تصيد بعضها ، وفى إزالة الغبار والصبا عن بعضها الآخر ؟ وفى تقديم البعض الثالث فى صورة جديدة كل الجدة ، أو من زاوية جديدة أو أكثر من زاوية جديدة ؟

قبل الاجابة عن ذلك كله وتقديم الشواهد والأمثلة على قيامه من عدمه؟ وأيضا ، قبل أن نقدم أقوال الذين عايشوه عن قرب ، مما يتصل بهذه الأفكار ٠٠ فإنا نقربها الى الأذهان ، عن طريق نقل مسطور قليلة توضح ماهيتها ٠٠ وتلقى بعض الأضواء عليها ، ان هذه الأفكار التى نقصدها بالدرجة الأولى هى :

— « الموضوع الجديد الذى يطرقه الاعلامى — الصحفى هنا — أو المادة أو البذرة أو الخميرة أو العنصر الاساسى الذى يقيم عليه جميع العناصر الأخرى ، تلك التى يقيم عليها بناءه الاعلامى — الصحفى هنا أيضا — ويشد إليها أركان عمله ، وتمثل هى جوهر هذا العمل ولبه وصميمه الذى تمتد منه خيوط نسيجه وتتشابك ويطول بعضها ويقصر البعض الآخر ولكنها — جميعها — تؤدى فى النهاية الى اقامة هذا الثوب الاعلامى ، أو البناء الاتصالى الذى قد يكون موضوعا أو تقريراً أو تحقيقاً أو تحليلاً أو تعليقاً اعلامياً عاماً ٠٠٠ الخ » (٢) .

— « جميع هذه الأعمال وغيرها ، وغيرها تولد أولا كبذرة ، كفكرة فى نفوس وصنور وعقول اصحابها ثم تتحول الى عمل يقرأ أو يسمع أو يشاهد » (٤) .

— « الحصول على الأفكار هو مسألة تعود الى الاعلامى نفسه بالدرجة الأولى » (٥) .

— « انها هذه الفكرة التى يمكن أن يتصيداها المحرر أو رئيس القسم أو رئيس التحرير الموهوب اللامح من بين ما يصله ومن حصيلة ما يتجمع لديه كل يوم من اكاداس الاخبار والموضوعات » (٦) .

٠٠ نقول أن الرجل ، بموهبته المنقطعة النظير ، بكل ما توافر له من خصائص الحاستين الأدبية والصحفية معا ، وبكل ما توافر له أيضا من عين بصيرة نافذة ، ونظرة لماحة وانخراط فى صفوف الطبقات المختلفة ، على القوم ، وأواسطهم وعامة الناس ، وحتى « زعر الحارات الجوانية » كما كان يقول مؤرخنا « الجبرتي » . وقبل ذلك كله ، باستقراء ما يصلح من الصور والمشاهد لكى يتوقف عنده ، ويقول : وجنتها ، وجنتها ثم يسرع بالقبض عليها حتى لا تطير أو تنوى ، أو تتبخر أو تكون كعرائش الأحلام بكل ذلك ، وبأكثر من كل ذلك ، نستطيع أن نقول أن حاسة الرجل الأدبية والصحفية معا كانت موجودة ، بكل ما فى الوجود من معنى الحيوية والتدفق والانطلاق ، وانها أسفرت عن العديد ، عشرات ومئات من الأفكار الجديدة ، أو الغريبة على مجتمعه أو التى لم يتوقف عندها غيره ، أو لم يفلح فى تصيدها سواء ،

وكانت لذلك عدة امارات ودلالات من الفكر الجاحظى نفسه ، ومن خلال السطور الجاحظية ذاتها ٠٠

لكن هذه الأقوال لا تكفى وحدها ، وإنما لتبحث معا عن الدليل ، وما يشير الى صحة ذلك ، خلال هذا التراث الأنبيى الصحفى معا ٠٠

لقد اختلط الجاحظ بجميع الفئات الموجودة فى عصره ، وزار أكثر الأماكن والمواقع اهمة ، وقرأ أكثر الكتب المعروفة فى زمنه ، أنبية وعلمية ، عربية ومترجمة ٠٠ وسمع وأخذ عن أكثر الرواة ، وأرسل طلبا للبحث والمعرفة والسماع وقد أسفر ذلك كله عن عدد كبير جدا من الأفكار الجديدة ، الأنبية والصحفية معا أو تلك التى يستطيع الأنبيى أن يعتبرها أنبا ، ويمكن أن نعتبرها صحافة ، أو ذات صلة كبيرة بالصحافة ، والفنون الصحفية ٠٠ وكان من بين هذه كلها على سبيل المثال لا الحصر ومما لم يعرف تقريبا قبل تناوله له ، ولم يلتفت اليه كثرة من كتاب عصره :

١ — فكرته بإفراذ كتاب خاص غير مسبق على المستويين العربى وغير العربى ، يتناول كله ، من الخلافة الى الخلافة « البخلاء » وصورهم وأبرزهم ، وأعجب حكاياتهم ونوايرهم وطرائقهم ، بحيث يمكن أن يمثل هذا الكتاب سلسلة موضوعات اخبارية كثيرة جدا عن هؤلاء القوم ، بل يرقع بعضها الى مستوى التقارير والتحقيقات المركزة ، فإذا كان ينقصها عنصر : « الصورة الصحفية » فيكفى أنه صورها بقلمه أبدع تصوير ، وقدم لها الصور القلمية المختلفة ، التى لا تقل عن الصور الملتقطة بالكاميرا ، فى بعض الأحيان ٠

٢ — وبالمثل ، كانت هناك بعض الأفكار الجديدة تماما على « جمهور » هذه الفترات ، من قراء وكاتبين معا ، وهى هنا اقرب ما تكون الى أفكار التقارير والتحقيقات والدراسات الصحفية رفيعة المستوى ، من تلك التى يمكن ان تنشرها المجلات اليوم ، وكذا الصحافة الأسبوعية ، مع اختلاف فى الأسماء والمواقع والظروف وطرق ووسائل النشر ، وكان من بين هذه على سبيل المثال لا الحصر الأفكار الآتية كلها ، والتى تناولتها كتابات الرجل :

« حيل اللصوص — حيل لصووس الليل — حيل لصووس النهار — الغش والغشاشون — زنوج البصرة وعاداتهم وتقاليدهم — نخيل البصرة — أساطير

الصيادين ورجال البحر — الجواهر والأحجار الكريمة وما يتصل بالمعاملين  
بتصنيعها والتجارة فيها — حياة البدو وحياة الحضر — عادات الأمم والشعوب  
التي دخلت الإسلام — نواذر القصور وحكاياتها الغريبة — أصحاب الألهام —  
الجواري وأصولهن ومراتبهن وعاداتهن — العبيد — الأحلام والرؤى — الجن  
والعفاريت واتصالهم ببعض البشر — سرقات الكتاب والشعراء — الحب عند  
العرب وغيرهم — قصص وأخبار الملوك السابقين — الهدايا وقصصها وتاريخها  
 وأنواعها — النرد والشطرنج » ..

ويضيق بنا المقام ، لو حاولنا عمل احصاء لأمثال هذه الأفكار الجديدة  
فى معظمها ، الأدبية والصحفية معا .

٣ — وحتى بالنسبة لكتابه : « الحيوان » فصحيح ان كثيرين من عرب  
وأجانب ، قد سبقوه الى ذلك ، ويمثل هذه الشمولية نفسها ، وقد قرأ هو وأخذ  
عن « أبى عبيدة » صاحب المؤلفات فى الحيوان والطير ، وكذا عن « الأصمعى »  
الذى تناول بعض هذه الموضوعات وغيرها ، كما قرأ ما كتبه « أرسطر » عن  
الحيوان أيضا .. قرأ الجاحظ هذه كلها ، وأفاد منها لكنه كان كالمصدر  
الصحفى الماهر ، الذى يذلف الى مركز معلومات الصحيفة ليرى هل تناول  
أحد قبله فكرته ؟ وكيف تناولها ، حتى يختلف عنهم ، وهو فى ذلك يجد عند  
موهبتة ما يعينه على الاختلاف .. ومن هنا ، وعلى الرغم من سبق هؤلاء  
وغيرهم بالتأليف أو الكتابة فى موضوعات الحيوان الا ان رجلا :

— قام بتصيد أفكار جديدة لموضوعات عن الحيوان لم تعرفها كتب  
هؤلاء .

— تعمق الأفكار القديمة المطروقة ، وتناولها من زاوية جديدة .  
— وأحيانا من أكثر من زاوية جديدة .

— قام بـ « توليد » عدد من الأفكار الأخرى ، البعيدة تماما عن  
أفكار غيره فى نفس المجال والتخصص .

— قام بعمل جسر اتصال بين هذه الأفكار وما يجذب جماهير أكثر  
من القراء .

— وضعها فى إطار جديد ، وتناولها بأسلوب جديد ..

وهكذا وجدنا فى النهاية ، أن كتابات السابقين عليه وكذا كتابات معاصريه فى موضوع الحيوان ، تقترب أكثر من كتابات العلماء ، ويكون لها مثل خصائصها ، بينما نجد أن كتاباته تقترب أكثر من كتابات « المحرر المتخصص » فى موضوع علم الحيوان ، عندما يكتب لصحيفة أو لمجلة عامة ، أو ذات اتجاه خاص ، وليست متخصصة تماما ، كان غيره يقترب من اللون العلمى ، قدر اقتراب الجاحظ من اللون الصحفى .

٤ - وأما عن التناول العكسى للأفكار والموضوعات القائمة ، وما يتصل بجوانب المناظرات وهى ذات صلة نسب وثيقة بأبرز أنواع المقالات النقدية والنزالية فقد استغرقت جانبا هاما من كتابات الرجل ، ودلت على تمتعه وإلى درجة قل أن تتوافر عند كثير من الكتاب بهذه الزاوية من زوايا الحس الصحفى المقالى ، بل أن تناول الرجل لهذه الموضوعات كان مشريا بطابعه الخاص الفريد أحيانا ، لاسيما وهو هو الذى يكتب عن الشيء ، ثم يعود فيكتب عن ضده ، بأسهاب وفهم كبيرين يدلان على ثقافته وشموليته وقوة حجته ، بل كثيرا ما كان يجمع بين الضدين ويؤيد ويعارض هذه من زاوية ، وتلك من زاوية أخرى ، فى نفس حدود واطار المقال الواحد أيضا .

ولن يجهدنا البحث عن هذا الجانب الهام من جوانب « الحس الصحفى المقالى النقدى » عنده ، فهو منتشر فى كتابات كثيرة ، من بينها على سبيل المثال لا الحصر هذه كلها : « مفاخرة السودان والحرمان - الرجال والنساء - الذكور والإناث - الجن والانس - الملائكة والجن - الرد على الجهمية - المحاسن والأضداد - فى تفضيل النطق على الصمت - فى الحاسد والمحسود - سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف - العثمانية - فخر السودان على البيضان ٠٠٠ الخ » كما انتشرت فى بخلائه ، وغيرها من الكتب .

٥ - وأما عن « تصيد » الفكرة الخارجية ، أو الاجنبية المترجمة أو المنقولة والتصرف الايجابى معها ، بما يعكس جانبا آخر من جوانب هذه الحاسة الصحفية نفسها فقد ظهرت واضحة عند الرجل فى مواقف كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مساهمته فى نقل بعض أفكار الفلاسفة اليونان ، لا سيما هؤلاء الذين عرفوا باسم : السوفسطائيين ، ولا يعنى ذلك

انه كان مترجما لها ، وانما « منيعا » لثيلات هذا الافكار « ناشرا » لها في كتاباته الجدلية وتلك التحليلية والنزالية ، وقد لاحظ كثير من المتابعين ذلك ، لكنهم - كالعادة - تناولوا مظاهرها على انها لغوية ادبية فقط ، وكان من بينهم على سبيل المثال « طه الحاجري » الذي « لاحظ آثار الصنفسطة في أسلوب الجاحظ البياني » (٧) ٠٠ لكننا نراها أدبية لغوية صحفية مقالية معا ، تماما كما هي « فلسفية » الطابع ، كما نشير من بينها أيضا الى نقل بعض الافكار الأخرى عن أرسطو ، وغيره ، حتى في كتابه « الحيوان » نقل عن بعض هؤلاء ٠٠

لكن الملاحظ هنا - وهو ما يقترب بنا من معالم حاسته الصحفية أيضا - انه لم يكن ينقل الفكرة المترجمة ، ويذيعها فقط ، وانما ، وعلى عادة كبار الكاتبيين والمحريين المبتكرين :

— يتخذ منها ركيزة الى افكار عربية مماثلة ( ما هنا ، وما هناك )  
— يتعمقها ويخرج منها بأكثر من فكرة جديدة مختلفة ( توالد الأفكار )

— ينظر في عكس هذه الفكرة ( الشيء وضده )  
— يتناولها تناولاً شمولياً غير مسبوق ، يسبر غورها ويقتلها بحثاً ، الى غير ذلك كله ، فهو ناقل ماهر ، ومنشئ مبتكر ، ومفكر مبدع ٠٠ وكل ذلك ظهرت آثاره واضحة جليلة على مقالاته ٠٠

قبل ان نترك هذا الجانب الابداعي الأدبي والصحفي معا ، او « الأدبي الصحفي » أيضا ، جانب الأفكار المبدعة الجديدة أو الجديدة ، التي لم يطرقها قبله كثيرون لغرابيتها أو لعدم قدرتهم على تصيدها ، أو استشعارهم لجوانب أهميتها ٠٠ نقوم بالتوقف عند عدد من الأقوال التي تشير الى ذلك ، ولو كانت من وجهة النظر الأدبية فقط ، بعد ان وضحت معالم ما ندعو اليه من قيام الجاحظ ، الأديب والصحفي معا .

● ان باحثا كبيرا واستاذاً للادب يقول : « وهو أول من شف له الحجاب فرأى في مخالفات العامة وعاداتهم وفي تقاليدهم ومعاملاتهم وفي أحاديثهم وأسمارهم فنا يستروح الخاصة به ويرى العلوية فيه جماعاً من كدهم في جدهم » (٨) ٠٠



● ويضيف قائلا : « وهو أول من وضع الكتب والرسائل في المعاني والأغراض الغربية عن متناول أفكار الكتاب كقوله في طبائع البخل وفي حيل اللصوص وفي أحوال المكين وفي أصحاب العاهات الخلقية كالحول والعمور والعرجان والبرصسان وكذلك نوى العاهات الخلقية كالسكيرين والزناة والطفيليين والقحاب وقتيان السوء » (٩) .

● ويقول دارس آخر : « يتوخى التصنيف في الموضوعات الشبيهة اللنيذة أو التي لم يسبق إليها كاتب ، أو الأمور الحقيمة التي لا يخطر على البال أن يؤلف فيها كلام » (١٠) .

## ( ٢ ) حول الأخبار الجاحظية

اقتربنا خلال صفحات سابقة ، من موضوع الأخبار الجاحظية من زاويتين (١١) أولاهما زاوية نوعية مصانره العامة - وليست الاخبارية وحدها - وثانيتها زاوية بعض جوانب الحس الاخباري عند الرجل . . . ويضيف هنا بعضا مما يتصل بهذه الأخبار الجاحظية ككل ، ويعدد من الزوايا ذات الصلة الوثيقة بها على وجه الخصوص ، من تلك التي توقفنا عند عدد من جوانبها الأخرى ، أو لم نتوقف حتى الآن .

### ( ١ ) الأخبار الجاحظية وعصر اليقظة :

في كلمات قليلة جدا المحنا في مجال سابق ، نود أن نقدم الدليل الذي أرجأنا تقديمه حتى هذه السطور ، إلى اهتمام الرجل في مجالات بحثه وجمعه لمادته عامة ، ومن بينها المادة الاخبارية . . . اهتمامه بجانب « صحة المصدر » . . . و « ثبته » . . . ونفسر هنا ذلك الكلام فنقول :

### ● ● عن صحة مصانره الاخبارية وثبتها :

يستطيع القارئ - وليس الباحث وحده - أن يتبين بما لا يدع مجالا للشك حرص « الجاحظ » الكبير على صدق أخباره وثبتها وموضوعيتها ويتجلى ذلك من استقرار هذه المادة الاخبارية الواردة في كتبه المختلفة ، وفي كتاباته

التي تناولت هذا الموضوع تماما كما يدرك ذلك الباحث عند محاولته النفاذ الى شخصية الرجل ، ومتابعة طريقته أو طرقه في جمع المادة ..

— فهو عندما يروي خبرا ، فانما يعود به الى مصدره الحقيقي الذي سمع عنه أو أخذ أو نقل ..

— بل انه احيانا يرجع المادة الاخبارية الواحدة الى اكثر من مصدر واحد ، ولو على سبيل التاكيد ، وكأنه يطلع القارئ على ذلك ، ويلفت نظره اليه ..

— ويتضاعف ذلك ، عندما يحسن الرجل أن ما يرويهِ من الأمور التي قد لا يصنفها البعض بسهولة ، أو في بساطة ، ومن ثم يجد أن عليه واجبا أساسيا ، وهو أشعار القراء ، بأن هذه المادة مصدرها كذا وكيت ..

— فاذا أحس الرجل أن هذه المادة الاخبارية غير دقيقة ، أو تنقصها الحيدة أو الموضوعية نبه الى ذلك وحذر منه ..

— فاذا أحس أنها مادة غير صادقة ، وأن الكذب يلفها ، وأن صاحبها يريد خداع القارئ أو المستمع ، نبه الى ذلك أيضا ، وذكر ما يحمل على شك القراء به ، وكأنه بذلك يريح ضميره من هذا الجانب ..

— وأكثر من ذلك ، أنه كان في روايته الاخبارية ، لا يكتفى بذكر الخبر المجرد دائما ، وانما كان وفي كثير من الأحوال يقدم قصة حصوله على هذه المادة ، وكيف بدأت أحداثها ، الى جانب صناعتها ، ومصادر البشيرة ، مع معلومات قليلة جدا لكنها مفيدة أيضا عنهم ..

— بل انه كثيرا ما يضع الأخبار المتتالية نفسها ومع تتابعها خلال النص نفسه ، في مجال المقارنة من زاوية الصحة أو الصدق ودرجاتهما ، فينبه بذلك الى أن خبرا أكثر صدقا من خبر يسبقه ، وهذا بدوره أكثر صحة أو أقل من خبر يليه ، بل أن هذه المقارنة نفسها قد تمتد وتتصل لتكون بين المصادر المختلفة من بشرية أو مخطوطة ، فيقول أن ذلك المصدر أكثر صدقا من ذلك ، وهكذا ..

— كذلك فإن الرجل لم يكن يهتم كثيره من الاخباريين والروائيين في عهده ، أو ممن سبق هذا العهد ، بجانب الشكل ، وجمال الأسلوب ، وأناقته العبارة قبل غيرها ، وإنما كانت تسبق ذلك عناية بالمادة الاخبارية نفسها والمضمون الاخباري ذاته ، ثم وضعه بعد ذلك في أبسط القوالب اللغوية ، وأكثرها سهولة في التعبير والايضاح ..

— بل انه ليدعشنا حقا ، ويأخذ بلبنا أن يقوم الرجل وأكثر من مرة بحملة كبيرة على الرواة الذين يقومون بتلوين الأخبار ، أو باصطناعها ، أو بعض الفئات — كالباحريين مثلا — الذين يجيدون «فبركتها» ومزجها بالأسطورة ، مما يذكرنا بتلك الأخبار البحرية التي كان يتداولها بحارة الساحل الفينيقي ، وجاءت عندهم ممزجة بالأساطير البحرية الشهيرة .. حمل الجاحظ على هؤلاء حملة شعواء ودعا الى الشك الكامل في مادتهم ، والتأكد التام من صحتها قبل نقلها عنهم ..

#### ● ● من كلماته تأخذ :

ونكتفي بهذا القدر من الإشارة الى جوانب عنايته بدقة اخباره ، ولفت انتطار القراء الى مستوياتها من الصحة .. ونقدم عددا من الأمثلة على ذلك من كتابه « الحيوان » بأجزائه المختلفة ..

● فهو يبدأ بعض مادته الاخبارية مما لا يريد أن يتحمل مسئولية صحتها بقوله :

« وزعم لي ابن أبي العجوز أن الدساس تلد » : الحيوان ج ٦ ص ٢٣

● أو تراه يقول أيضا : « والشائع أن .. » ولا يقول : والصحيح أن لأنه يترك الفارق بين التعبيرين ، ويريد أن ينبه القراء الى ذلك ..

● وفي مجال المقارنة التي أشرنا اليها يقول الرجل : « وليس الخبر عنه مثل الخبر عن الدلقين — وليس الخبر عن الكركدن أيضا مثل الخبر عن » الحيوان ج ٧ ص ١٢٨ ..

● كذلك ، وكليل آخر على أنه لم يكن يأخذ كلام مصادره الاخبارية ( الجاحظ )

على عوامه أو يسلم بجميع ما يقوله المصدر مهما كان نصيبه من الصحة أو التصديق ، فأننا نقرأ له من أمثال قوله :

— فهو عندما يكتشف بعض الخطأ في الرواية يعلق قائلا : « فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحرين ؟ » الحيوان

— وهو عندما يستمع إلى خبر مشكوك في صحته يكتب قائلا : « قلت وما على أن سألته ؟ فإنه يقال أن السائل لا يعدمه أن يسمع في الجواب حجة أو حيلة أو ملجأ » : الحيوان ج ٣ ص ٢٢ ٠٠

— ويقول في موضع آخر : « وزعم لي يختشيع بن جبريل أنه عاين الخرق الذي في ابرة العقرب وإن كلن صادقا كما قال فما في الأرض أحد أبصر منه وأنه أبعد وما هو بمستكر » : الحيوان ج ٥ ص ٢٥٧ ٠٠

— ويقول في موضع ثالث : « وقد زعم البحريني أنهم يعرفون طائرا لم يسقط قط ٠٠٠ الخ » : الحيوان ج ٢ ص ٢٢٤ ٠٠

● . بل أن الرجل نفسه قد كتب كثيرا عن هذه المجالات ، مؤكدا ، أو منبها أو محذرا ، خاصة في مقدمات كتاباته ، أو فواتحها ، اقرأ له علي سبيل المثال لا الحصر قوله :

— « وأما قرن الكركدن فقد خبرني من رآه ممن أثق بعقله وأمسكن إلى خبره » الحيوان ج ٧ ص ١٢٩ .

— « ٠٠ عن ثقات لا أشك في خبرهم ٠٠ » الحيوان ج ٢ ص ٢٢٦  
 — « ٠٠ ولم أكتب هذا لتقريبه — وهكذا يقول — ولكنها رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبني الانتكار له ، ولكن ليكن قلبك إلى انتكاره أميل » : الحيوان ج ٦ ص ٣٤

( ب ) بعض أساليب ثبته بأصابره وأستاد مايقه الخيرية :

كذلك فقد حققت مؤلفاته ورسائله ومقالاته عامة ، ومادته الاخبارية

خاصة ، بكثير من الأساليب التي يثبت بها مصدره ، ويشير بها الى أن هذا الخبر سمعه عن فلان ، أو قرأه لفلان ، أو وصل اليه من فلان ، وما الى ذلك كله وصحيح أن هذه قد تكون من نوع الوسائل «البديئية» من وجهة نظر صحفيي اليوم ، لكن المدقق فيها ، والمتعمق في جوانبها وأنواعها يجد أنها لا تختلف كثيرا عما يفعله المندوبيون الآن في الصحف ووكالات الأنباء والاذاعات، من طرق وأساليب تذكر المصدر ، وعموما ، فقد وضعنا أيدينا على عدد كبير من هذه الأساليب ، وكان من بينها على سبيل المثال لا الحصر :

- « ونبأ بالأخبار عن ... »
- « نبأ بتمام القول في ... »
- « خبرني ... »
- « خبرني ... وخبرني ... وخبرني ... »
- « وروى لي ... »
- « وروى بعضهم لي ... »
- « وسمعت حديثا من شيخ بلأحي الموصول ... »
- « ... ورأيت الحديث يدور بينهم »
- « قال الشيخ الاباضى ... »
- « وكان عندنا ... فقلت له يوما ... فقال ... »
- « وقال لي ... »
- « وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار ... »
- « وحدثني شمشون الطيب قال :
- « وبخلت على فلان فسمعتة يقول :
- « وذكر ... عن ... قال ... »
- « وقال قائل من بني ... »
- « من الاحتجاجات الطيبة ، ومن العلل الملئية ما حدثني به ابن المديني قال :
- « وسئل ... أجاب ... »
- « وسئل ... قال ... »
- « ... وقد علمنا أنه ... »
- « ... وقد علمنا ... »
- « وفلان قال ... وفلان قال ... وفلان قال ... »

- «... أن... وأن... وأن...»  
 — «قال أصحابنا»  
 — «نبتأ بأهل خراسان لاكثر الناس في أهل خراسان...»  
 — «ورأيت أنا...»  
 — هذه ملتقطات من أحاديث أصحابنا وأحاديثنا وما رأينا بعيوننا  
 ( ... الأحاديث هنا بمعنى الأخبار ، ومقردها أحديثه )  
 — «وخبرنا جاره...»  
 — «والأعراب تقول...»  
 — «والعامة تزعم...»  
 الى غير هذه كلها ...

### ( ٣ ) ... وشواهد أخرى

... ونواصل هنا هذه المحاولات لاثبات أن لنا — نحن رجال الصحافة — في هذا الرجل بعض ما لرجل الأدب فيه ، وربما — من خلال عدد من كتاباته — قدر ما لهم فيه أيضا ، ونقدم هنا أكثر من دليل جديد ، على هذا الجانب الصحفي في حياة الرجل ، وفي آثاره ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر:

● أنه في عدد من هذه الكتابات لا سيما تلك التي تميزت بجانب الأخبار وما وراء الأخبار ، كان يجتهد وراء المصدر البشري أو المصادر البشرية ويصنع من ورائها سسيا حثيثا ... ذلك كله بينما كان يتجه في مقالاته الى المصدر أو المصادر المكتوبة ، من كتب لعرب ، أو مترجمة ، ويمكن للقارئ العادي أن يلمس ذلك ، وهو الأقرب الى الطابع الصحفي — طابع البحث الميداني عن المصادر والنقل عنها — من خلال كتب عديدة ، لا سيما تلك التي امتلأت بالمادة الاخبارية من أخبار بحثه ، الى مواد قريبة الشبه بالموضوعات والقصص والتقارير الاخبارية نفسها ، وقد وضع ذلك من رسائله العديدة التي اشرنا اليها ، ومن كتبه العديدة أيضا ...

وإذا كنا قد اشرنا من قبل الى انه وصف البخل كما راهم أو سمع من مصادر البشرية عنهم (١٢) ... فانتا نضيف هنا من اشارته الخاصة الى

مصادره التي جمع من أفواهها بعض جوانب الأهمية الاخبارية في كتابه أو في « سفره » الآخر : الحيوان .. حيث كان يسعى وراء هؤلاء الذين جرت لهم الحوادث مع موضوع كتابه : « .. وريتا بل كثيراً ما ينتقلون بالناب والمخلب واللدغ واللسع والعض والاكل فخرجت بهم الحال الى تعرف حال الجنائي والجارج والقاتل وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول وكيف الطلب والهرب وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء » (١٢) :

● ان ذلك - في واقع الامر لينكرنا بأكثر من شيء لعل من أهمها وكما يحدث عند الصحفيين والباحثين المتميزين ، قبل أن يحدث في مجال الأنثى ، في عهده - على الأقل - .. ومن بينها على سبيل المثال :

— ان سعيه وراء مصادره كان يتجاوز المكان الذي يقيم فيه  
— أنه لم يكن يقنع بأي مصدر كان ، وإذا كان قد هاجم البحرين والترجمين فإنه هنا يرسم صورة طيبة لما ينبغي أن يكون عليه المصدر البشري ذلك الذي يكون عنده :

.. قد ابتلى بالناب والمخلب واللدغ .. الخ أي « صاحب تجربة »  
.. فخرجت بهم الحال الى تعرف حال الجنائي .. الخ أي « صانع ودارس »  
.. لطول الحاجة ولطول وقوع البصر .. الخ أي « صاحب خبرة »  
شخصية مكتسبة وموروثة ايضاً ..

فإذا أضفنا الى ذلك اشتراطه عنصر الصديق ومهاجمته للبحريين وبعض أصحاب الأخبار لتفاضيتهم عن ذلك ، وسريان الأسطورة والأمور المؤلفة وشيوع « الفبركة » عندهم ، وإذا أضفنا هجومه على بعض المترجمين ممن لا يراعون الدقة لوضحت عندنا بعض معالم اختياره لمصادره البشرية ، والشروط التي ينبغي أن تتوافر في هذا المصدر أو ذاك .

● اتنا نضيف هنا - على سبيل المثال ايضاً - بعض هذه المصادر البشرية التي أخذ عنها ، مع تنويهه بمستوى كل منها ، وأين يقف من الزعم والتصديق ، وما هو منزلة كلامه ، ان من بينهم :

« كبار زنوج البصرة - رأس الانباط بها - شيوخ الملاحين - أبو عبيدة

عمر بن المثنى - أصحاب اللهو - محمد بن الأشعث - ثمامة - محمد بن أيوب  
جعفر - شمشون الطيب - ابن الجهم - الشيخ الأباخي - داود بن المعتز -  
هشام بن حسان - بختشوع - أبو هفان - أبو الحسن المدائني ٠٠ الخ  
وغيرهم كثير ٠٠

بل أنه عدد ذات مرة مصادره ، فيعد ذكر القرآن الكريم والحديث الشريف  
والمأثورات والأشعار والأمثلة قال : « ٠٠ أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب ،  
ومن قد أكثر قراءة الكتب أو بعض من مارس الأسفار وركب البحار وسكن  
الصحارى واستمرى بالهضاب ودخل في الغياض ومشى في بطنون  
الأودية » (١٤) ٠٠ يريد من ذلك شهود العيان والتجربة والمتخصصين ، وماذا  
يفعل المحررون ، غير السعي وراء أمثال هؤلاء من المصادر البشرية ٠

● : وإذا كنا قد اعتبرنا في مجالات سابقة ، أن بعض كتابات  
قباء المصريين والأشوريين والفينيقيين وغيرهم هي بمثابة لون من اللون  
للجنود الصحفية ، وإذا كانوا يقولون أنه لو عرفت الشعوب القديمة الصحافة  
بمعناها الحالي لتضاعفت معرفتنا بهم وبحضاراتهم المختلفة ٠٠ وما يمكن أن  
يستتبع ذلك ، من اعتبار بعض الكتابات الصحفية الحالية ، بمثابة تاريخ لهذه  
الأيام ، يعود إليها باحث وقارئ وطالب ومؤرخ الغد ، بشرط الأمانة والدقة  
والمقارنة والحدس ، وإذا كان « هـ ج ويلز » صاحب المؤلفات الأدبية والتاريخية  
الهامة قد صرح قائلاً ، بأنه ليس أكثر من صحفي ومرة أخرى بأنه ليس أكثر  
من صحفي يعشق التاريخ ٠٠ إذا كان ذلك كله قد حدث مما يؤكد الصلة الكبيرة  
بين الصحافة والتاريخ ، وأن بعض كتاباتها - ولا أقول كلها - تصلح لأن تكون  
تاريخاً ٠٠ تماماً كما أنه : « برغم التحفظات التي تحيط بالصحف كمصدر  
للتاريخ ، وهي تحفظات تتعلق بالشائعات في الرواية تبقى حقيقة لا خلاف عليها ،  
وهي أن الصحف تقدم لنا نظرة شاملة للحياة وهذه النظرة ضرورية للمؤرخ  
حتى لكانه عاش العصر الذي يكتب عنه من خلال قراءاته لصفحه ، وهذه النظرة  
الشاملة ، برغم كل ما فيها وما عليها تجعل الصحف مصدراً من مصادر  
التاريخ » (١٥) ٠

أريد أن أقول من خلال هذه المقدمة الطويلة ، أنه وكما يحدث عندما يجيد  
بعض الكاتبين تصوير عصرهم بكل ما فيه ، بجوانب الإيجاب والسلب ، حتى



لتصحيح كتاباتهم تاريخيا له ، هذا الجانب التاريخي الصحفي ، أو التاريخي الذي توافر لبعض الزملاء من الصحفيين حتى اعتبر من خصائص نشاطهم التحريري ، نجده قد توافر أيضا وتعاما عند الجاحظ ، وربما بشكل يصعب أن تجد له مثيلا عند أحد ممن سبقه من كتاب العربية ، ولم يتكرر الا قليلا ، بعد الجاحظ بالنسبة لعصره وصوره ومشاهده وأحداثه وأبطاله ومغامريه ومسائره وعلمائه ومؤلفيه ووزرائه وغيرهم ، وغيرهم .

بل ان هذا الذي فعله الرجل يجعله الي الصحفي المؤرخ ، أقرب منه الى المؤرخ الصحفي ، ذلك لأنه اذا كانت أغلب كتابات الصحفيين الذين قلنا انها ترتفع الي مستوى التاريخ ، أو تقترب منه حتى لتصحيح تاريخا كاملا يعود الياس اليه بعد حين قل أم كثر ، اذا كانت أكثرها تتجه الى الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية في معظم الاحوال - هـ - ج ويلز - مثلا ، فان كتابات الرجل - الجاحظ هنا - لم تكتف بذلك ، ولم تقتصر على هذه الجوانب وحدها ، وانما - وهذا معنى قولنا انها أقرب الى الصحافة التاريخية - كان لتعديدها الكبير ، وتنوعها الذي يجل عن الحصر ، ووصولها الى سطح المجتمع العباسي ، والى قاعه معا ، ونقلها لجميع الصور من أول صور القصور الشامخة وما يدور داخلها ، والى الحارات الضيقة والفقرة ، من مجتمعات الخلفاء والأمراء والوزراء حتى مجتمعات اللصوص وحلقات الجولة والمشعورين ... أي انه بالنسبة لهذا الجانب الصحفي التاريخي نجد لمفاهيمه باعا طويلا ، وقدا راسخا .

● ٠٠٠ هل كان الجاحظ عالما ؟ بالمعنى الذي تتجه اليه هذه الكلمة اليوم ؟ وفي أسلوب آخر : هل ما كتبه الجاحظ عن الحيوان مثلا ، يجعله عالما في هذا التخصص مثل هؤلاء العلماء الذين نراهم في كليات العلوم وفي تخصصات علم الحيوان أو الحشرات أو غيرها ؟

صحيح أن الرجل كان باحثا من الطراز الأول ، ولكن هل كل باحث عالم ؟ وهل كل من يبحث ، يكون للفائدة العلمية المقتنة ، أو المنظمة والمرتبطة بطلاب العلم أو بباحثيه ؟

وصحيح أن الرجل قد يكون أكثر ثقافة في ميدان « علم الحيوان » من بعض علمائه الحاليين ، ولكن هل تكفي هذه الثقافة ليكون صاحبها عالما بالمفهوم

الحالى للكلمة ، أم أن هناك أطر وأساليب ونظريات وتجارب معملية ومادة تصل للمتخصصين أو ينبغي أن تتخذ مسارها اليهم ؟

وصحيح أيضا أن كتاب الحيوان قد يشق جمع مثله - ولا أقول تأليف مثله - على عند كبير من الباحثين فى هذا الميدان ، فهل يعنى ذلك أنه عالم العلماء ، فى هذا الميدان ؟ ٠٠ الحق أننى بعد تفكير ملى ، فى مثل هذه التساؤلات وغيرها ، واستقراء مواد كتبه ، وطرق الحصول على ما جاء بها ، وتوجهاتها وأساليب كتابتها ومواطن العناية الأولى بها ، وما يتصل بذلك كله ، وقد انتهيت الى رأى يقول أن الرجل لم يكن عالما بالحيوان ، ولا كان فى ذهنه أن يكون كذلك ، وإنما كان يقرأ ويبحث ويتتقف وينقل للجميع ما قرأ وما جمع ويطلعهم عليه ، ويغلف ذلك كله بما يحبب القراء الى مادته ، ويضمنها للغريب والعجيب ، فهو جامع نعم ، باحث أيضا لكنه ليس عالما ٠٠ وإن قال كثيرون بذلك وتكرناه أيضا بشكل عمومى ٠٠ وإنما هو هنا أقرب الرجال الى « المحرر العلمى » فى مجال علم الحيوان وكذا المحرر صاحب الاهتمام العلمى ، وليس المحرر المتخصص ، أى أنه ليس متخرجاً فى كلية العلوم ، ولا يحمل درجات عالية فى هذا التخصص ، ولا يكتب أيضا كتباً علمية كاملة ودقيقة ، ولا يحرر أيضا لمجلات علمية متخصصة تماماً ، وذات تخصص دقيق تماماً ، وإنما هو محرر مهتم بتحرير الجانب العلمى فى :

#### ١ - مجلات تخصص عام

#### ٢ - مجلات عامة ٠٠

أى أن كتاباته وتوجهاته هى لعامة القراء ، وإن كانت ذات موضوع غالب هنا هو : « الحيوان » ٠٠ وهى فى ذلك أشبه أيضا ببرامج « عالم الحيوان » فى الإذاعة والتلفزيون بل من الذى يستطيع أن يقول أنها ذات موضوع واحد ، وكتاب الحيوان نفسه - أن غلب عليه هذا الطابع - إلا أن به الكثير من جوانب الأدب واللغة والتاريخ وغيرها ٠٠ ؟

وبالمثل ، هذه الكتب الأخرى المماثلة ، من لادن « البخل » و « البيان والتبيين » وغيرهما ٠٠ لكنها « العبقريّة الجاهلية » المتعددة الجوانب ومجالات الاهتمام ٠٠

وهكذا نجد أنفسنا أمام جانب صحفي جاحظ آخر ، هو جانب الجاحظ  
المحرر العلمى ، ٠٠ محرر الاختصاص العام فى مجالات عديدة : أبرزها  
الحيوان ٠٠

● وقد يؤكد ذلك - أولا - ما قلناه من أن هذا الكتاب كان من الممكن  
قسمته ، على أكثر من عدد واحد من مجلة ذات تخصص عام فى مجال  
الحيوانات ، مثل هذه المجالات العديدة التى نراها مهتمة بنفس الموضوعات ،  
وتطرح للبيع على قارعة الطريق ، وفى الأكشاك ، وليس للمتخصصين وحدهم .

● وقد يؤكد ذلك - ثانيا - عدد من الأقوال المتصلة بهذا الكتاب نفسه  
عن قرب تماما كاتصالها بصاحبه الصحفى المحرر العلمى المتخصص ، الأريب  
معا ، ومبجحان الله الذى يجمع كل هؤلاء فى رجل واحد ، لكنه الرجل الصحفى ،  
أو - كما كانوا يقولون عن الصحفى - الرجل المكون من عدة رجال ٠٠ إذن هذه  
الأقوال من مثل :

— ما يقوله الرجل نفسه فى مقدمة كتابه من طابعه فى كتابته ، بما  
ينفى أنه قصد أن يكون عن الحيوان فقط أو للخامية وحدهم :

« وهذا كتاب يستوى فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم ، أى  
أنه لجميع الناس ، ومن جميع الأجناس أيضا ٠٠ »

« فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة  
وأشرك من علم الكتاب والسنة ٠٠ ويشتهي الفتيان كما تشتهي الشيوخ  
ويشتهي القاتك كما يشتهي الناسك ويشتهي اللاعب ذو اللهن كما يشتهي الجدد  
ذو الحزم ويشتهي الأريب ويشتهي الغيبى كما يشتهي الفطن » (١٦) ٠٠

أى أنه أيضا كتاب لعامة الناس ، فضلا عن تنوع مادته ٠٠ ومن هنا كان  
قولنا باقترابه من مجالات التخصص العام ٠٠

— بل ٠٠ وأكثر من ذلك كله ، ومما يؤكد هذا المعنى الأخير نفسه ،  
معنى اقترابه من أعداد لمجلات تخصص عام فى علم الحيوان ، ومن العجيب  
أيضا ، أن يكون الرجل نفسه - الجاحظ - قد قام بتقسيم كتابه هذا الى أجزاء

أطلق عليها اسم « المصاحف » ٠٠ من الصحف هنا ، وهى ليست بمعنى المصحف الشريف كتاب الله ، وإنما مجموعة الصحف أو الصفحات ٠٠ اقرأ فى تلك قوله :

« كان العادة فى كتب الحيوان أن أجعل فى كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار ٠٠ ويضيف محقق الكتاب قائلا :

« كان يسمى كل جزء من أجزاء الحيوان مصحفا ، وهى النسخة الشنقيطية من الحيوان نجد مكتوبا فى نهاية كل جزء : تم المصحف ٠٠ من كتاب الحيوان ، ويليه المصحف ٠٠ » (١٧)

● وقبل أن تنتقل الى مناقشة مسألة أخرى ، من تلك المسائل التى نقيم بها هذا الرأى فى كتابات الجاحظ ، نقوم بالقاء نظرة ملأثر سريعة أخرى ، على عدد من مجالات نشاطه وكتابات وشخصيته - معا - نرى فيها ، من منطلق صحفى ، اقتربا من هذا الجانب الذى ندعو الى ملاحظته وتبنياته ، بل ودراسته أيضا . جانب الجاحظ الصحفى والأديب معا ٠٠ اننا نجد أن الرجل :

— كان من أوائل الذين استخدموا « وراقا » خاصا يكتب ما يمليه عليه ، ويقوم بنسخ عدة صـور مما يكتب ، مما ينكرنا بهؤلاء العبيد من الناسخين الذين كان يستخدمهم « باعة الأخبار » فى الموائى الأوربية عامة والإيطالية خاصة ، ثم استخدمهم أصحاب الصحف المخطوطة . وإذا كان محقق كتاب -٠٠ عبد السلام هارون - يقول فى هامش كتابه : ( ما كان أجدر بهذه الكلمة أن تستعمل فى معنى السكرتير التى حيرت اللغويين ) يريد كلمة «الوراق» ٠٠٠ فأننى أرى أن وراق الجاحظ لم يكن يقترب من السكرتير فقط وإنما من الكاتب والناسخ الذى تطور بعد ذلك الى جامع الحروف ٠٠ وهكذا ، عموما فقد كان هذا الوراق واسمه « زكريا بن يحيى » ٠٠ ينسخ من الرسالة الواحدة ، أو « المصحف » الواحد عشرات يبعث بها الى من يريد الجاحظ أن تصل اليه من على القوم .

— وإذا كان بعض الكاتيب والنقاد - خاصة القدماء - يأخذ على الجاحظ أن كتاباته كان يعوزها الترتيب أحيانا والتهذيب فى أحيان أخرى ،

فإننا نرى أن لذلك أكثر من سبب يدخل ضمن الدائرة الصحفية أيضا ، خاصة دائرة كتابة المادة المقالية ٠٠ أى أن هذه الحاجة إلى الترتيب والتهديب ، كانت تظهر عندما يتعرض الرجل لكتابة مادة مقالية أولا ٠٠ وما ذلك إلا :

● لأن الرجل كان موسوعيا يحتفظ في ذاكرته وصدره بمئات من المعلومات المختلفة والمتباينة عن الموضوع الذى تتناوله كتابته ، ومن ثم فقد كان يواجه شأن كتاب المقالات من الموسوعيين ، صعوبة بالغة فى تنظيم تم ترتيب وتهديب ٠٠ هذا الكم الهائل من المادة المتجمعة لديه ، خاصة فى وقت لم تكن طرق التنظيم والفهرسة وحفظ المعلومات قد تقدمت كثيرا ٠٠

● لأن الرجل كان مشدودا إلى جانب الهدف الثقافى الذى يريد تحقيقه من وراء مثيلات هذه المقالات ، ومن ثم فقد كان هذا التنوع الكبير فى مجال واطار ومضمون المادة المقالية الواحدة ، شأنه شأن بعض المتميزين من كتاب المقالات ٠٠

● ثم لأن طبيعة المقال نفسها ، وخصائصه التحريرية - منذ عرفت المقالات - وهى ترتبط بذلك النظام « اللاقاعدى » أو بالحاجة إلى « الاكتمال » و « النظام » فى أن واحد ، بحسبه مجرد « محاولة » (١٨) غير مكتملة أو غير ناضجة تماما ٠٠ تؤكد ذلك بعض الأقوال التى تناولت هذا الفن الأدبى الصحفى القديم الجديد معا ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

— « المقال هو انشاء كتابى معتدل الطول فى موضوع ما ، وهو دائما يعوزه الصقل ومن هنا يبدو أحيانا أنه غير مفهوم ولا منظم » (١٩)

— « وثبة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام وهو قطعة انشائية لا تجرى على نسق معلوم ولم يتم وضعها فى نفس صاحبها ، أما الانشاء المنظم فليس من المقال فى شيء » (٢٠) .

ان استقراء هذه التعريفات - خاصة الأخير منها - ليقدم الاجابة المنطقية على قلة ترتيب وتهديب مادته المقالية .

● فضلا عن ذلك كله ، فقد كان فى جدة موضوعاته وأفكاره وتنوعها

بالإضافة الى كثرة مادتها المتجمعة - وفي بعض ذلك الذي لم يساعده تماما على الترتيب والتخطيط والتهديب ٠٠ وقد أشار الى ذلك أحد كبار المتصلين به عندما قال عن حاجة كتابته الى هذه الخصائص : « ٠٠ فهو شأن كل كتابة جيدة في أمر متشعب الأطراف معدود النواحي » (٢١)

٠٠ في النهاية أقول ، أن حاجة كتاباته هنا الى مثيلات هذه الخصائص ترتبط أولا بالمادة الأدبية ، لا الصحفية ، أما وقد كانت هذه الى المقالات الصحفية أقرب فأننا لا نرى فيها عيبا ، أو تقصيرا من جانب الرجل ، فقد كانت تعود الى نصفه الصحفي لا الأدبي .

— وما يذكر باقتراب كتاباته من مادة الصحف والمجلات التحريرية ، فضلا عن ذلك كله ( الأفكار الجديدة — التنوع — المادة الاخبارية — المصادر المختلفة والصادقة — الواقعية واعطاء صورة العصر — حسن الاختيار والاصطفاء — جوانب الأهمية والجاذبية في المادة ) ٠٠ الى غير ذلك كله مما ذكرنا ، وما سنذكر بانن الله ٠٠ مما يذكر بهذا الاقتراب أيضا ، أن كتاباته ورسائله ومباحثه وكتبه ، كانت تنتشر بين الناس بسرعة لم تعرفها كتب غيره من ناحية ، وتذكر بالانتشار والتوزيع السريع للصحف والمجلات من ناحية أخرى ، كانت الرسالة أو كان المصنف — الجزء من الكتاب بما يشبه مجموعة الملزم — وكان الكتاب نفسه سريعا ما ينتشر ، وينسخه الناسخون ، ويقبل عليه العامة والخاصة ويتنافس الجميع من أجل ذلك ، ولنا فيه أكثر من دليل على سرعة انتشار كتبه وشهرتها ٠٠ من بينها :

● قيل لأبي هفان — عالم وراوية معاصر له — لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال : أمثلني يخدع عن عقله ، والله لو وضع رسالة في أرنية أنقى لما أمست الا بالصين شهرة !

● وذات مرة ، أظهر احدهم بعض الخطأ في كتابه « البيان والتبيين » فأسرع اليه حتى يقوم باصلاحه ، نظر الجاحظ اليه وكأنه يقول له ، لقد فات وقت الاصلاح ٠٠ وأصبحت النسخ بأيدي القراء ٠٠ قال له : الآن وقد سار الكتاب في الآفاق ، هذا خطأ لا يصلح ، ٠٠

## ( ٤ ) يؤلف فقط أم يجمع أيضًا ؟

حتى نصل أخيرا الى نقطة أخرى هامة من النقاط المتصلة بهذه الدراسة  
٠٠ والتي يمكن أن تضيف جديدا مفيدا الى موضوعنا ، بعد كل هذه الرحلة  
للدلالة على أن الجاحظ له جانب الصحفى ، كما أن له جانبه الأدبى ، وأن  
اختلفت مستويات الجانبين من آن لآخر ، من كتابة لأخرى ، من مجال لمجال ٠٠

وهذه النقطة نقدمها هنا فى صورة سؤال أساسى يقول : هل كان ما يفعله  
الجاحظ كله ، من أوله الى آخره ، بجميع جزئياته ، مما يدخل فى مجال  
التأليف ؟ والتأليف الإبداعى وحده ؟

وفى أسلوب آخر : هل كان هذا النتاج الجاحظى المتعدد والمختلف ، يأتى  
من بنات أفكاره ، أو من بنات أفكاره وحدها ، مختلطة ومتشابكة مع مواهبه  
التي منحها الله إياها ، تماما كما هو الحال عند الشعراء والقصاصين وغيرهما  
من المبدعين ؟

● اننا نقول أولا : لعل فى أكثر المقدمات السابقة ، ما يؤكد أن الرجل  
كان مبلغ معه ، وكان أكثر نشاطه ، وكان جل اهتمامه موجها بالدرجة الأولى  
الى :

— البحث عن موضوعات مهمة وجديدة وجذابة  
— ليجمعها ولينقلها عن المصادر المختلفة ، خاصة المخطوطة ، مؤلفه  
أو مترجمة ، ثم البشرية من الذين صنعوها أو عاصروها أو كانوا شهود  
عيان عليها ، أو عن طريق رواتها ، أو تلك التى كان هو شاهدا عليها

— بعد أن يصورها فى بوتقة الجاحظية الخاصة من حيث شرحها  
وتحليلها ومقارنتها بغيرها ، والخروج من كل ذلك بعمل فنى جديد يمكن أن  
يصبح نتيجة لهذه المقدمات ، كما يمكن أن يصبح أيضا بمثابة مقدمة لأعمال  
فنية جديدة وأخرى ٠٠

— مع تقديم كل ذلك بالطابع الجاحظى الخاص فكرا ولغة واسلوبا

● ثم نقول ثانيا : ان النقطة الأولى ( البحث ) والنقطة الثانية (الجمع والنقل) ٠٠ هما من خصائص الباحث والصحفى ، أو الباحث الصحفى ، أكثر من كونهما من خصائص المؤلف الذى يقدم بنات أفكاره الخاصة ، وابداعه الذى يعكس مواهبه .

— ان الجاحظ — مثلا — لم يترك لنا ديوان شعر كامرىء القيس أو كزهير بن أبى سلمى أو كالنابغة ، أو كحسان بن ثابت ، أو كاليحقرى أو كإبى تمام أو كاحمد شوقي ٠٠

— ولا هو ترك لنا عدة خطب عصماء ، مثل تلك التى تركها قس بن ساعدة الأيادى أو على بن أبى طالب ، أو قطرى بن الفجاءة أو مصطفى كامل أو غيرهم ٠٠

— ولا هو بالذى ترك لنا بديع مقاماته العربية — ولم يعرف عنه أنه قام بتأليف قصة من القصص العربى ، الذى كان بعضه قد عرف فى عهده ، وقبل عهده ٠٠ وعلى الرغم مما جمع وروى من قصص العرب وأخبارهم وأنسابهم وتاريخهم الى غير ذلك كله ، من ألوان النشاط الأدبى الفنى البحث ، وإنما أخذ هذه الفنون والأطر الأدبية التى كانت معروفة فى عهده أو على عهد سابقيه ، ( أى قام بجمعها ) ٠٠ ثم روى بعضها لنا عندما كان المجال هو مجال الرواية ، وحكى بعضها الآخر عندما كان المجال هو مجال الحكاية ، وتقد بعضها الثالث عندما كان المجال هو مجال النقد ، وسخر من بعضها الرابع عندما كان المجال هو مجال السخرية ٠٠ وقل مثل ذلك فى أغلب ما قدم على صفحاته ، مختلطا بالطابع الجاحظى نفسه ٠٠

● ثم نقول ثالثا : وإذا كان « البحث » طابع العالم ، فهو ليس طابعه وحده . فهناك الباحث الصحفى ، والاجتماعى والقانونى والقرائى ٠٠ وغيرهم . لكن مادة الرجل المتنوعة والمتعددة ، وحسن اختياره للموضوعات التى تشبه موضوعات صحف اليوم ومجلاته — خاصة الأخيرة — وطرق وأساليب بحثه ، والقالب الذى وضع فيه مادته ، ولغته وأسلوبه ، تجذبه بشدة الى الجانب الصحفى . وإذا كنا نرى كثرة عديدة من الصحف والمجلات الآن . تبذل عنايتها الكبيرة من أجل انشاء أقسام « الأبحاث » الصحفية ، وبعضها يضم « المكتبة الصحفية » وبعضها يضم « مركز المعلومات » كله حتى يكونا فى خدمة «البحث



الصحفي» أو «الدراسة الصحفية» .. وصلتها كبيرة جدا به : « التحقيق الصحفي » أو « التحقيق الدراسي » الذي يقوم المحرر المناسب ، أو أكثر من محرر بتنفيذه على مهل ، ويستغرق منه — أو منهم — ذلك التنفيذ وقتا طويلا ..

وإذا كان ذلك كله هو ما يحدث ، فلعله يذكرنا بموقف كتابات جاحظية كثيرة ، أن المحرر هنا لا يؤلف ، وكذلك الباحث ، ومثلها الجاحظ نفسه ..

● وحتى في المجالات التي احتل الرجل فيها موقف « المؤلف » عن جدارة واستحقاق فلم يكن مثله مثل « المخترع » الكامل ، أو « الشاعر » أو « القصاص » الذي يبدع ويبتكر ، وإنما كان يستند إلى أصول وقواعد واقعية تعيش ويراهها الناس أو قصصها عليه الرواة والقصاصون والأخباريون ومن إليهم ، لكنه — وكما قلت — صهرها في البوتقة الجاحظية ، مثل ما يفعله الأديب — نعم — ولكن ليس الأديب وحده ، فالكتاب الصحفي يفعل ذلك أيضا ، ويقدم للناس الصور والمشاهد والألوان والتجارب والمواقف والقضايا بعد أن تنصهر في بوتقته الخاصة ، وأصبحت مشربة بروحه الخاصة .. والا لما استحق أن يكون مثل هذا الكاتب .. صاحب القلم وهو نفس الشيء ، بالنسبة للخروج من نتائجها بمادة جديدة مفيدة ، للقراء والمجتمع كله في نهاية الأمر ..

● وأما عن الطابع الجاحظي من حيث اللغة والأسلوب ، فسوف تثبت السطور القادمة — بآذن الله — أنه لغة الجاحظ وأن أسلوبه ذواتا صلة قوية ، بلغة الصحافة وبأسلوبها ، وأن « البيان الجاحظي » كان من أكثر بيان عهده قريبا من اللغة الصحفية التي نستخدمها اليوم ، بقدر ما ابتعدت عن لغة معاصريه ، وأساليبيهم .. وأذن ، ومن خلال المقدمات السابقة ، فقد كان الرجل يؤلف ويجمع معا ، أي أنه لم يكن مؤلفا فقط ، أو أديبا فقط ، وإنما كان جامعا ناظلا ، يلتقط بمهارة ويجمع في بقعة ، وينقل لنا في بلاغة .. ليس كذلك ؟

● ثم اننا نتساءل رايها : هل حميم الصحفيين من الجامعين الناقلين المنطقين لما يقدمه غيرهم فقط ؟ أو — في أسلوب آخر — هل يقتصر دور الصحفي — كائننا من كان — وفي جميع الأوقات والأقسام والظروف والمستويات على مجرد النقل عن الآخرين ، والنقل وحده ؟ ..

الحق أن هناك نعاذح ومستويات كثيرة من العمل الصحفي ، والصحيفة

— كخلية نشاط — يوجد فيها من يجمع « الرحيق الإخباري » .. من يقوم بجمع الأخبار ، ومن يقوم بصياغتها ، ومن يقوم باستكمالها ، ومن يقوم بكتابة ما يمكن أن تسفر عنه من موضوعات وقصص إخبارية ، ومن يقوم بكتابة ما تسفر عنه من تقارير وتحقيقات ودراسات وبحوث ، ومن يقوم بشرحها وتفسيرها وتحليلها وبيان ما تسفر عنه وتأييد ذلك أو تأكيده أو معارضته وهكذا ، وهكذا أيضا نجد أن هناك المحرر الذي يجمع وينقل عن غيره — وهم كثرة — ونجد كذلك المحرر الذي يجمع وينقل ويثبت ذاتيته وتقديره بما يقدم بعد الجمع والنقل ، تماما كما لا نعدم وجود المحررين المؤلفين ، أو المؤلفين من المحررين الصحفيين ، بعضهم يؤلف في مجال السياسة ، وبعضهم الثاني يؤلف في مجال الأدب ، وبعضهم الثالث في مجال الفن ، والرابع في مجال الاقتصاد ... وذلك كله فضلا عن الباحثين الصحفيين المتميزين من أعضاء أسرة قسم الأبحاث ، أو التحقيقات الصحفية أو غيرها .

بل اننا اذا نظرنا الى التأليف بمعناه القريب ، أو حتى معناه الأبعد — ودون اسراف منا في ذلك حتى لا تختلط الحدود — فاننا لن نعدم وجود عدد من المحررين « الأدباء » بل والشعراء أيضا ، فهذه واحدة ، وتلك أخرى ، على الرغم من كل الفروق القائمة ، بين الصحافة الخبرية ، أو الإخبارية ، وبين الأدب ، ولا أقول بين غيرها من ألوان الصحافة ، وبين الأدب الصحفي ..

● باختصار شديد أقول أخيرا ، خذ عندك أحد الكتب الجاحظية الشهيرة من أمثال : الحيوان — البخل — اقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات — الزرع والنخل والزيتون والأعشاب — الملوك والأمم السالفة والباقية — الأمصار — رسالة في الكيمياء — المعادن — رسالة في الخراج .. تجد أن الطابع الغالب عليها هو طابع الجمع والنقل من هنا ومن هناك ، فهو بالنسبة لها جامع ناقل ، باحث ، أكثر منه مؤلف علمي ، أو فني ، بالمعنى المتعارف عليه في هذين المجالين ، وقد أشرنا من قبل الى أنه لم يكن عالما بالمعنى المعروف والقريب من الأذهان عندما يذكر تعبير العالم .. كذلك هو في بعض أدبياته ، ولا أقول كلها بالنسبة لتعبير « المؤلف » ..

● بل لنلقا للتسايل خامسا . واكثر من سؤال واحد :

— هل وصفه الحى الواقعى للبخلاء ، والزنوج واللصوص والحواء  
كما شاهدهما بعينه ٠٠ هل يعتبر ذلك أدبا ؟ أم صحافة ؟ أم هما معا ؟

— وهل يعتبر نقله لجميع الصور والمشاهد التى جرت أمام عينيه  
فى البصرة وبغداد ، أيعتبر أدبا ؟ أم يعتبر صحافة ؟ أم هما معا ؟

— وهل فى عشقه للحرية ، ورفضه للمناصب الحكومية وزعمه فيها .  
ما يقربه ما طابع الأديب ؟ أو الصحفي ؟ أو من طابعهما معا ؟

— وهل فى كتاباته القائمة على المبدق أولا ، وعلى الدقة ثانيا ،  
وعلى الموضوعية ثالثا ، ونبذه بذلك كل رواية مختلفة ، أو ملونة ، أو أضيف  
اليهاكروايات بعض رجال البحر والسماكين وبعض المترجمات ٠٠ هل ذلك  
كله يدخل فى عالم الأدب ؟ أم فى عالم الصحافة ؟ ، أم فيهما معا ؟

— وهل فى بعده عن الخيال ، الى حد كراهيته له وحديثه عن ذلك  
كثيرا مما يقربه من الأديب أكثر ، أم من الصحافة أكثر ؟

للمق أن بعض هذه الصور والانتظية والعطيات قد يأخذ من الأدب  
بجانب ، ولكنه يأخذ أيضا من الصحافة فى مجموعها ، وعلى سبيل التركيز .  
بالعملية التحريرية وما تتجه اليه من أطر وأنماط وأساليب ، تتوقف عندها  
قليلا ، وعلى أثر رصدنا لبعض الأقوال التى تناولت الرجل ٠٠ مما ينكر  
بهذه للنقاط السابقة فى مجموعها ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

● أن بعض المؤلفين قد حاول الوصول الى جوانب هذا التعدد الذى  
يؤكد وجه الجاحظ الآخر — وجه الصحفي هنا — فكتب يقول عن الجاحظ أنه :  
تناول كل فن ومارس كل علم عرف فى زمانه ، مما وضع فى الاسلام ، أو  
نقل عن الأمم الأوائل ، فأصبح له مشاركة فى علم كل ما يقع عليه الحس ، أو  
يخطر بالبال ، فهو راوية متكلم فيلسوف كاتب مصنف مترسل شاعر مؤرخ  
عالم بالحيوان والنبات والموت وصاف لأحوال الناس ووجسسه معاشهم  
واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم ، ( ٢٢ ) ٠٠

( الجاحظ )

أى أنه ليس أدبياً فقط ؛ وإنما يجمع بين أكثر من رجل واحد ، لعل أقربهم إليه ، هو الصحفي ، الذى يتسع عمله فى أحيان كثيرة ، لبعض أعمال هؤلاء معا .

● ويقول آخر ، عندما رأى تعدد كتاباته ، حتى أنه لم يترك موضوعا الا وكتب فيه ، حتى الشطرنج والتفاح والأصنام وأخلاق الملوك والجن والغول والطعام وغيرها ، وغيرها بما يؤكد طبيعة الرجل « الجامع » الماهر ، المجدد للفكر ومتعدد الجوانب أيضا : « .. لم تقف به همته عند إحدى تلك الغايات التى بلغ بها أكابر الكتاب ممن تقلدوه أو عاصروه فلم يشأ أن يتخصص كما تخصصوا ، ولم يرد أن يتميز بالأنواع التى بها تميزوا بل حمل نفسه على أن ييزهم جميعا - لأنك تراه لم يترك علما معروفا فى زمانه لم يضع فيه مؤلفا ، ولم يدع فنا لم يكتب فيه مصنفا ، وقد يكون هذا المصنف أو ذاك المؤلف رسالة موجزة ، وقد يكون سقفا متعدد المصاحف والأجزاء » (٢٢) ..

هل يمكن - بعد ذلك كله - أن نقول ، أن للرجل أكثر من مستوى واحد ، من مستويات الكتابة ؟

— أما المستوى الأول ، فهو المستوى الأدبى الكامل ، الذى كان الرجل يقف فيه مبدعا منشئا مبتكرا :

— وأما المستوى الثانى ، فهو مستوى الباحث العام ، الجامع الناقل الدقيق والصادق .

— وأما المستوى الثالث ، فهو مستوى الكاتب الصحفي ، الجامع الناقل الدقيق والصادق أيضا ولكنه وبالإضافة إلى ذلك ، مستوى مصور عصره ، فى واقعية ومطابقة لمقتضى الحال ..

الأول أدبى والثانى باحث والثالث صحفى . لكن الباحث والصحفى يلتقيان فى مواقع عديدة ، وصفحات عديدة أيضا ، ومن هنا كان الرجل كل هؤلاء معا . بل أن الصفحات القادمة سوف تثبت - يائن الله - أن الرجل عرف مستويات التعبير الصحفى كلها .. الأصلية والفرعية أيضا ، وليست هذه المستويات الثلاثة الأخيرة فقط .

#### هوامش الفصل الرابع :

- (١) محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحريض الصحفي العام »  
ص ١٦ - ١٧ .
- (٢) خلال الفصل الأول من هذا الكتاب .
- (٣) - ٤ - ٥ - ٦ (محمود أدهم : « الفكرة الاعلامية » صفحات ٩ ، ١٠ ، ٤٩ .
- (٧) الألب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ » ص ٨ .
- ( ٨ - ٩ ) حسن السندوبى : « أدب الجاحظ » ص ١٦٦ .
- (١٠) أحمد الاسكندرى وزميله : « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه  
ص ٢٢٢ .
- (١١) رجاء العودة الى الفصل الثالث .
- (١٢) خلال الفصل الثالث أيضا .
- (١٣) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ١ ص ٢٠ .
- (١٤) المصدر السابق ، ج ٦ ص ١٢ .
- (١٥) محمد سيد محمد : « الصحافة بين الأدب والتاريخ » ص ٢٢ .
- (١٦) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ١ ص ١١ .
- (١٧) المصدر السابق . ص ٢٧ .
- (١٨) "Essay"
- (١٩) عبد اللطيف حمزة : « المدخل فى فن التحرير الصحفى » ص ٢٢٧
- (٢٠) عبد العزيز شرف : « فن المقال الصحفى » ص ٧ ، عن د.  
جونسون .
- (٢١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » من مقدمة ١١ عبد السلام هارون  
ج ١ ص ١٨ .
- (٢٢) أحمد الاسكندرى وزميله : « الوسيط فى الأدب العربى  
وتاريخه ، ص ٢٢٢ .
- (٢٣) حسن السندوبى : « أدب الجاحظ » ص ١٩٧ .



## **الفصل الخامس**

### **جذور الفنون الصحفية في أبي الجاخذ**





بعد تلك كله قلنا : هل هناك صلة ما ، بين الفنون التحريرية الصحفية وبين كتابات الجاحظ ؟ هل توجد هذه الجسور التي تمتد بين الأنماط والأطر التحريرية المختلفة ، التي نراها فوق صفحات الجرائد والمجلات اليوم ، وبين هذا النتاج الجاحظي المتعدد ؟ وأقول : الفنون والأنماط التحريرية فقط ، وليس غيرها ، إذ المعروف أن الصحيفة أو المجلة تحتوي — أيهما — على مواد أخرى عديدة ، بعضها تحريري ، وبعضها اعلاني وبعضها ترويجي ، وبعضها مصور ، وبعضها جمالي . وما إلى ذلك كله . . .

.. فإذا عدنا إلى أحد مؤلفاتنا السابقة ، لقنا أننا خلال هذه السطور ، نبحث عن تلك الصلات التي يمكن أن توجد أو أن نجد رابطة ما تقوم بينها وبين هذا الجانب من جوانب « محتوى » الصحيفة أو المجلة الحديثة : . . .

« — مادة « تعريفية » بالصحيفة أو المجلة ويصفحاتها وأبوابها وزواياها . . . الخ .

« — مادة « خبرية » أو اخبارية حديثة وقائعية مفردة أو موزعة أو متشابهة .

« — مادة تجمع « بين الرأي والخبر » أو تأخذ من كل منهما بنصيب .

« — مادة « معلوماتية » متداخلة مع المواد السابقة أو مفردة .

« — مادة « تقريرية » تسجيلية » تجمع بين أكثر من مادة من المواد السابقة .

« — مادة « توجيهية وإرشادية » مفردة أو متشابهة .

« — مادة « تعليمية » .

« — مادة « خاصة أو متخصصة » .

« — مادة « مسلية » أو معتقة ومؤنمة بالحرف والكلمة والمسطر .

« — مادة « متنوعة » تجمع بين أكثر من جانب واحد من الجوانب

السابقة » (١) .

وبطبيعة الحال ، فإننا لن نركز على جميع هذه المواد ، وما تعنيه بالنسبة لتحرير الصحيفة أو المجلة من جانب ، ومن حيث الصلة بكتابات الجاحظ من جانب آخر ، وإنما نركز على بعضها المهم أولا ، والذي تتضح هذه الصلة نفسها في مجاله . . . كما نشير هنا إلى أن اعتمادنا الأول ، سوف يكون على

عدد من مؤلفاتنا السابقة سواء تلك التي تناولنا فيها هذه الفنون من جانب ، أو تلك التي أشرنا فيها إلى الصلة التي قامت بين جذور هذه المادة التمريرية ، أو هذا الفن التحريري ، من جانب آخر ، أو ما استجد لدينا من خلال المادة الجاحظية ، مما يعكس هذه الصلة نفسها أو يقيم بينهما الجسور المختلفة ، ومن هنا نقول :

#### أولا : من حيث المادة التعريفية بالمصحفة أو المجلة ..

إذا كنا قد اعتبرنا أن هناك أكثر من وجه من وجوه الشبه بين بعض كتابات الجاحظ ، لا سيما بعض رسائله ، وأجزاء كتبه الكبيرة ، وكتبه في مجموعها ، فإن هذه الصلة بين المادة التعريفية بالمصحفة أو المجلة لم تكن قوية ، وذلك لأكثر من سبب :

— أن ارتباط التعريف هو أساسى بالمصحفة أو المجلة الحديثة ، وبذلك منه ، فإنه يوجد لكل كتاب أو رسالة عنوان يكون أكثر ارتباطا به ، وقد كانت آثار الجاحظ الفكرية كذلك .

— أن صفة الدورية وتتابع الصدور لم تكن معروفة بالنسبة لهذه الآثار على النحو الذي تعرف به الآن بالنسبة للكتب الدورية ، أو للكتيبات أو الفشرات الدورية مثلا .

— أن التعريف بالأثر الجاحظي ، كتابا كان أو كان مصحفا أو كانت رسالة ، كان يقدم فعلا ، ولكن من خلال « فاتحة الكتاب » أو مقدمته ، وكانت هذه أقرب إلى المقال منها إلى مجرد التعريف البسيط الذي يقدم كلمات قليلة جدا ، كما هو الحال بالنسبة للمادة التعريفية الصحفية أو المجلاتية ، ومن ثم ، فإن تعريف الجاحظ بكتبه — كرائنا — هو أقرب إلى المادة المقالة ..

#### ثانيا : من حيث المادة الخبرية :

وأما من حيث المادة الخبرية ، وصلة الكتابات الجاحظية بها فقد تناولناها أكثر من مرة ، خلال صفحات الكتاب ، ومن ثم فلا حاجة بنا إلى إعادة ذلك التناول ، وإنما نحن نقول فقط وباختصار شديد :

— أن الرجل كان جامعاً للأخبار من الطراز الأول . وضح ذلك من كُتبه جميعاً ، فلم يك يترك المناسبة دون ذكر ما يعرف من الأخبار الجديدة عنها التي جمعها أو أتاه بها مصدر ما من هنا وهناك .

— وأن المادة الاخبارية عنده بعضها كان مفرداً لحاله ، وبعضها يتشابه مع غيره من المواد ، شأنه في ذلك شأن كثرة من أخبار المجلات التي تأتي عبر موادها التحريرية وفي ثناياها .

— أنه عرف الأسس والقواعد الرئيسية التي تقوم عليها الأخبار ، بل ووضع الرجل رسالة في ذلك أطلق عليها اسم : « الأخبار وكيف تصح » .  
— أنه كان يسعى من أجل تطبيق عنصر « الانتقاء » لمادته الاخبارية فلم ينشر أى خبر كان ، ولم يورد أية مادة اخبارية بين ثنايا كتاباته على أى نحو تكون وإنما كان الرجل يصطفى من بين ما يتجمع لديه منها الجسدي والمهم ، والصادق ، والجذاب ، والطريف . قبل غيرها من أخبار قديمة أو معروفة ، أو غير مهمة ، أو جافة أو غير صحيحة .

— أن عنايته كانت تتجه الى أهمية الخبر في حد ذاته ، ومن حيث كونها مادة خبرية ، فلم يقدم مالا يستأهل التقديم من أخبار الحكام والأمراء ، في الوقت الذي قدم فيه ما يستحق من أخبار العامة . الذين يقفز بعضهم الى قمة الأحداث ، فتتحقق لهم الشهرة من خلال الحدث نفسه — كزعيم الزنج مثلاً — وليس من خلال أى شيء آخر ، أى أنه كان ينظر الى عنصر الشهرة ، بتفاعله مع العناصر الأخرى ، وليس مجرداً ، وهي نظرة جديرة بالتأمل ، بل انها لتسبق نظرة كثير من صحف اليوم ومجلاته الى هذه الزاوية ، تلك التي تلهت وراء أى عمل مهما تكن درجة أهميته ، مادام أن صاحبه شهيراً ، أو أنه من النجوم ، بينما لا تهتم الاهتمام المخائل ، ولا نصفه ولا ريعه أحياناً ، وقد تتجاهل تماماً عملاً كبيراً ، علمياً أو أدبياً مثلاً ، طالما أن صاحبه ليس له مثل شهرة هذا النجم .

ثالثاً : من حيث المواد التي تجمع بين الراى والخبر وتلك التقريرية التسجيلىة :

الحق ، أن هناك أكثر من مادة ، وليست مادة واحدة فقط ، هي التي

تدخل ضمن حدود هذا البند ، ولذلك ، فإننا سوف نقاوم هنا من بين هذه المواد ذات الصلة بكتابات الرجل المختلفة ، هذه كلها ، من خلال استعانتنا بقراءة في بعض مؤلفاتنا السابقة .

#### ( ١ ) كتابات الجاحظ وجذور الحديث الصحفي :

لم ينتقل الجاحظ من مكان لكان ، ولم يلتق بالعديد من المصادر ، رواة وبحرين ومريدين ومسجدين وعلماء ، من أجل الارتحال فقط ، أو لمجرد اللقاء بهؤلاء ، تماما كما أنه ليس من أجل النزعة ، رحل الى هنا والى هناك ، وليس من أجل التعرف على هذه المصادر ، أو قضاء وقت فراغه بينها ، كانت جلساته الطويلة معها ، وإنما كان ذلك ، وفي أكثر الأحوال :

— ليعلم عنها بعض ما تعلمه . مما كان يجهله أو يعلم غيرة ، أو يعلم مثله .

— ليسمع منها الأخبار والقصص والتاريخ والانساب وغيرها .

— ليتأكد منها من بعض ما يريد أن يتأكد منه ، في موضوع يشغل فكره .

— لتصحيح له بعض ما يريد أن يصححه . . . لاهتمامها به أو تخصصها فيه .

— ليعرفها أكثر ، لأنها شخصيات جديرة بأن تعسرف لذواتها أو أهميتها أو أنشطتها الى غير ذلك كله من أهداف . . . حيث كانت « المقابلات » تجري بينه وبين هؤلاء ، ومعها تطرح الأسئلة ، وتدور المناقشات ، وتأتي الاجابات ، ويتحول بعضها الى أسئلة جديدة ، تتابع بالتالي اجاباتها . . . كل ذلك بينما ذاكرته الحافظة تعمل ، وتسجيلاته أو تسجيلات وراقبه تتم ، وجميع حواس الرجل قائمة على قدم وساق . . .

أي أن الرجل كان يسأل . . .

وحتى ان لم يكن يسأل . . . فقد كان يستمع ، ويعلم . . . ولكن . . . في النهاية ، نقول : لم كان كل هذا الجهد . . . وقبل أن نقدم

الاجابة تشير الى انه كان يفعل ذلك أكثر من غيره من أمثاله الكاتيين ، خلال هذه الفترة ، وحيث كان أكثرها يعتمد على ما تقدمه له دكاكين الوراقين والمكتبات ٠٠ وما يستطيع الحصول عليه من مخطوطات ، وصحيح أن الجاحظ كان يستخدم هذا الأسلوب نفسه ، وربما بأكثر من بعضهم ، وقد أشرنا الى ذلك فى حينه ، لكن اعتماده على هذه المصادر المكتبية ، أو الوثائقية لم يكن دائما ولا كاملا وانما كان يصحبه فى اوقات كثيرة اعتماده على عنصر السماع ، خاصة فى تلك الموارد التى تقترب من الطابع الصحفى لا الأدبى ، من ذات الطابع الحالى ، الاخبارى وما يتصل به من معلومات مختلفة .

مرة اخرى ، لم كان كل هذا الجهد فى السماع والتساؤل والمناقشة وما يتصل بهذه الأمور ؟ ٠٠

من البديهي ، ومن المؤكد ، أن حصيلة ذلك كله ، كانت تصب فى المعين نفسه ، معين نشر ما يتجمع لديه من مواد بعد تعرضها لجوانب الاختيار والاختبار والحذف والاضافة والصل والتهذيب ٠٠ وما الى ذلك كله ٠٠

وتظرة على كثرة من كتابات الرجل التى ذكرنا والتى لم نذكر ، تجد عددا كبيرا منها :

- اما أنها تأتى كما تأتى الاحاديث ذات الأسئلة والاجابات الضمنية ، أى دون حاجة الى ذكر السؤال والاشارة الى طبيعة الجواب .
- واما بدون السؤال مع استخدام أكثر من تعبير دال على الجواب
- أو يذكر المصدر فى بداية الكلام على النحو الذى سبقت الاشارة اليه .
- أو باستخدام المداخل المختلفة ، الاشارية أو القولية أو غيرها .
- وأحيانا باستخدام السؤال والجواب أيضا ،
- أو بجعل المادة كلها ، نصا واحدا بينما هو فى الواقع نتيجة لهذه التساؤلات وتلك المناقشات .

— أو بوضعها فى أشكال وقوالب أخرى ٠٠ كانت نتاجا لموهبته الكتابية الكبيرة ٠٠

بل ان هذه الموهبة نفسها هي التي تدفعنا الى القول — دون اسراف في ذلك أو مبالغة — أن الرجل قد اقترب أحيانا في عرضه لمادته المتجمعة من وراء هذه الأحاديث والمناقشات ، من بعض قوالبها التي تعرفها صحف اليوم ، لاسيما قالب « العرض المباشر » ٠٠ الذي يضع المادة بين أطر كلمات من مثل : « أوضح — لاحظ — استهجن — أشاد — امتدح — نكر ٠٠ الخ » وكذا اقترب من قالب « العرض الحوارى » الذى يضعها أو يقدم لها بالفعل — قال ، ومشتقاته فى الأعم ، كما اقترب أيضا ، خاصة فى حالات وصفه لبعض الأفراد من قالب « العرض الوصفى » الذى يركز على تقديم صورة لهم وهم يتحدثون : « قال وهو — تمطى ثم قال — تتأهب وهو يقول — وهو يتعجب — ٠٠ الخ » وذلك كله فضلا عن اقترابه من بعض ملامح « القالب الاخبارى المباشر » كراوية واع وفذ ، لما كان يدور حوله أو يشارك فيه .

وإذا كنا — خلال الكلمات السابقة — قد حاولنا أن نقرب بين طرقه فى كتابة أمثال هذه المواد المنقولة عن الغير عن طريق التساؤل والمناقشة والسماع والرواية ٠ فانه يتأكد لنا من خلال ذلك كله ، كم كانت هذه المواد التى عاش الرجل مناخها وسمعها عن الغير وشارك فى مناقشتها أو أخذها عن آخرين كم كانت قريبة من بعض ألوان الأحاديث الصحفية لاسيما والهدف كما قلنا ، هو النشر وإطلاع القراء عليها فى رسائل أو مضاحف أو كتب سرعان ما كانت تنتشر فى الآفاق ، وتسير بذكرها السن الركبان ٠٠

أو ليست « الأحاديث الصحفية » أو « المقابلات الاعلامية » تعنى مثل هذا التسجيل الحى للواقعى فى أغلب الأحوال لما دار أو يدور من مناقشات تتزاحم فيها الأسئلة ، وتزخر بالاجابات ، وتتنازع فيها الآراء ، وتقسم المعلومات ؟ ٠٠ وجميعها لا تقوت على العين البصيرة ، والأذن الخبيرة والذاكرة الحافظة ، التى تحمى وتسلم وتسجل ٠٠ ثم تعود وكأنها تكتب بذلك كله ، تقريراً عما حدث ، لتحمله بعد ذلك عدة صفحات تتناسب وطبيعة عصرها وامكانيات أصحابها المادية والفنية ٠٠

ولماذا — وقد فعل الرجل ذلك وقدمه بوسيلة النشر المتاحة له — لماذا نذهب بعيدا ، وهذه الأحاديث الصحفية نفسها ، هي وكما عرقها البعض (١) من لغويين ورجال اعلام مما :

— فصاحب « المصباح المفين » ٠٠ أحمد بن محمد بن علي المقرئ  
الفيومي يذكر في باب الحاء مع الدال وما يثلثهما قوله : « والحديث ما يتحدث  
به وينقل » (٢) ٠٠ أوليس هذا هو ما فعله الرجل ؟

— وصاحب « مختار الصحاح » ٠٠ الامام محمد بن أبي بكر  
الرازي يذكر في باب ح د ث ٠ : « الحديث الخبر قليلة وكثيرة ٠٠٠ » (٣)  
الم نشر الى أن أكثر مادته الاخبارية جاءت محصلة لأحاديثه .

— وترى مؤلفة مجتهدة مما يعبر عن المعنى نفسه : « الأحداث التي  
نشاهدها ونشاهدها العالم طوال أيام السنة من صنع الأفراد ، وأهم عمل  
يقوم به الصحفي هو التحدث مع هؤلاء الأفراد الذين يصنعون أحداث  
الحياة » (٤) .

— ويرى استاذ علوم الاتصال بجامعة ولاية بنسلفانيا : « في تعبير  
واحد ٠٠ ان مصطلح الحديث الصحفي يشير الى الطريقة الفنية التي تجمع  
بواسطتها أكثر الاخبار » (٥) ٠٠ وأقول والمعلومات والآراء أيضا ، وهو  
ما فعله الجاحظ منذ عشرة قرون ، بصرف النظر عن الاطار الذي كانت تجري  
فيه مقابلاته . وسرعة القيام بها ونشرها ، بسبب الظروف نفسها .

— وتقول باحثة شهيرة في هذا المجال : « ان الأشخاص يسألون  
من أجل الحصول على المعلومات التي يعرفونها أو من أجل آرائهم أو أفكارهم  
التي تتصل بمجالات اختصاصهم » (٦) أوليس ذلك ما كان يفعله خلال  
مناقشات مع مصابريه من أخباريين وقصاصين وعلماء ٠٠

— حتى نصل أخيرا الى تعريفنا الخاص لهذا الفن ، لنجد التماثل  
الكبير بين ما كان يفعله الرجل ، وبين هذا المفهوم ، باستثناء ما أوجده  
العصر نفسه من أطر فنية حديثة ، ومسائل اتصال ، وبعض الاهداف  
« العصرية » نفسها ٠٠ انه التعريف الذي يقول أن الحديث الصحفي هو :

« تقرير يكتبه محرر في لغة واضحة وجذابة لينشر في الوقت المناسب  
في صحيفة أو مجلة أو توزيعه وكالة أنباء عن مضمون مقابلة حديثة أجراها  
وحده أو مع غيره نيابة عن القراء أو وكالة هاتفية طويلة أو بالاتصال بالبريد

فى أحيان قليلة مع فرد أو أفراد من المسئولين أو أهل الثقة أو صناع الأخبار للحصول بالتساؤل والمناقشة على المعلومات والآراء والمواقف الخاصة بهم أو المتصلة بالأحداث والقضايا والأفكار الجديدة التى تهم القراء والمجتمع بهدف اعلامهم وتوعيتهم وتوجيههم وتنقيفهم وتعليمهم وتنمية مجتمعهم وتسليتهم وتحقيق الربح المادى لوسيلة النشر « (٧) » .

لا نترك ذلك كله ، وننتقل الى مادة جديدة قبل تقديم بعض النماذج للمقابلات والمناقشات والمحاورات الجاحظية ، التى قدم خلالها للقراء مادة اخبارية ومتنوعة ، وذلك بالاضافة الى ما سبق تقديمه مما يشير الى هذه الجوانب لاسيما خلال حديثنا عن مصادره البشرية .

● أما المادة الأولى فهى من « حديث رأى » موضوعه هنا لغوى الدرجة الأولى :

« .. وحديثى صالح بن خاقان ، وقال : قال شبيب بن شيبة : الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء ويمدح صاحبه وأنا موكل بتفضيل جودة القطع ويمدح صاحبه ، وحظ جودة القافية ، وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت . ثم قال شبيب ، فإن ابتليت بمقام لا بد لك فيه من الإطالة ، فقدم احكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل ، قبل التقدم فى احكام البلوغ فى شرف التجديد ، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئاً فإن قليلاً كامناً خير من كثير غير شاف .. ويقال انهم لم يروا خطيباً قط .. » (٨) .

● وأما المادة الثانية فهى من « حديث خبر معلومات » موضوعه حيل الحيوان :

« حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوى العنبرى ، وأخوه روح الكاتب ورجال من بنى العنبر أن عندهم فى رمال بلعنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد .. زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتد الحر فى رمال بلعنبر ، وامتنعت الأرض على الحافى والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركز . أو عود ثابت فيجىء الطائر الصغير أو الجرادة ، فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع .



على الرمل لشدة الحر ، وقع على رأس الحية على أنها عمود ، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإذا كان جرادة ، أو جعلاً أو بعض ما لا يشبهها مثله ابتلعه ، ويقيت على انتصابها ، وإذا كان الواقع على رأسها طائراً يشبهها مثله أكلته وانصرفت ، (٩) ٠٠٠ الخ

ونكتفى بهذا القدر ، وننتقل الى فن تحريرى آخر ، وصلة الرجل به .

#### ( ب ) كتابات الجاحظ ، وفن التحقيق الصحفى :

لكن الرجل لم يستخدم أسلوب المقابلات . ولم يجلس الى مصانره ليناقشهم أو الى من سعى اليهم ليأخذ عنهم ٠٠ ولم يرتحل أيضاً ويجد فى طلبهم من أجل هذه الأنشطة الاخبارية وحدها أو لجرد الحصول بالتساؤل والأخذ والرد ، على مثل هذه الاحاديث السابقة التى زخرت بها كتبه وكانت اطاراً للكثير من موادها التحريرية ٠٠ وإنما نجح فى أن يستخدم السؤال والجواب ، والأخذ والرد ، والمناقشة والمحاورة حيث ينبغى استخدامها ليتجمع له منها بالاضافة الى بعض أساليب رؤيته الخاصة للناس والألوان والحياة فى عصره . تلك التى كان يضع يده على مشاهدتها من خلال انغماسه فى هذا المجتمع ، ودرأيته بجوانب الايجاب والسلب فيه ، يتجمع له من وراء ذلك أكثر من مادة تحريرية أخرى ، ذات صلة وثيقة بتلك الفنون والأطر والأنماط ، التى تعرفها صفحات جرائدنا ومجلاتنا وكان من أبرزها ما يمكن أن يعتبر من جذور أو مقدمات فن التحقيق الصحفى .

استخدم الرجل أدوات التحقيق ، وعرف عدداً مما يعتبر الآن من أبرز عناصر هذا الفن ، نشير إليها هنا ، بعد تقديم تعريفنا الخاص لهذا الفن ، كما ورد فى مؤلفاتنا السابقة ٠٠ أن التحقيق الصحفى هو :

« تغطية تحريرية مصورة تضيف مزيداً الى خبر جديد أو يتناول موضوعاً قديماً أو مشكلة هامة ، وتكون أكثر من مجرد قصته أو تقرير عنه . مقدمة لظواهره ، رابطة بين أسبابه القريبة والبعيدة ، ونتائجه الحالية والمتوقعة . مقدمة كذلك لآراء من يتصلون به عن قرب أو يثق القراء فى درأيتهم بجوهره ، مع جواز تقديمها لرأى المحرر نفسه أو وجهة نظر وسيلة

النشر . ضاربة المثل بوقائع مشابهة فى الداخل أو الخارج حيثة أو قديمة ، يقوم بها محرر يجمع بين صفات المخبر الصحفي والباحث وله دراية باللغة العربية وقدر من الذوق الأدبى . ومعرفة بلغة أجنبية أو أكثر ومعرفة بالتصوير وبالاختزال . ويقدم بهذه التغطية مادة مفيدة ومشوقة ، وقد يوجههم بعدها الى وجهة معينة ، كما يقدم لصحيفته أو مجلته زيادة فى عدد النسخ المبعة » (١٠) .

ولست هنا بمدح أن الرجل قد كتب تحقيقا صحفيا مكتمل البناء والمضمون . اتمونجى الطابع أو أكثر من تحقيق صحفى واحد من مثل هذه التحقيقات التى نشاهدها على صفحات الجرائد والمجلات عربية ... على ندره الجيد منها ولا أقول الممتاز - أو أجنبية . على كثرتها ، خاصة على صفحات المجلات والصحف الأسبوعية . لكننى أقول ، وفى ضوء المعطيات السابقة ، وباستقراء كثرة من كتاباته ، وهذا التعريف نفسه ، وباستثناء المسميات والتوجهات العصرية الحديثة نفسها :

١ - أما عن الأسئلة والاجابات فقد استخدمها الرجل بنجاح كبير فى مجالات عديدة تعتبر من خصائص أسئلة هذه المادة الأخيرة ..

- فهو قد استخدمها فى جمع المعلومات الهامة واللازمة لمادته .
- وهو قد استخدمها فى التحقق من صحة ما يريد التحقق منه أو تثبته بين ثنايا مادته القريبة من هذا النمط التحريرى الصحفى .
- وهو قد طرحها على جميع أطراف النزاع أو الصراع أو المشكلة ليحصل على اجاباتهم التى تغطى موضوعه .
- وهو قد ناقش وناور وحاور ليحصل على ما لا يمكن الحصول عليه بالطرق العادية ، مما يعتبر من خصائص وتطورات الموضوع نفسه ، أو ما يتصل بالشخصيات ذاتها ، تلك التى كانت من صناع الحدث الذى يرتبط به موضوعه ..

أى أن استخدامه لهذا العنصر ، يذكر تماما باسم استخدام « المحقق الصحفى » له .

٢ - وأما عن عنصر « الأفكار الجديدة والمستحدثة والمبتكرة » تلك التى

وضع يده عليها ، وراح يحققها أو يجمع ما يتصل بها ، الصحيح وغير الصحيح ، وينتقل بنفسه الى أماكن وجودها أو قيامها ، ليستمع ويحاور ويناقش ، فقد كان ذلك طبعه الذى جبل عليه والذى عرف عنه ٠٠ ونظرة على مثيلات هذه الأفكار كما ذكرت فى سطور سابقة ، لتؤكد موهبته فى هذا المجال ، سواء الأفكار الجديدة تماما ، أو تلك التى تناولها غيره دون أن يبقى هذا التناول أو يجذب أو يشد اليه أحد لياتى الرجل ويقدم الجديد بشأنها مما يلهب خيال معاصريه ٠

٢ - والقارئ لكتابات الجاحظ يدرك مما روى وقدم ووصف ونقل من الصور والمشاهد والألوان ، أنه لم يقدم الخبر الجديد فقط ، أو يلفت النظر الى موضوعه ويكتفى بذلك ، بل كان الرجل يقدم كل شيء عنه ، كل ما قرأه حوله ، وما سمعه من مختلف المصادر وما شاهده بعينى رأسه ، من مقدمات وظواهر وشواهد ونواذر وطرائف وأسباب بعيدة أو قريبة ، وقد يرجع على رأى قرأه فى مخطوط مترجم ، عن خبر أو واقعة أو قصة مشابهة ، حدثت فى بلاد الهند أو فارس أو روم أو « أرسطو » الى غير ذلك كله ٠٠ من وقائع مشابهة ، حديثة أو قديمة ، فضلا عن العربية منها ٠

٤ - ثم - ومن خلال جميع المقدمات السابقة - من الذى يستطيع أن ينكر أن الرجل يجمع بين بعض صفات المخبر الصحفي والباحث ؟ وأما عن درايته باللغة العربية وعن ذلك القدر من الذوق الأدبى ، فلا ينكرهما الا غير سوى أو حاقذ ، وذلك كله بصرف النظر عن معرفة اللغة الأجنبية والتصوير والاختزال فهذه طرق وأساليب ترتبط بالحاضر أكثر من ارتباطها بالمناخ الذى عاشه الرجل دون أن ننكر قراءته النهمة لأغلب المترجمات المعروفة فى عصره ٠

٥ - أما وقد راح يقدم هذه « القفطية » التى « قتل » خلالها موضوعاته بحثا - وكما يقولون - وطاف وحلق وجمع وتناول أكثر ما كتب وقيل حولها ، من مصادر المخطوطة ، والمتحدث ، والمشاهدة ، فمن المؤكد أنه قدم لقرائه ، فى جيله ، وللأجيال من بعده ، الكبير والصغير ، العالم والمتعلم ونصف المتعلم ، تلك المادة المفيدة والمثوقة والتى طوت فائدتها الحقب وقفز التشويق للمصاحب لها عبر القرون نفسها ، فهل يوجد بيننا من ينكر ذلك ؟

٦ - وأما التوجيه الثمر ، وأما الرأى القائم على معرفة خبير ، فجميعها ( الجاحظ )

قدمها الرجل ، وإن اختلفت طبيعتها من مادة الى مادة ثانية. ، الى الثالثة ، وفق توعية هذه المادة نفسها وطبيعتها ، والهدف من تقديم التوجيه أو الرأي ..

٧ - تماما كما ان من المؤكد أن توافر هذه العناصر ، في تلك المادة التي نقول باقترابها من فن التحقيق الصحفي ، والى حد احتسابها من جذوره الضاربة الأعماق في الأدب العربي ، كان ذلك وراء سرعة انتشار كتاباته ، وترددها في الافاق واقبال القراء عليها يستوى في ذلك عامتهم ، أم خاصتهم ..

وهكذا نرى أن بالامكان أن تصدق جوانب كثيرة من تعريف هذه المادة ، على بعض الكتابات الجاحظية المتميزة ، التي أقتريت بكل ذلك ، من خصائص التحقيق الصحفي .

ثم ماذا ؟ .. اننا نتوقف هنا عند عدة معالم أخرى ، مما يختص به هذا الفن لنرى انعكاساتها على مرآة الكتابة الجاحظية ، أو بعض ما يبل على وجودها في سطورها المختلفة :

٨ - فإذا كانت أبرز أنواع التحقيقات الصحفية هي :

- التحقيق الخاص أو التخصص : « علمي - عسكري - رياضي - نسائي - اقتصادي .. » الخ .
- التحقيق العام : « العام المشوق - المشكلات - الرحلات - دراسة الشخصية - الموسمي .. »
- الدراسة الصحفية أو البحث الصحفي .
- الحملة الصحفية .

.. إذا كانت هذه هي أبرز أنواع التحقيق الصحفي ، فاننا نرى من خلال تعدد كتابات الرجل ، القربية من التحقيق ، والتي تأخذ بعض معالم ، وكذا من ضربها في أكثر من مجال ، نرى أن هذه الكتابات الى الأنواع الآتية أقرب ..

● فكترة منها لا سيما تلك التي ترتبط بأمثال هذه الموضوعات :

« البحريون - الهدايا - السودان والبيضان - عجائب الحيوان - المأكول والمشارب - الجن والغول - حانوت العطار - أخلاق الشطار - أصحاب الالهام - حيل اللصوص - الجوارى - القيان - غش الصناعات - السماكين - زنوج البصرة » الخ ٠٠ هذه تكاد تكون الى « التحقيق العام المشوق » أقرب وبموضوعاته ومضمونه أكثر التصاقا ٠

● وبعضها الثانى ، يكاد يكون اقرب من غيره - وان اختلطت حدوده مع حدود أنواع من المقالات وهو أمر طبيعى بالنسبة لهذه المادة بالذات - يكون أقرب الى ٠

#### ( أ ) التحقيقات الخاصة ٠

#### ( ب ) الدراسة الصحفية ٠

انها الموضوعات التى جاءت على كتب ورسائل ومصاحف عديدة تتناول على سبيل المثال لا الحصر : « طبقات المغنين - الأصنام - أخلاق الملوك - الأمصار - الملوك والأمم السالفة والباساقية - جمهرة الملوك - النرد والشطرنج - النبات والشجر - الزرع والنخل - المعادن - ٠٠٠ » الخ ٠

● وبعضها الثالث يقترب من تحقيق المشكلات ، خاصة ذات الطابع الانسانى ٠٠ انها مثل تلك الموضوعات وغيرها : « العادات والتقاليد - المعاملات السيئة - احوال المكدين - أصحاب العاهات الخلقية كالحول والعمور والعرجان والبرصان - المسكرون والزناة - الطفيليون - الغشاشون - فتيان السوء - الحمارة » الخ ٠

● وبعضها الرابع ، كان يأخذ أكثر من وجه من وجوه الشبه ، مع أكثر من نوع مختلط ، أو تختلط ببعضها ، من أنواع التحقيقات السابقة ، تماما كما يأخذ من أنواع مواد تحريرية أخرى ، لاسيما الأحاديث والمقالات ٠٠

● ويبقى بعد ذلك ، كلمات تتصل بكتابه الشهيرين « الحيوان والبخلاء » ما الذى يمكن أن نقوله عنهما ، فى ضوء هذا الفن التحريرى الصحفى نفسه ٠

— أما عن الكتاب الأول : « الحيوان » ، فإن الطابع الغالب عليه بأجزائه المختلفة أو « بمصاحفه » كما كان يطلق عليه صاحبه .. هذا الطابع هو أن بعضه الأول يمثل لونا من المادة الاخبارية المتصلة بأحداث الحيوان وصدامه بالانسان ، وأن بعضه الثانى يغلب عليه التأرجح بين مادتين أساسيتين ، وهما الدراسة الصحفية أولا ، والمقالات الموضوعية المتخصصة ثانيا ، أما عن الدراسة الصحفية ، فقد قلنا أنها نوع متطور من التحقيقات الصحفية ، لا سيما تلك التى تتناول موضوعات جذابة وشائقة ، وأما عن المقالات الموضوعية المتخصصة ، فنقول أنها هنا من نوع التخصص العام الذى نجده فى المجلات التى تحمل هذا الاسم « التخصص العام » وليس التخصص الدقيق أو الكامل ، ومن هنا ، فإن بعض هذه الكتابات كانت أيضا تقترب ، وتقترب بشدة من التحقيقات الصحفية ذات اتجاه التخصص العام ، وإلى حد اعتبارهما مادة واحدة .

— وأما عن الكتاب الثانى : « البخل » ، فإن الطابع الغالب على الجانب الأول منه يشبه تماما ذلك الطابع الغالب على مثيله فى الكتاب السابق — الطابع الاخبارى — كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ثم يأتى الخلاف بالنسبة للجانب الثانى الذى نجده يتميز باتجاهين ، ويقترب من نمطين صحفيين تحريريين .. النمط الأول هو نمط « المقال الكاريكاتورى » .. الذى سوف نتحدث عنه بعد قليل ، وأما النمط الثانى ، فيستحق أن يكون مثل أجزاء من « حملة صحفية » على هذه الطائفة الشحيحة ، لكنها حمالة « متنوعة » المواد ، ما بين خبر صغير وكبير وأحاديث قصيرة ، وموضوعات اخبارية ، متوجة فى النهاية بهذه الطائفة من المقالات الكاريكاتورية نفسها ..

ويبقى أن نقدم عددا من الأقوال التى تؤكد صدق وقوف مثيلات هذه الكتابات الجاحظية ممثلة لجذور أو طلائع التحقيقات الصحفية ، ونكتفى هنا بهذه الأقوال .

● أما الأول فهو عن محرر التحقيق الصحفى .. ذلك الذى قيل فيه وقى ماثلته :

— « العالم كله ميدان كاتيبها » (١١) ..

— « ٠٠٠ فهناك مكتبة كاملة عن صيد الحيتان والموضوعات البحرية  
قد تكون في متناول يديك » (١٢) .

— « ٠٠ لنفكر في عبارة التحقيق الصحفي كمصطلح مرن ، فنحن  
نستطيع أن نجعله يمتد بحيث يشتمل على مواد صحفية كالمقالات والشعر  
والأقصوصة والقصص المسلية والأعمدة والنماذج والصور والرسوم—  
الايضاحية والمقطوعات الهزلية » (١٢) .

٠٠ ونكتفى بهذا القدر ، لنقول :

● عما نقلناه عن المصدر الأول : أو لم يعتبر الجاحظ العالم كله  
هو ميدان كتابته وأن قلمه قد امتد الى جميع الصور الموجودة في مجتمعة ،  
أو التي سمع أو قرأ عنها ، أو ارتحل في طلبها ؟

● وعما نقلناه عن المصدر الثاني : ألم يحتفظ الكاتب لنفسه بمكتبة  
تتضمن كل الكتب التي ترتبط بمثل هذه الموضوعات المختلفة ، فضلا عن  
ارتياده للمكتبات البصرية والبغدادية وبكاكين الوراقين ؟ ثم من أين جاءت  
كتاباته عن الأسماك والحيوانات البحرية ، تلك التي زخر بها كتاب الحيوان ،  
ومنها ما جاء عن الحوت والدلفين وغيرهما ؟ ٠٠ إن ذلك يعتبر بمثسابة  
« أنموذج » لما يكون عليه أن يفعله « المحرر التالي » للتحقيق الصحفي .

● وعما نقلناه عن المصدر الثالث : وليس هذا ما كان طابع كثرة  
من الكتب الجاحظية تلك التي قلنا أن بعضها يمثل بصدق ، « جذور » وبعضها  
الآخر يمثل « مقدمات » أو « طلائع » التحقيقات الصحفية ٠٠

● وأما القول الثاني ، فهو لرائد من رواد التاريخ الأدبي ، تذكره ،  
ليقرر كل منا بعد قراءته ، ما الذي يختلف بين الأقوال الثلاثة السابقة في  
مجموعها ، وبينه ، إنه ذلك الذي يقول : « بالاضافة الى ما سبق من أقوال  
معائلة » .

« يمتاز الجاحظ بأنه لم يترك موضوعا عاما الا وكتب فيه رسالة أو  
كتابا . ومن يرجع الى رسائله وكتبه يجده قد ألف في النيات وفي الشجر

وفى الحيوان وفى الانسان وفى الجد وفى الهزل وفى الترك والسودان وفى المعلمين والقيان وفى الجوارى والغلمان ، وفى العشق والنساء ، وفى السنة وفى الشيعة والعباسة والزيدية والرافضة ، وفى حيل لصوص النهار وحيل سراق الليل وفى البخلاء واحتجاج الأشحاء ، وفى هذا ما يدل على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات فى خلاصة وبيان عذب ، (١٤) .

وإذا كان بعض المؤلفين قد أخذ عنا هذه الأفكار التى طرحناها ونحن نتحدث عن قصة هذا الفن بل وما اخترناه من كلام المؤلف السابق ، وحذف ما حذفناه ، دون إشارة ، فإننا نتهى هذه الفقرة ، بسطور من هذا البحث السابق لنا ، الذى وردت به هذه الاشارات وغيرها فى تعليق على امثال هذه الأقوال نفسها :

« ... ليس معنى ذلك أنه من الممكن أن نعثّر فيما كتب الجاحظ على بعض ما يمكن أن يقترب من التحقيق الصحفى ، أو ما يمكن أن نعهده تبعاً لفاهيم العصر : تحقيقاً صحفياً ؟ كتب بلغة عصره دون استخدام لكلمة تحقيق صحفى أو مراعاة للأشكال المعينة التى يراعيها الصحفيون اليوم والتى سبق الحديث عنهما ؟ وهل يكتب محرر التحقيق الصحفى أكثر من ذلك ، أو فى غير هذه الموضوعات ؟ » (١٥) .

❶ « وأما القول الثالث ، فهو لأحد المهتمين به ، ويكتابه ، وإن كان هنا يتناول أيضاً كتاب « الحيوان » . »

يقول الرجل عن هذا الكتاب : « إذا شاء القارئ أن يجد فيه مبحثاً علمياً عن الحيوان فقد خادعته نفسه » (١٦) .

ويضيف قائلاً : « فالجاحظ لم يكن اختصاصياً بل عالماً موضوعياً يُلمّ من كل فرع بطرف على نحو ما عرفه القرن الثامن عشر فى فرنسا مثلاً » (١٧) . يقصد بذلك الطائفة المسماة بـ « الأنسيكلوبيديين » : Encyclopediste وهم الذين قلنا أنهم كتاب الجلات الأولى . »

نعم ، أن يجد القارئ مبحثاً علمياً بالمعنى المعروف ، وإنما سيجد



« مبحثا صحفيا » أو « دراسة صحفية » .. وهى نتاج تطور طبيعى للتحقيق الصحفى التخصص ، كما سيجد « مقال تخصص عام » أو « مقالة موضوعية ، وهى من جنس مقالات المجلات وبعضها تنوب الحدود بينه وبين التحقيق الصحفى تماما ، والى حد اعتبار التحقيق والمقالة الموضوعية بمثابة اسمين لمادة تحريرية واحدة ، بل ان هذه المقالة وان التحقيق الصحفى لتختلط ألوانها اختلاطا شديدا مع « مقالات التخصص العام » أيضا ، لا سيما « التحقيقات العلمية » .. التى أشرنا إليها خلال السطور السابقة ..

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن « الجاحظ » ومقدمات وطلائع فن التحقيق الصحفى ، بعد أن تناولنا هذا الجانب أيضا فى أكثر من كتاب سابق لنا ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نحيل القارئ العام أو الدارس الى عدد من كتاباته الاجتماعية ، وتلك التى تناولت صور ومشاهد عصره ومشكلاته أيضا ، فسوف يجد فيها الكثير ، مما يقترب من هذا الفن « القياسى » فحسبنا ما ذكرناه منها .

#### ( د ) كتابات الجاحظ وفن المقال الصحفى :

##### ( ١ )

ويبقى بعد ذلك ، هذا الجانب من جوانب الإبداع الجاحظى ، أدبا وصحافة معا يبقى موقف كتابات الرجل من هذا الفن الصحفى المتقدم ، بأنواعه العديدة والمختلفة وأين تقع منها ؟ وما مستواها ؟ ، وما الخصائص التى ترتبط بها ؟ .. لكن من الطبيعى — قبل ذلك كله — أن نمر مرورا عابرا على بعض تعريفات هذا الفن ، وعلى ما تعنيه الكلمة نفسها ، واستخداماتها العربية ..

● ان المقصود بالكلمة .. الكلام المنطوق أو الشفهى الذى يقصد به أحداث تأثير معين ، ثم أخذت الشكل الكتابى أو المدون بعد ذلك ، للدلالة على ألوان الكتابات الأدبية المختلفة ، التى مارستها الكتاب خلال نهاية العصر الأموى ، وعلى مدى العصور التالية خاصة العباسى .. ومن هنا ، ومنذ العصر الجاهلى ونحن نطالع أمثال :

« مقالة صدق — مقالة حق — مقالة سوء — مقالة شر — ... الخ » ،  
وقد وردت شعرا من مثل قول أوس بن حجر :

« ويكفى المقالة أهل النحاس  
ل غير معيب ولا عائب »  
وكذا قول شاعر آخر :

« أم تجدون مقالة من ريكم  
جبريل بلخها النبي فقالها »

كما وردت في حديث « النبي محمد صلى الله عليه وسلم » وفي خطبة  
« عمر بن الخطاب » في بيعة « أبي بكر الصديق » حيث قال : « أما بعد فاني  
قاتل لكم اليوم مقالة قد قدر لي أن أقولها » ، ... الخ .  
● وأما عن تعريف المقال الأدبي فهو :

— « فن من فنون التأليف الأدبي يكتب نثرا ويعطى افكار المؤلف  
ومشاعره في أي موضوع من الموضوعات » (١٨) .

— « شكل أدبي يستخدم النثر عادة في توصيل الفكر من خلال طول  
معتدل يدور حول موضوع محدد ، ويكون الموضوع عادة اخباريا أو تعليميا  
أو تحليليا أي أنه يجمع بين الرأي والخبر » (١٩) .

● وأما عن تعريف المقال الصحفي فهو ، « بالاضافة الى ما سبق  
فكره عنه :

— « المقال اسم يطلق على الكتابات التي لا يدعى اصحابها العمق في  
بحثها أو الاحاطة التامة في معالجتها ، ذلك لأن كلمة مقال تعنى محاولة أو  
خبرة أو تطبيقا مبدئيا أو تجربة أولية » (٢٠) .

— « انشاء متوسط الطول يكتب للنشر في الصحف ويعالج موضوعا  
معينا بطريقة مبسطة على أن يلتزم الكاتب حدود الموضوع » (٢١) .

— « الأفكار والخواطر والآراء وجهات النظر المتصلة بفكر الكاتب

من جهة وينبض القراء واهتماماتهم من جهة أخرى ، وهو يكتب للنشر في الصحف والمجلات أولا ، في وقت معين ، وتختلف أطواله من مقال الى آخر ، وفق نوعية وطبيعة المادة المطروحة به ، ( ٢٢ ) .

— « المادة التحريرية التي يقدمها كاتب صحفي استنادا الى فكرة يحصل عليها من خلال حضوره الذهني الصحفي ومعايشته للاحداث وعلاقاته الاجتماعية واتصالاته وقراءاته وخطابات القراء ومكالماتهم الهاتفية وما يرد عبر الأثير وذلك في اطار يفسرها للقراء ويحيطهم بأبعادها ويوجههم بشأنها وقد يقوم بتأييدها أو معارضتها بطريقة تحمل طابعه في التفكير وأسلوبه في التعبير وذلك للنشر في الوقت المناسب متلائمة مع طابع الصحيفة او المجلة واهتمامات القراء وصالح الفرد والمجتمع » ( ٢٣ ) .

## ( ٢ )

أردت بهذه المقدمة الطويلة نسبيا ان أسجل هنا بعضا مما سبق تسجيله على صفحات كتاب لنا ، من تعريفات مختلفة للكلمة والنوعين من المقالات معا ، حتى يمكن ان نضع أيدينا على أهم معالمها معا ، وعلى الصلات القائمة بينهما ، لنرى بعد ذلك ، الى أي حد توفرت أمثال هذه المعالم للكتابات الجاحظية ، التي نقول انها يصح أن تكون من جذور ومقدمات وطلائع مقالات اليوم ..

اننا وبصرف النظر عن بعض ما يتصل بمعالم صحافة اليوم ، مما جاء في هذه التعريفات وكذا ما يتصل باستخدام بعض المصطلحات الجديدة ، التي ترتبط بالجوانب الصحفية العصرية .. وفي ضوء ما يقدمه لنا التراث الجاحظي ، المتعدد والوفير ، نستطيع أن نقول :

● انه بصرف النظر عن جذور بعض المواد التحريرية السابقة التي كان الطابع الانتاجي الجاحظي فيها يغلب عليه طابع الجمع والنقل ، وما يسبقهما من رصد ، وإثبات ثم تحرير فان الطابع الانتاجي الجاحظي هنا يختلف كثيرا إذ هو طابع ذاتي تعبيرى كامل ، وصحيح انه يقوم على نفس عناصر الانتاج والمصادر المختلفة ، الخاصة ( كدقة الملاحظة ) والبشرية ( من أخذ عنهم من علماء ورواة وقصاصين ) والخطوطة ( القرآن الكريم

والحديث النبوي والكتب والرسائل المؤلفة ) . . . لكن تبقى بعد ذلك رؤيته الذاتية الخاصة في كل ما سبق وحصل عليه ، بل ولماذا لا أقول ، رؤيته الموضوعية أيضا ؟ . . . ومن هنا ، من خلال الرؤيتين ، الذاتية والموضوعية تحقق ما نقول من انتاج النوعين من المقالات معا ، الأدبية والعلمية لينبثق منهما في أحيان كثيرة - رغم نشر الصحف لهما أيضا - ما نطلق عليه تعبير مقدمات المقال الصحفي ، تلك التي ارتفع مستوى بعضها الى حد كبير . . .

● وفي تعبير آخر نقول ، انه اذا كان الجاحظ في مادته التي اقتربت من العنوان السابقة بمثابة هذا « الجامع الماهر » . . . فانه هنا ذلك الرجل نفسه وكذا المفسر والمعلق والمحلل والناقد والمؤلف معا .

● وأما عن كتابتها نثرا وأنها تعطي أفكار المؤلف ومشاعره في أي موضوع من الموضوعات - كما يقول تعريف الموسوعة الثقافية - فقد كانت كذلك عند الرجل أيضا ، بل يمكننا القول ، من خلال النتاج الجاحظي أيضا ، أنها - المقالة الجاحظية - جمعت أبرز الخصائص التي جاءت ضمن التعريفات الأخرى ، التي تلت التعبير السابق بل وتجاوزتها الى غيرها من خصائص أخرى ومثال ذلك ، بالاضافة الى ما سبق :

- الطول المعتدل ( في أحيان كثيرة والمتغير وفق الضرورة ) .
- الموضوع المحدد ( في أغلب الأحوال ) .
- الطابع الاخباري والتعليمي والتحليلي ( اضافة اليها الطابع العلمي والتفسيري والنقدي والفكاهي والطابع العام أيضا ) .

— والرجل لم يدع العمق في بحثه دائما ، أو الإحاطة التامة به ، وإنما أشار الى بعض ما يكتنفه أحيانا من مثالب ، ونبه الى ما يمكن أن يقوم من ثغرات ، مرتبطة بمصادره ، خاصة البشرية ، والمترجمة . لكن هذه المادة المقالية الجاحظية ، كانت أيضا وفي كثير من الأحوال تكاد تمثل « محاولة » لتناول موضوع جديد على الكاتبين من أمثاله . أو لم تعرفه غير القلة منهم لصعوبته ، أو قلة مصادره ، أو غرابته ، أو توقع عدم احتفاء الناس - خاصة عليا القوم من أمراء ووزراء وأثرياء وهم السذجين يهيمون هؤلاء بالدرجة الأولى - بينما كان « جمهور » الكتابة الجاحظية يتكون من هؤلاء وغيرهم وحتى من عامة القراء أيضا ، الذين أقبلوا على ألوان انتاجه لأنه طرق

موضوعات تهمهم ، وهى فى نفس الوقت كتابة تعكس تجربة « ميدانية أولية »  
أو « تطبيقا مبدئيا » كما يقول أحد التعريفات السابقة .

— واكثر المواد الجاحظية التى اقتربت من هذه المقدمات والطلائع  
المقالية الصحفية كانت كذلك مما استند الى فكرة حصل عليها من وراء هذا  
الحضور الذهني الأنبيى والصحفى معا ، وكذا من خلال معاشته للاحداث  
وعلاقاته الاجتماعية واتصالاته وقراءاته .. كما جاءت كذلك تحمل طابعه فى  
التفكير وأسلوبه فى التعبير ..

ونكتفى بهذا القدر من الاشارة الى بعض خصائص المادة المقالية  
الجاحظية ، فى ضوء التعريفات السابقة ، وننتقل الى موضوع آخر هو :

### ( ٣ )

.. وقد يسأل سائل : ما هى أبرز أنواع المقالات الحالية ، التى تقرب  
المادة الجاحظية منها ، حتى ليصبح ان تعتبر من مقدماتها أو طلائعها ، وليس  
من جذورها فقط ؟ ... دعونا نتقدم خطوة نحو المادة المقالية الصحفية ،  
فى ضوء هذه الكتابات الجاحظية ، ليكون السؤال هو : هل اقتربت بعض  
أنواع هذه الكتابات اقترابا شديدا من مقالات اليوم والى الحد الذى يجوز  
معه ان نطلق عليها امثال هذه التعبيرات الحديثة ؟ ، وما هى هذه الأنواع ؟

.. ومرة أخرى نعود الى المعين الجاحظى نفسه ، وبطبيعة الحال ، قلن  
يمكننا العودة اليه كله ، وانما نتوقف عند بعضه فقط لنقول :

اننا — كبداية — نستعرض معا أبرز أنواع المقال الصحفى ، لتكون  
الخطوة القادمة هى رؤية أيها أقرب الى كتابات الرجل ؟ أو أيها كانت كتابات  
الرجل أقرب اليه ، حتى لتصبح من جذوره ، أو تتجاوزها الى المقدمات  
والطلائع ، أو يتجاوز هذه بعضها ، الى أن يصبح مثل مقالات اليوم ، شكلا  
ومضمونا ؟

ان أهم هذه الأنواع هى • من وجهة نظرنا ومما قمنا بحصره  
وثبته ، ( ٢٤ ) •

- المقال الصحفي العام :
- المقال الافتتاحي أو الافتتاحية .
- مقال التعليق أو التعليق الصحفي .
- المقال التفسيري .
- المقال القائد الموقع .
- مقال العمود أو مقال الفقرة القصيرة .
- مقال التجربة الخاصة « اليوميات الصحفية » . . الضوابط والتأملات .
- المقال التحليلي .
- المقال العرضي أو الاستعراضى .
- المقال المختصر .
- المقال المتخصص .
- مقال الفكاهة .
- المقال المهني « فى غير الافتتاحيات » .
- مقال المناسبات .
- المقال الإعلاني .

وإذا كانت هذه هي أهم أنواع المقالات الصحفية وليست جميعها ، وإذا كانت بعض هذه الأنواع ، تمثل أصدى تمثيل وأفضله ما أطلقنا عليه تعبير « الأدب الصحفي » ، وإذا كانت حدود بعضها تمتد وتتشابه مع حدود البعض الآخر ، حتى يصعب الفصل بينها ، كما يتفرع بعضها — من جهة أخرى — إلى أنواع جديدة إذا كان ذلك كله مما يتصل بهذه النوعيات المختلفة ، فإتينا نقول :

● أما عن هذه الأنواع نفسها ، وإين تقف منها ألوان الكتابة الجاحظية . أو المادة الجاحظية المقالية ، فإتينا نقول بشأنها ، إتنا ومن خلال النظرة الفاحصة والدقيقة ، وفى ضوء أبرز خصائص كل نوع من أنواع هذه المقالات الصحفية ، وما يتصل به من ملامح وأبعاد . . وما يفرق بين كل نوع منها ، نلاحظ أن بالامكان القول . بأن المادة الجاحظية لها وجودها ، ولها كياناتها . ولها موقعها ضمن ما ورد بهذه القائمة السابقة لكن — من زاوية أخرى — فإن هذا الوجود نفسه ، وهذا الكيان ذاته ، وهذا الموقع الذى احتلته . لم يكن وفى جميع الأحوال وبالنسبة لجميع ألوان الكتابة الجاحظية على درجة واحدة . أو يحتل نفس المساحة ، أو يقترب اقتراباً نمطياً ، وفى جميع الأحوال من هذه الأنواع من المقالات الصحفية . .

هو وجود نعم ، اقتراب أيضا . لكنه اقتراب يختلف من مقال لآخر ؛ او من نوعية لآخرى ، شدة أو ضعفا .. ومن هنا نقول ، أن هناك أربع درجات من الصلة القائمة بين أنواع هذه المقالات الصحفية من جانب ، وبين اللون الكتابية الجاحظية من جانب آخر ، وهذه الدرجات هي :

● مقالات تفصل بينها وبين النتائج الجاحظية مسافة بعيدة ، وذلك بوضعها الحالي ، وصورتها التي تعرفها عليها صحافة اليوم ، على الرغم من وجودها في الدائرة الجاحظية .

● مقالات اقتربت منها الكتابية الجاحظية اقترابا معقولا وطيبا .  
● مقالات رقت الكتابات الجاحظية في نفس مراقعيها واحتلت نفس مساحاتها بحيث تعتبر هذه الأخيرة بمثابة مقدماتها أو طلائعها الكاملة ، أو بدايتها الحقيقية ..

● مقالات شكلت وضعها آخر ، حيث اختلفت صلتها بالكتابة الجاحظية . من مقال لآخر من بين نوعيتها الواحدة ..

#### ( ٤ )

لانتزك هذه الأنواع ، ولا تلك الصلات ، دون وقفة أخرى تزيد الأمر وضوحا وتحاول أن تضيف جديدا مفسرا الى الكلمات السابقة ، ومن هنا ، ودون أن تطغى نوعية على نوعية أخرى ، وبإعطاء كل ما تستحقه من اهتمام ومساحة أيضا . من هنا نتوقف لنقول :

● ● أما عن النوع الأول من أنواع هذه المقالات ، وهي التي تفصل بين المادة الجاحظية وبينها مسافة بعيدة ، على الرغم من وجودها ، و - على الأصح - وجود ما يشبهها في الكتابات الجاحظية .. فقد كانت هي وباختصار شديد يتلاءم مع هذه الصلة نفسها .

#### ( ١ ) المقال المختصر :

ويعني ما يقدمه محرر من المحررين أو كاتب من الكاتبين من تقديم لمادة كاتب آخر بحيث يغلب عليها طابع الاختصار لأهم ما جاء بالمادة الأولى ،

وهي في أغلب الأحوال ، كتاب جديد لكاتب عربي ، أو كتاب مترجم لأجنبي ، بحيث يقوم المحرر بتقديم أهم أفكاره ، وعرض أهم القضايا التي تناولها ، بينما يقتصر دوره عند هذا الحد ، ولا يتعداه إلى نقد هذا الكتاب نفسه ، أو الحكم له أو عليه ، وواضح أن الهدف منه هو هدف تعريفي ثقافي بالدرجة الأولى . يرتبط ارتباطا شديدا بأحدى صور النشاط الصحفي الحديث ، في مجال الأدب أو السياسة أو الاقتصاد أو الفن ، خاصة المجال السياسي ، لاسيما تلك الكتب التي تؤلف عن أحداث الساعة أو قصص حياة الزعماء ، أو مذكراتهم ، وما إلى ذلك كله ، وفي الغالب يؤلفها أقرب الناس إليهم ، أو بعض من التقى به من الصحفيين أو هم أنفسهم . ومن هنا فأننا لم نجد - إلا قليلا - أمثال هذه المقالات المختصرة ، في ألوان الكتابة الجاحظية . وإن وجد ما يشبهها في بعض رسائله السياسية ، أو التي تناولت الشعوب والأقوام المختلفة . وواضح أيضا ، أن ذلك يختلف عن مجرد تقديمه لبعض أفكار الآخرين ، أو ما قاموا بطرحه أو تناوله من قضايا خلال كتبهم أو رسائلهم . مما كان يأتي عرضها ، في ثانيا أو تضاعيف كتاباته المختلفة ، لأن الفرق كبير بين هذه الصور ، وبين المقالات المختصرة ، التي تقرر لحالها ، ويكون الاختصار هو الأصل والأساس فيها ، كما ترتبط هي بخصائص هذا المقال الفنية ، شكلا ومضمونا ، وجميعها كانت تفصل بينها وبين كتابات صاحبنا مثل هذه المسافة البعيدة .

#### ( ب ) مقال المناسبات :

وهو أيضا ، بالشكل الذي تعرفه به صحف ومجلات اليوم ، لم تعرفه الكتابات الجاحظية ، إلا قليلا جدا . وحتى في هذا القليل ، فإنه كان يقف على هامش مناسبة سياسية ، أو تتصل بالفرق الإسلامية عامة ، والمعتزلة خاصة . بينما تتعدد صور هذا النوع من أنواع المقالات وتتسع حتى لتغطي جميع المناسبات الموجودة في العالم كله ، ولعل ذلك يعود إلى سببين أساسيين . أهلهما : سبب ظرفي ، زمانى ، حيث لم يعرف عصر الرجل ، مثل ذلك العدد الكبير من المناسبات التي نعرفها الآن ، والتي شاعت أيام الدويلات الإسلامية . ثم أضاف لها « العصر الفاطمي » كثيرا ، فضلا عن المناسبات العصرية ، القائمة اليوم ، أو « المراسم » التي تتناولها كتابات الكاتبيين



مثل : « الربيع - الصيف - دخول المدارس - الأوكازيونات - الأعياد القومية - الأعياد الدينية - .. الخ » وأما ثانيهما : فهو أن الصحافة مضطرة على سبيل التغطية الكاملة لمثلثات هذه المناسبات ، أن تتناولها بمختلف الأطر والأساليب التحريرية .. ومنها المقال ولم يكن الحال كذلك على عهد الرجل ، ولا كانت هذه اهتمامات أوعيتهم الصحفية التي انتشرت في عهدهم .. باستثناء الأعياد الدينية فقط التي كانت لها أطرها الروتينية المحددة .

#### ( د ) المقال الاعلاني :

.. وبالمثل كان عهد الرجل ، وعهد هذه الأوعية الكتابية التسجيلية أو الصحفية « جوازا » المعروفة في عصره ، وكان موقفه وموقفهم من هذا النوع من أنواع المقالات التي تكتب بهدف الاعلان عن نشاط أو مؤسسة أو جهاز أو سلعة معينة ، أو من أجل تسويق انتاج كل منها . حيث لم تشارك هذه الأنشطة بالشكل الذي كان معروفا على عهدهم أو عرفه العصر العباسي وقت حياة الجاحظ ، ومن ثم فإن هذا النوع يخرج عن مجال النشاط الكتابي الجاحظي .

وواضح بذلك ، بالاضافة الى هذا السبب الزمني ، أن انتشار هذه الأطر الفنية التحريرية الاعلانية ، سببه الرغبة في الافادة من امكانيات واساليب هذه الفنون والأطر في اجتذاب القارئ ، ورفع درجة قابليته للقراءة ، واضفاء بعض ملامح الفكر المقالى على المادة الاعلانية ، كمحاولة لزيادة الاهتمام عليها . فتحدث المادة أثرها ، في جمهور القراء والمستهلكين عن طريق اصطناع مثل هذه الأساليب .

● ● أما عن النوع الثاني من أنواع هذه المقالات .. المقالات التي اقتربت منها الكتابة الجاحظية اقترابا معقولا وطيبا .. فقد كان من أبرزها ، هذه كلها .

#### ( ١ ) المقال الصحفي العام :

على الرغم من أن كتابات الجاحظ في مجموعها ، كانت تأتي ضمن

إطار كتاب أو جزء من كتاب أو رسالة أو ما شابه ذلك ، وأن هذه كانت لها .  
وحدتها الموضوعية كما يبدو لأول وهلة ، وكما هو المفروض أن يكون ،  
استناداً إلى عنوان الكتاب ، أو عنوانات مصاحفه أو فصوله ، على الرغم  
من ذلك كله ، إلا أن المتتبع لآثار الجاحظ الكتابية في كثير من الأحوال ،  
يجد أنها كانت ترتبط بمثيلات هذه الخصائص :

— التنوع داخل إطار أو حدود المادة الواحدة ، والخروج من  
موضوع إلى موضوع أو وكما يقول التعبير الصحفي الحديث من فكرة إلى  
فكرة .

— جعل الصور العديدة ، القرينة والبعيدة ، المباشرة وغير المباشرة  
هي المجال الإطاري للمادة الجاحظية ، والدائرة التي تدور فيها الكتابات ،  
على الرغم من ارتباطها الظاهر ، أو على الورق فقط ، بموضوع أساسي .

— التوالد الكبير للفكرة الواحدة ، وتفرعها إلى أكثر من فكرة  
جزئية ، قد تؤدي بدورها إلى أفكار عديدة أخرى قد تجد لها مجالاً داخل  
المجال الإطاري للمادة الجاحظية الواحدة .

— اختراق ذلك كله ، بالتعبير البدع عن الذات أحياناً .

— تقديم « استعراض » لثقافة الجاحظ وقراءاته من هنا وهناك .

— تقديم بعض الصور القلمية المرسومة جيداً ضمن إطار المادة  
نفسها لبعض الشخصيات التي يعرفها أو يتحدث عنها موضوعه أو يذكره بها

— المرور ببعض « المحطات » السياسية ، أو المذهبية ، أو تلك التي  
تتصل بعدد من المشكلات القائمة والمحتملة .

— إعطاء الأمثلة والشواهد العديدة من تلك التي تسعفها بها قراءاته  
العديدة والمتنوعة .

وليس شرطاً — بعد ذلك كله — أن تأتي هذه الموضوعات ضمن إطار مادة  
واحدة في جميع الأحوال . بل الحق يقال أن كثرة منها كانت تجيء ضمن

أطار موضوعات جاحظية عديدة ، لتذكرنا بأن كتاباته كانت صورة عصره ، وأن العالم الذي عاشه الجاحظ ، كان هو ميدان قلمه الذي عبر عنه أصدق تعبير ، وانتقل خلال مدنه وقصوره ومساجده وجوانيته ودهاليزه وحضره وبدوه وصوره الوردية والبيضاء والرمادية ، بل والسوداء أيضا ٠٠

ولعل ذلك كله ، يتحدث ليقول لنا ، أن هذا النمط الكتابي الجاحظي - وبصرف النظر عن المسميات والأطر التحريرية الجديدة ومتطلبات الصحافة الحديثة - هذا النمط الكتابي الجاحظي ، قد اقترب كثيرا من ذلك الذي أطلقنا عليه تعبير « المقال الصحفي العام » ، الذي يعد الآن من أبرز أنواع المقالات الصحفية ، وأكثرها نشرًا وانتشارًا وسيطرة على الصفحات ، يكتبه محررون وكتاب وأدباء وعلماء ، لكنه لا يتوقف عند اهتمامات أحدهم فقط ، وإنما يضرب في ميادين عديدة ، ويخرج من موضوع إلى آخر ، وهكذا ، حتى في اختلاطه أحيانا بغيره من أنواع المقالات ، حتى في بعض جوانب الجاذبية ، حتى في عمومية قارئه ٠٠ كل ذلك نجده يتمثل إلى حد غير قليل ، في أمثال هذا النمط الكتابي الجاحظي ٠٠

#### ( ب ) المقال العرضي أو الاستعراضي : « الاستطرادي » :

ولا نقصد به هنا « المقال العرضي » بفتح العين والراء ، والذي يطلق عليه أيضا المقال « النزالي » بمعناه المعروف والمتجه إلى امتشاق القلم ومنازلة الكاتب الخصم ، وإنما نقصد بالمقالات « العرضية » بتسكين الراء ، أي بمعنى الاستعراضية وهي مقالات صحفية شهيرة ، تعرفها الصحافة الأجنبية ، خاصة صحافة المجلة ، وفيها يقوم الكاتب بعمل « عرض » للقارئ أو « استعراض » يقدم خلاله عرضا كبيرا لفكرة أو لأكثر من فكرة ، يتبعها بموضوع يتناول مشكلة أدبية أو ثقافية أو اجتماعية ، ثم يخرج منها إلى عرض مسهب لقضية من القضايا التي تشعل باله أو بالأسد القراء أو الأصدقاء أو المعارف ، وقد يعرج على جانب من الجوانب الانسانية أو السياسية أو المذهبية أو تلك التي تتصل بالشعراو النثر ، أو بشاعر أو بناثر أو شخصية ما ٠٠ وهكذا وقد يركز ولكن في أسهاب واستطراء على صورة واحدة من هذه الصور ، أو مشهد أو شخصية أو قضية أو فكرة واحدة ، بحيث تستغرق المجال كله بمادتها المسهبية وجوانب الاستطراء فيها ، تلك التي ( الجاحظ )

يكاد الرجل « يقتلها بحثا » لكن الرباط الوحيد الذي يربط بينها جميعا ، الموضوعات المختلفة أو الموضوع الواحد والذي تشد إليه أيضا ، ويحرص الكاتب عليه هو رباط العرض ، فهو يعرض لهذه كلها ويتوقف عند حسد العرض ، دون أن يتعداه الى مجال آخر ، لكن من الطبيعي أن يتداخل العرض أحيانا مع غيره من « القوالب الفنية » ، أو يتشابه مع بعضها لاسيما « الوصف » فهما — تقريبا — وجهان لعملة واحدة ، لكن مع بقاء الطابع العرضي الغالب والمسيطر . . .

ومن الذى يستطيع أن يقول . أو يزعم ، أن كتابات الرجل قد خلت من هذه التى تقف بالقرب من هذا النمط المقاتلى ؟ وبالقرب الشديد أيضا ؟ أو من ذا الذى يمكنه أن ينكر وجود هذه الخصائص فى العديد من صور كتاباته ، تلك التى زخرت بها مؤلفاته العديدة ؟ . . بل لماذا لا نقول أن أكثر مادة الرجل الكتابية هى من هذا النوع الاستعراضى الاستطرادى وأن نحن قمنا بـ « فك » عدد من اجزائها لوجدناها بهذه المقالات شديدة النسب !!

#### ( د ) المقال التحليلي :

والتابع لكتابات الرجل ، خاصة فى رسائله المتنوعة ، وكتبه الأقل حجما من موسوعاته من مثيلات « الحيوان — البيان والتبيين — البخل — وما شابهها . . المتابع لهذه النوعية من النتاج الجاحظى من لدن :

« الصرحاء والهجناء — مفاخرة السودان والحرمان — حق الخنولة والعمومية — أقسام فضول الصناعات — القحطانية — العدنانية — العرب والموالى — الزيدية — الرافضة — خلق القرآن — الوعد والوعيد — الحجة فى تثبيت النبوة — العثمانية — العباسية — فخر السودان على البيضان . . . » وغيرها :

❶ يجد أن بعضها الأول ، وكما أشرنا الى ذلك من قبل يمت الى « الدراسة الصحفية » أو « البحث الصحفى » بصلة نسب قوية .

❷ ويحد أن بعضها الثانى يمت الى « مقالات التخصص العام » يمثل هذه الصلة .

● ويجد — فى النهاية — أن بعضها الثالث ، لا يقل صلة عن سابقه ، ولكن بماذا ؟ بالمقال التحليلى نفسه ، أو المقالات التحليلية ذاتها .

وإذا كان النوع الأخير من المقالات هو ما يهمنى بالدرجة الأولى خلال هذه الفقرة ، فأننا نضيف الى ذلك قولنا . .

ان من أبرز خصائص هذه النوعية من المقالات ما يلى :  
— حاجة هذا الموضوع التى يستشعرها الكاتب هنا الى الإيضاح والتفسير من جانبه ، لصالح هذا الرأى العام أيضا .

— أن الموضوع تكون له جذوره وامتداداته وأصوله كما تكون له تشعباته العديدة التى يصعب على القراء فهمها دون قيام أحد المتربين والفاهمين بشرحها والقاء أكثر من ضوء عليها ، فى صيغة العارف بها — ويتطوراتها وحقائقها ودقائقها أيضا .

— ان الموضوع يحتاج من كاتبه الى أكثر من اضافة أخرى بعضها يقدم فيه مادة مقارنة بما حدث أو وقع فى مكان أو زمن آخر ، أو ما تناوله كاتب أو مؤلف آخر ، بما فى ذلك من رؤية للواقع المكانى ،

— وأنه يحتاج الى هذه المقدرة التحليلية من كاتب خبير يلم بأفكاره كلها ويخرج منها بعدة شواهد وأمثلة تتصارع فيما بينها وتتشابك ، وتتوالد ، ثم تقدم صوراً ومفاهيم وتوقعات جديدة ، فى صورة نتائج هامة ، أنت إليها المقدمات التحليلية السابقة فى مجموعها . .

— دون أن يتجاهل خلال ذلك كله ، تقديم رأيه فى ذلك الذى يتوصل اليه ، وأن يكون الخط التحليلى هو الهام والمسيطر من أول المقال حتى آخره .

هذه — باختصار — بعض معالم تلك النوعية من المقالات الصحفية الحديثة ولعله مما يذكرنا بهذه الصلة بين بعض الكتابات الجاحظية وأمثال هذه المقال ما تقوله أستاذة فى الفن الصحفى عن معرفة الصحافة العربية بها ، على يد الكاتب السورى فرح أنطون فى مجلة الجامعة . ومن أمثلة ما كتبه تحت عنوان : مستقبل العامل والفلاح فى مصر . . حيث بدأ بشرح سبب اختياره لهذا الموضوع فقال : لا تنصرف المجلات للسياسة البحتة ،

ففى مباحث الجرائد الكبرى غنى عن مباحث المجلات فى هذا الشأن» (٢٥) ٠٠  
انه يوضح الصلة بين الدراسات والبحوث الصحفية من جانب ، وبين هذه  
المقالات التحليلية من جانب آخر ، وبدورنا نقول ، والصلة بالمكتابات الجاحظية  
من هذه النوعية أيضا ٠٠

وتضيف الباحثة نفسها عن محرر هذا النوع من المقالات ومما لا يتعد  
كثيرا عن الجاحظ واستعداده لكتابتها وأغلبها - ولا أقول كلها - سياسى  
الطابع :

« ما كل محرر صحفى يستطيع أن يقوم بهذا النوع من المقالات الصحفية  
- لديه الكثير من المصادر الهامة فى مجال العمل الصحفى بداخل البلاد  
وخارجها - المقدرة للادراك الكامل للبعد الحقيقى للاحداث وصانعيتها وأن  
يدارم على القراءة والاطلاع لمعايشة أصول القضايا الهامة فى كافة المجالات،  
خاصة مجال السياسة ومجال الاقتصاد - أن يكون ملما بأسس البحث العلمى  
وأصول استخراج الحقائق من بطون مراجعها الأكاديمية ودورياتها  
المتخصصة - بمعنى أن يكون فى المقال نسامة الابحاث العلمية - الخ » (٢٦) ٠

الا يأخذ الرجل - كما رأينا - من هذه الجوانب بنصيب كبير ؟  
باستثناء هذه المسميات الحديثة ، التى لم يكن عهده أو عصره يعرفانها ؟ ٠٠  
لكن ، اذا كانت الشواهد الجاحظية نفسها هى خير الأدلة على صحة هذا  
الاقتراب الجاحظى من المقالات التحليلية ، فلا يسعنا الا أن نحيل القارئ ،  
على مثيلات هذه الرسائل السابقة خاصة ذات الطابع السياسى والاجتماعى .  
والآن نقدم جزءا من واحدة من هذه المقالات .

● ● جزء من مقال عريض - استعراضي - فى بعض المسائل اللغوية،  
ومحاولات أصحاب اللغات أخفاء عيوبهم واصطناع كلمات أخرى ، لا تظهر  
هذه اللغة : « الجاحظ - البيان والتبيين - ١ » ٠٠ مختارات .

« ولما علم واصل بن عطاء انه اللغ فاحش اللغ . وأن مخرج ذلك  
منه شنيع وأنه اذا كان داعية مقالة ، ورئيس نحلة . وأنه يريد الاحتجاج على  
أرباب النحل وزعماء الملل وأنه لابد له من مقارعة الأبطال . ومن الخطب  
الطوال . وأن البيان يحتاج الى تمييز وسياسة . والى ترتيب ورياسة . والى

تمام الآلة ، واحكام الصنعة ٠٠٠٠ - وعلم واصل أنه ليس معه ما يتوب عن  
البيان التام ، واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ، لنحو ما أعطى الله تبارك  
وتعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسايد ، مع لباس التقوى  
وطابع النبوة ، ومع المحنة والاتساع في المعرفة ، ومع هدى النبيين وسمت  
المرسلين ، وما يغشيه الله به من القبول والمهابة ، ولذلك قال بعض شعراء  
النبي صلى الله عليه وسلم :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بدايته تنبيك بالخبر

ومن أجل الحاجة الى حسن البيان ، واعطاء الحروف حقوقها من  
الفصاحة ، رام أبو حذيفة اسقاط الراء من كلامه ، واخراجها من حروف  
منطقة ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله . ويتأني لستره والراحة  
من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل ٠٠٠٠ الخ .  
وكانت لثغة محمد بن شبيب التكلم بالغين ، فاذا حمل على نفسه ، وقوم  
لسانه أخرج الراء ، وقد ذكره في ذلك أبو الطروق الضبي فقال :

عليم باببدال الحروف وقامع

لكل خطيب يغلب الحق باطله ٠٠

ثم يعود الى حديث واصل قائلا : « وكان اذا أراد أن يذكر البر قال :  
القمح أو الحنطة ، والحنطة لغة كوفية . والقمح لغة شامية ، هذا وهو يعلم  
أن لغة من قال بر ، أقصح من لغة من قال قمح أو حنطة ٠٠ - وقال عمر بن  
الخطاب رحمه الله أترون أني لا أعرف رقيق العيش ؟ لباب البر بصـغار  
المعزى - وسمع الحسن رجلا يعيب الفالونق ، فقال : لباب البر بلعاب النحل  
بخالص السم ٠ ما عاب هذا مسلم - وقالت عائشة : ما شبع رسول الله  
صلى الله عليه وسلم من هذه البرة السمراء حتى فارق الدنيا - وأهل الأمصار  
أما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف في  
الفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر ٠٠٠ الخ » (٢٧) .

● ● والآن يأتي دور حديثنا عن « النوعية الثالثة » من هذه المقالات،  
وهي التي قلنا أن كتابات الجاحظ قد اقتربت منها بشدة ، وإلى أدنى حد  
ممكن . لتمثل بعض هذه الكتابات الجاحظية ، الطلائع المتقدمة جدا لهذه

المسميات الحديثة . أو الأطر والأشكال المقالة التي تعرفها صحف اليوم ومجلاته ، على اختلاف أنواعها ، كما يكاد البعض الآخر من هذه الكتابات الجاحظية ، أن ينطبق على الحالي من نوعيته تمام الانطباق — كتعبير رجال المنطق — ولا كانت أكثر الشواهد تؤكد أن الرجل لم يسبقه الى هذه الكتابات كاتب آخر على عهده ، أو في عهد قبل ذلك العهد ، بنفس القدر من الكم والكيف معا . أو بنفس الدرجة من الوضوح والاكتمال ، التي تبدو في كتابات الجاحظ . . . فانه لا يسعنا الا أن نشيد بهذه الأسبقية له أيضا .

على أن هذه النوعية الثالثة ، انما تتمثل في :

#### ( ١ ) المقال النقدي : « الصحفي »

ونعني به هنا أولا ، وقبل غيره من الأنواع ، النقد الأدبي الصحفي أو نقد النصوص الأدبية ، أو القطع أو الأعمال الفنية الأدبية كما يظهر على صفحات الجرائد والمجلات وليس كما يقول « تاريخ الكلمة » . . . وحيث كانت قبل هذه الاستخدامات . وما تزال أحيانا تستخدم « بمعنى الذم والاستهجان » ( ٢٨ ) . . . بالإضافة الى معناها الأخير الشهير الذي وردت عليه في المعاجم العربية أي بمعنى ، تمييز الصحيح من الفاسد والجيد من غيره من الأموال . . . أو النقود ، بالمعنى « المصرفي » . . . قال الشاعر يصف راحلته :

تنفى يداها الحمى في كل هاجرة

نقى السدراهم تنقاد الصياريف :

« قالصيرفي عندما ينقد الدراهم يعزل الجيد عن الرديء » ، والزائف عن غيره ولذا شبه الناقد بالصيرفي ، ( ٢٩ ) .

« وهناك معان أخرى كثيرة ، واستخدامات عديدة لهذه الكلمة ، فحسبنا ذلك ، وحيث يقوم الكاتب الناقد بالنسبة للعمل الفني الأدبي ، بمثل ما يقوم به الصيرفي بالنسبة للمجتمع لديه من الأموال والدراهم . »



مقال النقد هنا بمعنى تلك الأفكار المكتوبة التي يتناول فيها الكاتب أو المحرر - الناقد هنا - عملا فنيا أدبيا - أو غير أدبي - من خلال تسليط الأضواء على جوانبه وقياسه بمقاييسه ، واستخدام معاييرها الفنية المختلفة ، من أجل إبراز ما فيه من عناصر الإيجاب أو السلب ، والجمال أو القبح ، وتقدير ما لهذا العمل من قيمة استنادا إلى ثقافة الناقد ، ودراساته ومقدرته وحسه النقدي والتحليلي ..

وإذا كان « جمهور المستمعين » للشاعر الجاهلي يمثل طلائع النقد ، الذين كانت تحكمهم مقاييس خاصة ، تستند إلى المؤثرات البيئية . وإذا كانت تلك المقاييس قد أخذت منحى اسلاميا يهدي من الدين الحنيف ، فأختلفت منزلة الشعراء والخطباء ، استنادا إلى المعيار الديني الاسلامي ، ومدى ارتباط العمل الأدبي بالدعوة الاسلامية فقد اضيفت إلى هذه كلها مقاييس ومعايير ومقومات جديدة ، ارتبطت بالفرق والحزب المتعددة ، وكذا بالمذاهب الاسلامية عبر المسافات والدول ، فاتسعت الدائرة النقدية وتعددت الاتجاهات والمذاهب ، لكنها لم تبلغ ذلك التعدد الذي شهدته خلال العصر العباسي ، انعكاسا للحياة الجديدة نفسها ، ومادخلها من عناصر وأقوام وثقافات وتقاليد ومظاهر وصور ، وما صاحب ذلك كله من تطوير للفنون الأدبية القائمة . يتأثير ذلك ومن نشأة فنون جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ثم تعدد الافكار والموضوعات والأغراض والقضايا التي تناولها الكتاب والشعراء وإذا كانوا يقولون ، أن تطور الأدب يتبعه تطور النقد ، ذلك الآخر الذي يقوم على الأول ، فقد كان هذا هو ما حدث ، بينما وجدنا طوائف عديدة من « النقاد » كان من أهمهم ، ومما يقترب من النقد العلمي أولا ، أو النقد الأدبي فقط ، وليس الأدبي الصحفي :

● النقد من « اللغويين » الذين اهتموا بالجانب اللغوي في العمل الأدبي وما يتصل به .

● النقد من « الكلاميين » أو « المتكلمين » الذين يجمعون بين الجانب السابق ، وجانب الاحتكام إلى العقل وأعمال المنطق والحجة ، وفتح باب المناقشة الجدلية .

● وإلى جانب هؤلاء فقد كان منا بعض النقاد من « الرسميين »

إذا صح التعبير .. ويمثلهم هنا بعض الخلفاء والأمراء والأثرياء وكبار التجار من أصحاب « المجالس الأدبية » .. الى جانب موظفى الدواوين الرسمية ، ممن كانت لهم صلة بالنتاج الأدبى والعلمى فى عصرهم ، من أمثال دواوين « الرسائل » و « الإنشاء » و « صاحب الخير » .. و « الترجمة » ..

● ثم أخيرا هذه الطائفة من « النواقة » الذين أظهروا عناية شديدة بارتياح هذه المجالس والمكتبات ودكاكين الوراقين يسعون وراء هذا النتاج ويرصدونه ، ويتناقلونه بروح الهاوى وعين الخبير ، وفكر الناقد فى أحيان كثيرة .

وهكذا وجد الأدباء من يتناول نتاجهم بالنقد ، ووجد من يطالب بأجادة الكتابة وباعطائها - لغة وأسلوبا - حقها من جميع الوجوه خاصة من حيث اللفظ والمعنى ، ووجد من يشارك فى تقويم الخطباء ، ومن يعقد المجالس أو يؤلف الكتب لنقد الشعراء ، أو للموازنة بين شاعر وآخر الى غير ذلك كله .

والحق ، أن من يقرأ التراث الجاحظى ، ليتوقف كثيرا عند أكثر من جانب من جوانبه ، لاسيما فى كتابه الأشهر « البيان والتبيين » ، وفى عدد آخر من رسائله وكتبه .. حيث يجد أنها بدورها تمثل سلاسل منتظمة ، أو غير منتظمة من مقالات نقدية تنازلت كافة هذا النتاج الأدبى الموجود فى عصره والتي تميزت - ومما يقربها هنا من مقالات النقد الصحفى ، وبشدة - بهذه الأمور :

— أنها جمعت بين المعايير العديدة التى كان يطبقها النقاد من الطوائف الأربع السابقة .

— أنها عكست ثقافة لعوية وأدبية عامة وليست متخصصة فقط ، كتخصص الناقد اللغوى مثلا .

— أنها عكست حسا صحفيا كبيرا ، فى اختيار مادة النقد ، وموضوعات هذه التناولات من المعين الأدبى ، قديمه ومعاصره ، وحيث كانت فى معظمها من الموضوعات النقدية الساخنة ، والتي تحد قبولا جماهيريا ، والتي لها قصة مع غيره من النقاد أو تلك الجذابة المسوقة .

— أنه لم يضع هذه المادة في أشكالها الكلاسيكية التي كان يضعها قديما غيره وإنما غلب عليها الطابع الجاحظ في الاسترسال وحسن العرض، والانتقال من الفكرة إلى الفكرة ومن الموضوع إلى الموضوع ، والتجديد في المادة من أن آخر بما يجذب القارئ ويمسك به حتى النهاية .

— أن « مقالاته » النقدية كانت تشهد كثيرا من التنوع في الموضوعات والطرق والأساليب النقدية ، بما لم يحدث عند « النقاد » المتخصص تماما ، أو عالم النقد ، إذا صح التعبير ، وبما يؤكد جانب نقده الصحفي .

— أن أغلب مقالاته النقدية كانت تتجه الاتجاه التطبيقي العام ، الذي يعنى بالحكم على المادة نفسها وما لها وما عليها ، على نحو ما يفعل نقاد الصحف الآن عند ظهور الإصدارات الجديدة .

— أنه لم يكن يهتم كثيرا بالجزئيات الصغيرة ، فلا يحكم لكاتب أو عليه من خلال فقرة أو عبارة ، أو عدة سطور ، ولا يحكم لشاعر من خلال بيت واحد أو قصيدة واحدة . على نحو ما كان يفعل النقاد في عصره ، وإنما كان ينظر إلى العمل كله ، أو إلى الأعمال في مجموعها ، وصحيح أن نقده للعبارات وال فقرات وال أبيات وال قصائد وارد ، لكنه لم يكن الأساس ، وكان يعرض له على طريقة « الشيء بالشيء يذكر » .

— أنه في كتابه « البيان والتبيين » أيضا ، كان أول من استخدم تعبير « البلاغة » بمعناها الدقيق ، كما يقول بذلك أستاذنا « شوقي ضيف » . وقد انعكست نظريته هذه على ما تناوله ، حتى يمكننا القول ، أنه ساهم في وضع معالم « المقال النقدي » الأدبي والصحفي معا ، ولعله قد عبر عن ذلك ، في صياغة من الإنب الصحفي عندما قال في الكتاب السابق نفسه .

« قيل للفرسي ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الرسل . وقيل لليوناني ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وقيل للرومي ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداوة والفرارة يوم الإطالة ، وقيل

للهندي ما البلاغة ؟ قال وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجبة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم قال : ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة ، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك وأحق بالنظرة ، ( ٣٠ ) .

.. ونقدم هنا أجزاء أخرى من هذه المقالات النقدية « الصحفية » مما جمعناه من كتبه ورسائله :

فهو يقول مثلاً في نقد لغة الأعراب : « إن الأعراب يفسد نواذر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع الكلام إنما أعجبه تلك الصورة وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة ، فاندخلت على هذا الأمر - الذي إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه - حروف الأعراب والتحقيق والتثقيب ، وحولته إلى صور المفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » ( ٣١ ) .

ويقول كذلك بشأن الترجمة والمترجمين : « .. فمتى كان رحمه الله تعالى ، ابن البطريق ، وابن ناعم ، وأبو قره - ابن قره - وابن قهر وابن الباهلي ، وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ؟ ومتى كان خالد مثل أفلاطون ؟ ولابد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في نفس وزن علمه في نفس المعرفة ، ويتبين أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية ، ومتى وجدناه أيضاً تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها وتعترض عليها ، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ، وانما له قوة واحدة ، فإن تكلم بلغة واحدة ، استفرغت تلك القوة عليها وكذلك إذا تكلم بأكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ... الخ ، من كتاب الحيوان ج ١ ص ٢٨ .

( ب ) مقال التخصص العام « مقال مجالات التخصص العام » :

.. وذلك هو النوع الثاني ، من هذه الكتابات الجاحظية ، التي تمثل .

أقرب كتاباته الى بعض أنواع المقالات الصحفية الحديثة ، تلك التي تكون من نفس النمط ، ومن نفس المعين ، وتأخذ نفس الطابع أيضا . .

ويعود الأصل في اطلاق تعبير « التخصص العام » عليها ، وكذا تعبير « مقالات مجلات التخصص العام » لعدة أسباب في مقدمتها .

— أنها متخصصة من حيث المعلومة ، أو المفروض أن تكون كذلك ولكنها ليست متخصصة من حيث القارئ .

— أنها لا ترتفع بمستواها الى درجة التخصص العلمي الدقيق الذي نشهده في الكتب العلمية ، الجامعية مثلا ، أو في مجلات هذا التخصص الدقيق .

— أن أفضل مكان لنشرها هو « مجلات التخصص العام » أي تلك التي تقدم بعض جوانب التخصص مما يستطيع متابعته القارئ العام المثقف أو نصف أو ربع المثقف أيضا ، ثم المجلات العامة ، والصحف الأسبوعية ، خاصة على صفحاتها وأركانها الخاصة .

— أن كاتبها يوازن بين أشياء عديدة ، من بينها تقديم المعلومات العلمية غير المتعمقة تماما ، والتي لا تهم المتخصصين وحدهم ، وحتى هذه فإنه يجيد اختيارها من بين اكدها ما يتجمع عنه ، ويقدمها في قالب مشوق ، وفي لغة واضحة ، وأسلوب جذاب . .

— وهو يدعمها بالقصص والتشبيهات ، ويوالى الربط بينها وبين جوانب تهم الناس في عهده ، أو تهم قراء مجلته .

أي أنه يكون أقرب الى ذلك النمط الأسلوبى القالى المسمى « العلمى الخلاب » فهو علمى نعم ، لكنه يوضع في قالب أدبى ، ويعبر عنه بأسلوب أدبى . . لكنه — مقال التخصص العام — ليس أدبيا تماما من حيث توجهاته الصحفية ، ولغته الأدبية الصحفية معا ، ومن حيث اهتماماته كذلك . .

وإذا كانت هذه المقدمات كلها مما يتصل بعدد من خصائص هذه النوعية

من المقالات من جانب ، فانها - من جانب آخر - مما يعتبر علما على هذه النوعية من المقالات الجاحظية ، التي عرفها الرجل ، وأجاد كتابتها وزخرت بها كتبه العديدة لا سيما كتابه الأشهر « الحيوان » . ولكنه ليس وحده وإنما كانت هناك بعض الكتب الأخرى المماثلة ، أو في تعبير آخر - ومرد ذلك الى عبقرية الرجل نفسها - أن مقالات التخصص العام التي كتبها لم يكن مجالها علم الحيوان فقط ، وإنما ضربت في أكثر من تخصص من بينها التاريخ والجغرافية والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق ، وحتى الطبيعيات والرياضيات أيضا . وما أكثر مادة هذه الكتب والرسائل الا مجموعات من مقالات من هذا النوع الأخير أكثر منها مقالات علمية كاملة .

— « كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية » تاريخ .  
— « كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال - الاعتزال وفضله » في الفلسفة والاعتزال .

— « كتاب خلق القرآن - كتاب آي القرآن - كتاب الرد على اليهود » في الدين الاسلامي .

— « كتاب مراتب التجارات - كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعشاب » في الزراعة والاقتصاد .

— « رسالة في الكيمياء - كتاب « المعادن » في الكيمياء الى آخر هذه القائمة ، وغيرها من الكتب ، فضلا عن كون أكثرها ذات موضوعات متنوعة شتى . . . لكننا نقصد هنا - بالدرجة الأولى - تلك التي زخرت بهذه النوعية من المقالات . . . التي يطلق الآن على بعضها أحيانا « المقالات الموضوعية »

يؤكد ذلك كله ، وكما اشرنا الى بعضه من قبل :

● أن الرجل لم يكن عالما كاملا ، في علم بعينه من هذه العلوم التي تتناولها كتاباته ، على أي شكل من أشكالها ،

● أنه كان يعرف من هم قراء مابته ، أنهم ليسوا طلاب العلم وحدهم ، وإنما العامة والخاصة معا . . .

### ● ويمكن أن نضيف إلي ذلك كله :

— حسن انتقاء الرجل لمادته التي تهم الجميع من بين عشرات المواد العلمية المطروحة أمامه .

— المزج في أحيان كثيرة بين هذه المادة وبعض المواد الأخرى بقية التخفيف من حداثتها والترويح عن القارئ وإعطائه فرصة التقاط أنفاسه . . حتى الملح والطرائف استخدمها أيضا ، وكان ذلك معنى قول من تناولوه ، وتكرار ذلك ، أنه كان « يمزج الجد بالهزل » . . حتى في كتاباته السياسية ، والعلمية ، كان يفعل ذلك .

— الأسلوب السهل الواضح الذي كان علما على هذه الكتابات . . وهكذا على النحو الذي اصططنه بعده بقرون طويلة عدد من الكتاب أو « المحررين العلميين » وكذا « الموسوعيين » . . نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر . وبعضهم من كبار العلماء : « يعقوب صروف — فارس نمر — د . أحمد زكي — د . عبد الحليم منتصر — د : عبد المحسن صالحي — د . أحمد أحمد بدوي — د . درويش الفار — . . الخ » وغيرهم . .

وحتى تقترب المسافة بين هذه الكتابات التي قلنا أنها تتشابه كثيرا ومقالات مجلات « التخصص العام » ، وقبل أن تقدم طرفا منها على سبيل المثال ، نقرأ سطورا عن هذه النوعية من المجلات من كتاب آخر لنا — في عالم المجلة — تلك التي كان يمكن أن تتوزع عليها مثل هذه المسادة الجاحظية ، أو كان يمكن — لو أن الرجل يعيش الآن بيننا — أن يصبح من أبرز محرري عدد كبير منها ، ولا أقول مجلة واحدة فقط ، كما هو الحال بالنسبة لمحريها الآن . . ان هذه المجلات هي :

« النوعية الثانية من عالم المجلات والتي أطلق عليها البعض — المجلات المتخصصة — لكننا نرى أن هذا التعبير تنقسه الدقة والواقعية ، وبالنظر إلى مادتها المنشورة على الصفحات نفسها ، ومن أجل ذلك كان توقنا عند مفهوم التخصص حيث نرى أن هذه المجلات : لا ترتفع بمستوى مادتها إلى درجة أو درجات التخصص العلمي الدقيق والمنشود ، وحتى هذا المستوى نفسه من الاهتمام الخاص لا يكون على نفس الدرجة بالنسبة لجميع موادها — والطابع

الغالب على محرريها أنه يكون من محرريّ المجلات عامة ، وفي الوقت نفسه من محرريّ المجلات من ذوي الاهتمام الخاص الذي لا يرقى في معظم الأحوال إلى مستوى التخصص أو التخصص الكامل - وهي أيضا لا تتوجه إلى قارئ بعينه دون الآخر - وإن تسال إليهم عدد من المتخصصين في مادة المجلة ، فإذا حاول أحدهم أن يضع نفسه موضع القارئ العالم المتخصص وربما الدقيق فإنه سوف يكتشف أن المسافة بعيدة تماما بين مادة هذه المجلة التي تهتم بهذا الجانب وبين معارفه ومجالات تخصصه . \*

إن الجاحظ هو مثل كتاب هذه المجلات ، هو كاتب « مهم » وليس عالما ولا مؤرخا ولا جغرافيا . - وهكذا تقول كتاباته . لا أقول المتخصصة ، ولكن من ذوات التخصص العام ، الذي تمثل هذه المقالات ، أهم أنواعه . \*

وربما كان باستطاعة الرجل أن يكتب كتابة متخصصة بقيقة التخصص ونحن لا ننكر عليه ذلك ، ولا امكانية قيامه بها ، أو استطاعتها . لكن الرجل كان يعرف كيف يختار وماذا يقول وإن يتوجه وخصائص قرائه . وهذه أخرى تؤيد دعوانا على قيام جانب الصحفي ، إلى جانب شخصيته الأدبية . \*

والا فلماذا لم يكتب المقال المتخصص الدقيق ، مادام يستطيعه ؟ لماذا لم يتجه إلى علم واحد فقط ؟ لماذا لم يصبح عالما فقط ؟ أو فيلسوفا فقط ؟ أو جغرافيا دون غيره من الرجال ؟ أو مؤرخا دون الاقتراب من مجالات أخرى ؟ أو من علماء اللغة ؟ أو من رجال السياسة أو الاقتصاد أو الزراعة أو الكيمياء المعدودين ؟ وقد عرف كل ذلك ، وتناوله ، وكان باستطاعته التخصص في أحد فروعهم ؟

قد يقول قائل - ردا على ذلك - أنه أحد هؤلاء الموسوعيين المعروفين ، والذين يجمعون بين معارف عديدة وعلوم متنوعة ؟

وأقول أولا - ليس إلى هذا الحد من الكثرة والتعدد .  
وأقول ثانيا - وماذا عن حسن اختياره وتوجهاته واهتماماته ولغته ، وكلها تؤكد جانب صحافته . \*

وأقول ثالثا - وحتى هؤلاء من الموسوعيين ، فإنهم لم يكونوا علماء فقط ،



ولكن على أكتافهم ويمساهماتهم العديدة ، قامت المجلات ، أو قامت «صحافة  
المجلة » . كما يحدثنا تاريخها ، وقبل أن تتداخل عوامل التطور والتشابه  
العديدة ، التي أثرت في مسيرة المجلة . شكلا ومضمونا :

على أن العودة الى الينابيع الجاهلية ، نغترف منها بعضا مما يذكرنا  
بهذه النوعية هي عودة واجبة :

● ● جزء من كتاب « الحيوان » يقدم بعض مآثره التي تقرب كثيرا  
من مقال « التخصص العام » أو « مقالات المجلات » ذات التخصص العام  
أيضا « الجاحظ : الحيوان - كلمات مختارة » .

#### ( الورل وعدم اتخاذه بيتا )

« ومن كلام العرب أن الورل إنما يمنعه من اتخاذ البيوت أن اتخاذهما  
لا يكون الا بالحفر ، والورل يبقى على برأته ، ويعلم أنها سلاحه الذي به  
يقوى على ما هو أشد بدنا منه ، وله ذنب يؤكل ويستطاب ، كثير الشحم » .

#### ( قول الأعراب في مطايا الجن من الحيوان )

والأعراب لا يصيدون يربوعا ، ولا قنفذا ولا ورلا من أول الليل ، وكذلك  
كل شيء يكون عندهم من مطايا الجن كالنعام والظباء .

ولا تكون الأرنب والضبع من مراكب الجن لأن الأرنب تحيض ولا تفصل  
من الحيض ، والضبع تركب أيور القتلى والموتى إذا جفت وانتقخوا  
وأغظوا ثم لا تفصل عندهم من الجنابة . ولا جنابة إلا ما كان للإنسان فيه  
شر ، ولا تمتطي القروء لأن القرد زان ولا يغتسل من جنابة

فإن قتل أعرابي قنفذا أو ورلا من أول الليل ، أو بعض هذه المراكب لم  
يأمن على فحل أبله ، ومتى اعتراه شيء حكم بأنه عقوبة من قبلهم ، قالوا :  
ويسمعون الهاتف عند ذلك بالنعى ، وبضروب الوعيد .

#### ( قول الأعراب في قتل الجان من الحيات )

وكذلك يقولون في الجان من الحيات ، وقتل الجان عندهم عظيم ، ولذلك

رأى رجل منهم جانا فى قعر بئر . لا يستطيع الخروج منها ، فنزل على خطره شديد حتى أخرجها ، ثم أرسلها من يده فانسابت ، وغمض عينه لكيلا يرى مدخلها . كنه يريد الاخلاص فى التقرب الى الجن ، قال المازنى : فأقبل عليه رجل فقال له : كيف يقدر على اذاك من لم ينقذه من الأذى غيرك ؟ » .

#### ( د ) المقال الفكاهى الكاريكاتيرى :

.. . . . . وإذا كانت الكتابات الجاحظية النقدية وذات التخصص العام من تلك التى اقتسرت بشدة من مادة المقالات الحديثة . على النحو الذى أشرنا اليه .. . . . . فإن هذه النوعية مجال الحديث خلال هذه الفقرة هى أكثر أنواع الكتابات الجاحظية اقترابا من صورها وانماطها واشكالها الحالية ، التى تعرفها الصحف والمجلات اليوم .. . . . .

بل اننا - فى واقع الأمر - لنظلم هذه الكتابات الجاحظية الفكاهية والكاريكاتورية كثيرا ، ان نحن اقتصرنا على هذا الوصف بالاقتراب الشديد فقط . أو بأنها اقربها اليها دون اضافات أخرى ، لأن الواقع التاريخى الأدبى والصحفى نفسه يقول أن هذه الكتابات الجاحظية انما تمثل أصنق تمثيل :

- دور الطلائع بالنسبة لهذه المقالات الأدبية الصحفية معا .
- دور الريادة بالنسبة لفن الكاريكاتير الكتابى شكلا ومضمونا .
- أي أنها الأقرب حتى من هذه النوعية السابقة وبكثير

ولن يحدث أن تجد نوعية أخرى من الكتابة الجاحظية ، اقرب منها الى هذا الفن وبالمثل لن يحدث أيضا أن تجد فى مادة الصحف الحديثة ، ما هو اقرب الى كتابات الرجل من هذه النوعية أيضا .. . . . .

ولكن كيف .. . . . .

اننا نقدم لذلك كله ، ونضيف كذلك الى ما سبق ان قدمناه من قبل عند حديثنا عن « الحاسة الفكاهية » عند الرجل ، نقدم لذلك بعدد من الأقوال ، من بينها . على سبيل المثال لا الحصر :

● ان رائدا من رواد فن التحرير الصحفى ، كتب يقول : « ربما كان

الجاحظ أول كاتب إسلامي عالٍ فن الكاريكاتور في تاريخ النشر العربي ، وقد ترك لنا الجاحظ أعظم رسالة أدبية كتبت في هذا الفن ، ولعلها أعظم رسالة إلى اليوم ، فنحن لا نعلم لها نظيراً فيما كتبه أهل هذا الفن - سواء في الأدب أو في الصحافة - حتى اليوم .. وموضوع رسالة الجاحظ هو المخزية من كاتب من كتاب الديوان اسمه أحمد بن عبد الوهاب (٢٢) ، ويضيف هذا الرائد قائلاً في مقدمة تناوله لهذا النوع من المقالات : « ولا يتسع المقام لذكر شيء عن هذه الرسالة التي كتبها الجاحظ ، وإن كنا نعتقد أن الكاتب العباسي الكبير - يعتبر بحق - واضعاً لأساس الكاريكاتور في الأدب العربي » (٢٣) .

● وإلى مثل هذه الرسالة أيضاً ، وصلت بها بهذا الفن ، أشار كاتبنا الكبير « توفيق الحكيم » أكثر من مرة ، في كتبه ومقالاته ، وكان من بينها - مثلاً - هذه الكلمات : « .. ومن مفاخر تراثنا أن نرى الجاحظ يرسم بثره ما يرسمه هذا الفن المعاصر الذي نسميه الكاريكاتير » (٢٤) .

.. وبعد أن يقدم لنا سطوراً من هذه الرسالة - الترييع والتدوير أيضاً - يضيف قائلاً : « .. وعلى هذا النحو يمضي الجاحظ يصور لنا ذلك الرجل تصويراً لا يريد به هجاءه بقدر ما يريد اضحاكنا منه ، وهذا هو روح فن الكاريكاتير » (٢٥) .

● .. وفي كتاب سابق لنا - المقال الصحفي - أشرنا إلى هذه النقطة ، وكان من بين ما قلناه عن كاتب المقال الفكاهي والكاريكاتوري : « .. وحيث يكون لكاتبه أن يفعل كما الرسام الكاريكاتيري .. أي لا يكتفى بإظهار العيوب ووضع يد القراء عليها ، وإنما يقوم بتوضيحها وإبرازها وتجسيما والمبالغة فيها والتهويل من شأنها أيضاً ، وذلك على النحو الذي وضعه رائد هذا الفن الأدبي الصحفي - معاً - الأديب الصحفي الجاحظ .. وعلى نحو ما فعله من كتاب الجيل السابق : عبد العزيز البشري - فكري أباطة - أحمد حافظ عوض » (٢٦) الخ .

● وفي كتاب آخر لنا أشرنا إلى هذا اللون من الكتابات الجاحظية بقولنا :

« البساطة والسهولة والظرف وخفة الروح والظل ، جميعها من لزوميات ( الجاحظ )

أكثر المجلات العامة ، ومن خصائص أساليب كتاباتها ، ومن صور طبائعها البارزة ، أو التي ينبغي أن تبرز على صفحاتها وبين سطورها - أي أن الكاريكاتير هنا ليس رسما بقلم الفنان أو ريشته والوانه ، وإنما هو مقال تعبيرى ساخر متهم ، وما أحرأه بذلك أن يكون مادة هامة من مواد المجلات عامة والسياسية والأدبية والفكاهية خاصة - نعود فنقول أننا لا نعرف كاتباً تميز بها ، وأصبحت كتاباته هي المقدمة في هذه الأنواع ، وارتبطت به وارتبط بها مثل الكاتب الباحث المحقق الصحفي أبى عثمان الجاحظ « (٢٧) » .

•• ولعل من خلال كل ما تقدم ، يتضح لنا ، بما لا يدع مجالاً للشك ، هذا الدور الرائد للكتابات الجاحظية ، بالنسبة لهذه النوعية الأخيرة من المقالات ، ومن ثم ، فلا مجال للقول بأن هذه الكتابات تعتبر من قريبات الشبه بمادة اليوم ، أو أنها تعتبر من مقدماتها ، فهذا القول ، أو ذلك لا يمثلان حقيقة موقع المقال الكاريكاتيرى عند أبى عثمان ، ولا أهميته التاريخية الأدبية والصحفية معا ، بل الصحيح أن يقال أنه « مبتكره » وأنه « رائده » وأنه ينطبق على مثيلاته الآن، تمام الانطباق، بل لعل كتابات الرجل في هذا المجال، تكون أفضل بكثير ، من العديد من تلك الكتابات الكاريكاتورية التي نطالعها اليوم ، وذلك من زاوية الحس الأدبى والصحفى والفكاهى معا ، فضلاً عن خصائص عديدة أخرى ارتبطت بها هذه المقالات ، وكانت علماً على كتابات هذا الرائد •• وحيث يأتى الآن دور التوقف عندها ، عند خصائص المقال الكاريكاتورى الجاحظى ، وذلك قبل أن ننتقل لتقديم إحدى صوره ، أو أجزاء من هذه الكتابات نفسها •

#### خصائص المقال الكاريكاتورى عند الجاحظ :

نعم •• ارتبطت مقالات الجاحظ الكاريكاتورية ، بعدة خصائص مميزة ، وملامح تعرف بها ، قبل أن نتحدث عنها ، نقول ، انطلاقا مما سبق ، واستكمالا له أيضا •• أن هذه الخصائص نفسها ، ولكونها ترتبط بالمقالات الرائدة من هذه النوعية ، فإنها تمثل - حتى الآن - أبرز الأسس والمبادئ ، التى ينبغى أن يراعيها كاتب مثل هذه المقالة ، وكذا ما ينبغى أن تشملها المقالة نفسها من مضمون •• أن أهم هذه الخصائص هي :

١ - حسن اختيار الأشخاص والموضوعات والصور التى تستحق التوقف

عندها وتناولها على هذه الصورة من المقالات ، فلا بد من أن يكون هناك ذلك « الشيء » الذى يستأهل أن يكتب عنه ، وأن يتهم به ، وأن يسخر منه ، وأن تبرز تفاصيله ، وأن يجرى تجسيم عيوبه ، وتضخيم ثغراته فالمقال الفكاهى الكاريكاتورى عنده ، لا يتناول أى شيء ، ولا أى انسان وانما لابد أن يكون هناك السبب والدافع والمؤثر .

٢ - أن الضحك ، ولو أنه ركن أساسى فى المقال ، إلا أنه لم يكن الهدف الوحيد له ، وانما كانت تتشابه معه فى أحيان كثيرة ، وتتقدمه فى أحيان أخرى عدة أهداف رأى الرجل بحصافته وخبرته وحسه ، أنها يمكن أن تتحقق بهذا الأسلوب ، فهو يضمكنا من الأشخاص حتى لا يكثر أمثالهم ، ويضحكنا من الصور والمشاهد حتى تبرز ويضخم جانبها السلبى فيرعى أصحابها ، ويوجه سخريته الى النقائص والعيوب والمثالب ، فالضحك عنده أسلوب وطريقة ووسيلة فهو نوع من « النقد الاجتماعى » لا الأدبى هنا ، وكثيرا ما اتجه الى هذا المعنى ، وفى ذلك يقول أحد الذين اقتربوا من هذا الجانب ، أكثر مما اقتربنا « . فلم تكن فكاهاته عارية عن الهدف أو فارغة من المضمون بل كثيرا ما كانت تأتى مصحوبة بالتلميح الهادف أو التعريض اللاذع ، مما يجعلها تأخذ طابع المعالجات الفكرية المحبوبة ، والتي تسمو - فى جوهرها - على اللهو الفارغ أو العبث الرخيص » .

٣ - بقية التوجه لما يتناول وبراعة تصويره مجسما : فهو - كرسام الكاريكاتير الماهر - كان يحسن النقاط ذلك الجانب فى صورة الشخص ، أو تلك الزاوية فى الموضوع ، أو هذا الركن من أركان المشكلة أو القضية ، قبل غيرها من الجوانب أو الزوايا أو الأركان الأخرى ، ثم يتوجه إليها بقلمه ، ليصورها فى براعة ، من حيث التجسيم والتكبير والمغلاة ، حتى وأن كانت هذه كلها تتصل بهيئة رجل ، أو تصرف كاتب ، أو سلوك أحد العمال . ثم إن التصوير هنا يحسن اختيار ما يشبه به هذا العضو ، أو تلك الهيئة ، حتى يبعث على الضحك ، والضحك الكثير أيضا .

٤ - أنه لا يوجد فى الأشخاص من لا يمكن أن يتأله قلمه بهذا الأسلوب ، طالما أن به ما يستحق أن يضحك منه القارئ ، وأن يتهم عليه الناس ، فلا فرق هنا بين غنى أو فقير ، أو وزير أو حقير ، فالجميع - إذا صح التعبير - سواسية أمام ذلك القلم الكاريكاتورى ، وعلى هذا فقد وجدنا أن الجاحظ

قد تناول في مقالاته هذه بعض نوى المناصب العليا في مجتمعه ، ولم يخش يسهم ، ولا سطوتهم ، طالما أن فيهم هذه الزاوية التي تستأهل ، تماما كما تناول غيرهم ممن كان يحفل بهم المجتمع البصري ، والمجتمع البغدادي على عهده ٠٠ وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فقد قدم في كتابه « البخل » عدة صور لرجال نفهم منه أنهم كانوا في مرتبة الوزراء ، لكن شحهم كان الزاوية التي نفذ منها الى تناولهم ، وبالمثل رسم لنا صورة رائعة لقاضي البصرة — وكان الناس يرتعدون منه خوفاً — فكان كسله هو الجانب الذي رآه جديرا بتناوله ، كما كانت أعمال والاعيب وأكاذيب بعض القصاص هي المنفذ اليهم ٠٠ ولا ننسى أن رسالته الرائعة في « التزييع والتبوير » قصد بها اضحاك الناس من « أحمد بن عبد الوهاب » وهو كاتب الديوان في عهده ، أي بمنزلة « وزير الثقافة » أو « الاعلام » أو هما معا ٠٠ الآن ، وربما اقترب من منزلة رئيس الوزراء ، أي كان على رأس الجهاز الإداري التنفيذي بالدولة ، في عهد الخليفة العباسي الواثق ، وصحيح أنها لم تكن السخرية فقط ، وإنما للرسالة جوانبها الأخرى ذات الفوائد الأدبية والعلمية ، التي جاءت ضمن سطورها ، ولكن ما كان الرجل ليكتبها إلا لأنه وجد في هيئته ، ورأى في تصرفاته ما يستأهل هذا التناول الفكاهي ٠٠ بعد أن يمر خلال البوتقة الجاحظية طبعاً ، أو يصهره ، كاريكاتوريا ٠٠

ومن الغريب هنا ، أن الجاحظ قد تهكم حتى على نفسه أيضاً ، وأكثر من مرة بسبب نتوء سواد عينيه ، وعندما كان يقوم ببعض الأعمال متسرعاً أو مضطراً ، وتكون نتيجة من النوع السلبي ، أو عند تعرضه لما يستأهل ذلك ٠٠

٥ — براعة الوصف : فانت تقرا هذه المقالات ، أو حتى أجزاء منها ، فيدهشك حقاً ، أن يكون الرجل — والموضوع فكاهي — على هذه الدرجة الكبيرة من براعة الوصف ، خاصة وهو يركز على هذه الناحية بالذات ، أو هذا الجانب البارز من الصورة ، أو هيئة الرجل ، أو صفاته ، ليتخذ منها مدخله الى الاضحاك والتهكم والسخرية ، ثم تأخذ بك تلك التشبيهات الكثيرة والدقيقة معا ، التي تصاحب هذا التناول ٠٠ مما أسعفته فيه موهبته العجيبة ، ومقدرته الغريبة ، على تقديم هذه الأوصاف كلها ٠٠

٦ — ثراء المضمون وتنوعه : وإلى جانب ذلك كله ، وعلى الرغم من أن

عنصر الفكاهة كان هو الجانب المسيطر على أمثال هذه الكتابات ، إلا أنه - شأن كل كاتب ماهر - كان يقدم خلال هذه الكتابات الجاحظية بعض ما يعكس ذلك القدر الكبير من الثقافة ، العامة واللغوية والفلسفية والتاريخية . . . خلال سطورها ، بل كان - كطريقته - يخرج أحيانا إلى بعض الجد ، أو يتناول بعض الأمور الجارية ، ممزجة بهذه الفكاهة نفسها أو يعود إلى إطلاق النكات التي يعرفها أو سمع بها ، أو راح هو يؤلفها مما يتناسب واللحظة التي يصورها ، أو الشخصية التي يتناولها ، بل لقد كانت بعض هذه المقالات ، تحتوي على كثير من الأفكار الجانبية الجادة التي تدهش القارئ ، بل أنه - حتى في هذا الجانب - كان يغلب طريقته بالاستطراد ، والخروج من موضوع إلى موضوع ومن فكرة إلى فكرة - دون اعتداء على الشكل أو الاطار المقالى ، ومن هنا ، فقد عاشت هذه المقالات وسوف تعيش ما أراد لها الله ذلك بينما اختفت كتابات فكاهية أخرى ، ولم يبق منها شيئا ، لأنها لا تستحق البقاء ، ومن هنا أيضا . . . فقد قيل عن رسالة « القريض والتدوير » كثيرا ، حتى وصفتها بعض المستشرقين - وهي أنموذج للمقالة الكاريكاتورية الطويلة - بأنها « أشبه ما تكون بدائرة معارف » (٢٩) . . . هكذا قال عنها البارون « كوادي فو »

٧ - واقعية اللغة وجاذبيتها : وإن كنا لا نريد أن نستعمل الآن في ذلك كثيرا ، إلا أننا نشير إلى أن هذه الواقعية التعبيرية ، وإن كانت عنصرا جوهريا من عناصر كتابته كلها وعلما عليها خلال جميع مراحلها وأغراضها ، إلا أننا نشير إليها هنا بالذات ، لأنها تمثل جانبا من هذه الجوانب الهامة التي تؤكد عبقرية الرجل ، وزوايا مقدرته الأدبية والصحفية معا ، فامر عاды أن يكون الرجل واقعا في لغته عندما يكتب مادة إخبارية ، أو تلك التي تقترب من التحقيقات الصحفية ، أو الأحاديث ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، ولكن إن يعود الرجل ليكتب كل هذه الملح والطرائف ، والفكاهات وحتى النكات الممتعة ، لأن المقام هو مقامها والمقال هو مقالها ، والمجال هو مجالها أيضا ، فإن ذلك - ولا ريب - يكون مبعث دهشة وأعجاب معا ، فهل يكون صاحب « الحيوان » و « البيان والقيمين » و « الاعتزال وفضله » و « آي القرآن » و « الرد على اليهود » و « الاستبداد والمشاورة في الحرب » . . . وغيرها ، هو نفسه صاحب هذه الواقعية التعبيرية التي جاءت ضمن سطور كتاباته الفكاهية والكاريكاتورية ؟

ولعل ذلك يكون سببا في أنه راح يحسب لها من جوانب الجاذبية

والطرافة والمتعة الذهنية الشيء الكثير ، مما اكسب هذه الكتابات شهرة منقطعة النظير ، حتى اعتبرت أفضل ما صور جـوانب عصره السلبية ، والماجنة ، والفكهة ٠٠ معا ٠٠

٨ — ٠٠٠ وخصائص أخرى عديدة ، ارتبطت بهذه الكتابات المقالية الكاريكاتورية الجاحظية نفسها ، لا يتسع المجال هنا لذكرها على وجه مسهب ، لكننا نشير إليها في عجالة ٠٠ ان من أبرزها :

— النزوع في بعض الأحيان الى تحدى الخصم الذى يضحك القارئ منه ، ودعوته الى نزاله ٠٠

— تقديم بعض المحاورات الفكهة التى تثرى المضمون ، وتزيد من جرعة الاضحاك ٠٠

— حسن اختيار اللحظة والموقع من المقال الذى يقدم فيه جوانب التجسيم والتهويل ، أو جوانب السخرية المباشرة ، أو جوانب النكتة المؤلفة ، أو التى ترد على ذهنه ٠٠

— الاستعانة دائما بالقصص القصيرة والأقاصيص والمادة الاخبارية التى تتصل بهذه الشخصيات ومراقفها وتصرفاتها ، وخص من صياغتها ذل أسلوب قصصى وفكه معا ٠

— الرضوح الكامل الذى يعين على الفهم السريع والاستمتاع بجوانب مقالاته الكاريكاتورية والتى تدخل الى عقل القارئ من أقصر طريق ٠

— تقديم ما يعكس ظرفه وخفة ظله ، وما يصور طابع المرح الذى يتمتع به الرجل من آن لآخر ، وبطريقة محببة ، يقبل عليها القراء ، دون مبالغة أو ادعاء أو تكرار ممل ٠٠

— الإشارة الى القارئ ببعض جوانب المبالغة المستعصية فى ذلك الذى ينقله عن آخرين الى غير هذه كلها من خصائص ومعالم وأساليب كتابية ٠٠



وقيل ان تقدم مختارات مختصرة من هذه المادة المقالة الكاريكاتورية ،  
نشير الى أنها - موضوعا - تناولت هؤلاء جميعا : ( فى جوانب المسلب  
والاضحاك عندهم ) .

( المعلمون للصناعات المختلفة - البحريون - الإخلاء - الإخباريون -  
القصاص - الوعاظ - الحمقى - الكتّاب - الطفيلون - الادعياء - فكاكات  
بدوية - مقارقات عن الجوارى والغلمان - المتناظرون ) . وذلك كله الى  
جانب شتى الموضوعات الأخرى ، التى امتدت اليها كتاباته .

.. وقد كان من هذه الكتابات كلها وعلى سبيل المثال لا الحصر  
« مختارات فقط »

● ● مقال من الجزء الثالث من « الحيوان » .. عن « النبان » أو  
الحاح النبان على « قاضى البصرة » .. جاء فيه قوله :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكما  
قط زمينا ، ولا ركينا ، ولا وقورا حلينا ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته  
مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من  
مسجده فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يتكئ . فلا يزال منتصباً لا يتحرك له  
عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحل رجلا على رجل ، ولا يعتمد على  
أحد شقيقه ، حتى كأنه بناء بنى أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى  
يقوم الى صلاة الظهر . ثم يعود الى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم  
الى العصر . ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب . ثم  
ربما عاد الى محله ، بل كثيرا ما كان يكون ذلك ، اذا بقى عليه من قراءة  
العهود والشروط والوثائق . ثم يصلى العشاء ، وينصرف . فالحق يقال :  
لم يقم فى طول تلك المدة والولاية ، مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ،  
ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى  
قصارها وفى صيقها وفى شتاتها . وكان مع ذلك ، لا يحرك يده ولا يشير  
برأسه ، وليس الا أن يتكلم . »

فبينما هو كذلك ، ذات يوم ، وأصحابه حواليه ، وفى السماطين بين  
يديه ، اذ سقط على أنفه نبان . فاطال المكث ، ثم تصول الى مؤق عينه .  
فراى الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاذ خرطوميه ، كما رام من

الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته ، أو يغضن وجهه ، أو يذب بأصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله ، وأوجعه ، وأحرقه ، وقصد الى مكان لا يحتمل التفاؤل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم يتنهض . فدعاه ذلك الى أن يوالى بين الاطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه . ثم عاد الى مؤقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك . فكان احتمالاه أضعف وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد فى شدة الحركة ، والح فى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والاطباق . فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته . ثم عاد الى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدا من أن يذب عن عينيه بيده ففعل ، وعيون القوم اليه ، ترمقه ، وكأنهم لا يروونه . فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته . ثم عاد الى موضعه . ثم الجأ الى أن ذب عن وجهه بطرف كفه . ثم الجأ الى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله يعين من حضره من أمانئه وجلسائه . فلما نظروا اليه قال : « أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء ، وأزهى من الغراب . وأستغفر الله ! فما أكثر من أعجبتة نفسه فأراد الله ، عز وجل ، أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورا ! وقد علمت أنى عند نفسى من أضعف الناس ، فقد غلبنى وقضدنى أضعف خلقه » . ثم تلا قوله تعالى : « وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقوه منه ضعف الطالب والمطلوب ! » وكان بين اللسان قليل فضول الكلام ، وكان مهيبا فى أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه فى نفسه ولا فى تعريض أصحابه للمنالة ، ( ٤٠ ) .

● ● وعن الموضوع نفسه ، ومما يتصل بكاتبنا هو شخصيا ، نقرأ هذا الجزء من مقاله يصف فيها واقعة حدثت له مع الذباب أيضا :

فأما الذى أصابنى أنا من الذبان ، فانى خرجت أمشى من عند ابن المبارك أريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابة . فمررت فى عشب ونبات ملتحف كثير الذبان ، فسقط ذباب من ذلك الذبان على أنفى . فطردته ، فتحول الى عيني . فزدت فى تحريك يدي . فتنحى عني بقدر شدة حركتى وذبى عن عيني - ولذبان الكلا والعياض والرياض وقع ليس لغيرها - ثم عاد الى ، فعمست عليه . ثم عاد ، فعدت بأشد من ذلك . فلما عاد استعملت كمي . فذبيت به عن وجهي . ثم عاد ، وأنا فى ذلك أحث السير ، أومل بسرعتي انقطاعه عني

فلما عاد نزع طيلسانى من عنقى ، فذبيت به عنى بدل كمى . فلما عاود . ولم أجد له حيلة ، استعملت العدى ، فعدوت مذ . شوطا لم أتكلف قتله مذ كنت صبييا . فتلقتنى الأندلسى فقال لى . « مالك . يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ » فقلت : « نعم ! أريد أن أخرج من موضع للذبان على فيه سلطان » . فضحك حتى جلس . وانقطع عنى . وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تباعد جدا (٤١) .

● ● ٠٠٠ ولا نترك هذا المجال تماما ، دون الإشارة الى جزء قليل ، من كم كبير ، ورد ضمن صفحات كتابه « البخلاء » مما يتصل بهذا المجال أيضا ، ومما أتبع فيه أسلوب « المحاوراة الفكاهية » . ٠٠ انه مقاله عن « تمام ابن جعفر » ٠٠ أحد البخلاء المعددوين فى عصر الجاحظ :

« كان تمام بن جعفر بخيلا على الطعام ، مفرط البخل ، وكان يقبل على كل من أكل خبزه بكل علة ، ويطلبه بكل طائلة ، وحتى ربما استخرج عليه انه كان حلال الدم ، وكان ان قال له نديم : ما فى الأرض أحد أمشى منى ، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضر منى ، قال : وما يمنعك من ذلك وانت تأكل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل الا البطن ؟ لا حمد الله من يحمك . »

فان قال : لا والله ان أقدر أن أمشى لأنى اضعف الخلق عنه ، وإنى لانيهر من مشى ثلاثين خطوة ، قال : وكيف تمشى وقد جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمالا ؟ وهل ينطلق الناس الا مع خفة الأكل ؟ وإنى بطين يقدر على على الحركة ، وإن الكليظ ليعجز عن الركوع والسجود فكيف بالمشى الكثير ؟ فان شكك ضرسه وقال : ما نمت البارحة مع وجهه وضرباته ، قال : عجبت كيف اشتكيت واحدا ولم تشكك الجميع ؟ وكيف بقيت الى اليوم فى فيه حاككة ؟ وإنى ضرس يقوى على الضرس والطحن ؟ ٠٠٠ فان قال : والله ان أروى من الماء ، وما أظن أن فى الدنيا أحدا اشرب منى للماء . قال : لا بد للتراب من ماء ، ولا بد للطين من ماء يبلله ويرويه ، أو ليست الحاجة على قدر كثرتة وقتله . والله لو شربت ماء الفرات ما استكثرتة لك ، مع ما أرى من شدة أكلك وعظم لقمك .

فان قال : ما شربت اليوم ماء البتة ، وما شربت أمس بمقدار نصف رطل ، وما فى الأرض انسان أقل منى شربا للماء ، قال : لأنك لا تدع لشرب

الماء موضعاً ، ولأنك تكثر في جوفك كنزاً لا يجد الماء معه مدخلا فان قال :  
ما أنام الليل كله وقد أهلكنى الأرق • قال : وتدعك الكتلة والنفخة والقرقرة  
أن تنام ؟

فان قال : ما هو الا ان أضغ رأسي فانما أنا حجر ملقى الى الصبيح •  
قال ، ذلك لأن الطعام يسكر ويخدر ويختل وييل الدماغ وييل العروق ويسترخى  
عليه جميع البدن ، ولو كان فى الحق لكان ينبغى أن تنام الليل والنهار ، ( ٤٢ )

● ● ••• وأخيراً ، وقبل أن تنتقل الى نوعية أخرى من أنواع هذه  
المقالات ، نقدم طرفاً من رسالته « الترييح والتدوير » •• ليعود اليها من يشاء  
وحيث تتمثل فيها هذه الخصائص المقاتلية الكاريكاتورية الجاحظية مجتمعة ••  
ومن ثم فمن غير المعقول الا أنقل عنها هذه المصور القليلة :

« أطل الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك • قد علمت ، حفظك الله ،  
أنك لا تحصد على شيء حسبك على حسن القامة ، وضخم الهامة ، وعلى حور  
العين وجودة القد ، وعلى طيب الأحذوثة والصنيفة المشكورة • وأن هذه  
الأمور هي خصائصك التي بها تكلف ، ومعانيك التي بها تلهج •• وبعد ،  
أبقاك الله فأنت في يدك قياس لا يتكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك حد لا يقل ،  
وغرب لا ينتنى ، وهو قياسك الذى اليه تنسب ، ومذهبك الذى اليه تذهب ، أن  
تقول : وما على أن رأى الناس عريضا وأكون فى حكمهم غليظا ، وأنا عند  
الله طويل جميل ، وفى الحقيقة مقدود رشيق • وقد علموا ، أبقاك الله ، أن لك  
مع طول الياد راكبا طول الظهر جالسا • ولكن بينهم فيك إذا قمت اختلاف ،  
وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل ، ومن غريب ما أعطيت وبديع ما أوتيت أنا  
لم نر مقدودا واسع الجفرة غيرك ، ولا رشيقا مستفيض الخاسرة سواك ،  
فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب • فيا شعرا جمع  
الأعاريض ، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول ! بل ما يهمك من أقاريلهم  
ويتعاطمك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن  
استقاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك  
عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا • ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى  
عرضك ، وإذا قد سلموا لك بالرغم شطرا ومنعوك بالظلم شطرا • فقد حصلت  
ما سلموا وأنت على دعواك فيما لم يسلموا • ولعمري ان العيون لتخطيء

وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن . وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل ، اذ كان زماما على الأعضاء وعيارا على الحواس . .

وبعد حديث طويل على هذا النسق يوجه الجاحظ الى خصمه أسند واليك بعضها منها : « وهى من أصل مائة مسألة »

خبرنى عن معنى الفرات على حقه وصنقه ، وعن نضوب البحر وعن تنقص الأرض . ولم عمل الفلك فى هذا العالم وليس بينهما شبه ، وهلا عمل فيه بقدرة منه ، وهل يجوز أن يعمل شيء فى شيء الا والآخر يعمل فيه؟ وخبرنى مذكم كان الناس أمة واحدة ، ولغاتهم متساوية ؟ وبعد كم بطن اسود الزنجى وأبيض الصقلى ؟ ولم صار اللون أسرع تنقصا من الجمود ؟ ولم كان الولد يجىء على شبه ما فى أبيه من الأمور الحادثة فى بدنه عن غير القديمة فى أصل تركيبه ، ومع ذلك لم يولد صبى قط فى العرب مجنونا . .

جعلت فداك أيما أطول عمرا الناس ، أم غير العانة ، أم الحية ، أم الضب ، ومتى تستغنى الحية عن الغذاء ، ومتى ينتفع الضب بالنسيم ؟ (٤٢)

● ● حتى نصل الى هذه النوعية الأخيرة من المادة الجاحظية ، تلك التى كان لها وضعها الخاص بالنسبة لمثيلاتها من مقالات اليوم ، فبينما نجد بعضها يبتعد عن إحدى نوعياتها الحديثة ، نجد البعض الآخر وهو يقترب كثيرا من نوعية أخرى ، من هذه النوعيات التى تعرفها صحافة اليوم . . . وهكذا اختلفت أوضاعها قريبا أو بعدا من هذه المادة . . على أن أهم قصائل هذه النوعية هى :

#### ( ١ ) المقال الافتتاحى أو « الافتتاحية » :

لو رحنا نبحث عن « المقال الافتتاحى » . . فى كتابات الجاحظ ، فأننا دون شك سوف نجد أنه يتجاذبنا شعوران ، أو يأخذ بنا احساسان ، يقومان على ملاحظة هامة . . تلك هى أنه اذا كنا نقصد المقال الافتتاحى الحديث ، بالصورة التى تعرفها الصحف والمجلات اليوم ، وجميع خصائصه المرتبطة به ، أو أكثرها — على الأقل — فإن مطلبنا يكون عسيرا بعض الشيء ، وذلك لاختلاف الظروف والأحوال والطبائع ، ولكن اذا كنا نريد هذه « الفواتح »

أو « المداخل » التي تشبه مقدمات الكتب أو الرسائل ، فسوف نجد الكثير منها مما يزخر به التراث الابداعي الكتابي الجاحظي ٠٠

ومن هنا نقول :

( ١ ) أنه اذا كنا نقصد بالمقال الاقتتاحي أنه وكما نعرف : « المقال الذي يحمل رأى الصحيفة أو المجلة وموقفها من القضايا والمشكلات والاتجاهات الهامة داخلية وخارجية » (٤٤) ٠٠ أو أنه « المادة التحريرية الهامة التي تنشر يوميا أو اسبوعيا محددة موقف الصحيفة أو المجلة من القضايا الهامة، والمشكلات والمواقف والأفكار التي تتصل بمجتمع ما أو المجتمع الانساني ، والتي تنشر تحت عنوان ثابت وغفلا من التوقيع باسم كاتبها وفي مكان بارز وثابت في أكثر الأحوال » (٤٥) ٠٠ « ٠٠٠٠٠ » وأنه لا يوقع باسم محرره لأنه لسان حال الصحيفة » (٤٦) ٠٠ أو كنا نقصد هذا الذي تطلع به علينا الصحف والمجلات مراعية في تحريره ونشره خصائص عديدة من بينها :

— النشر اليومي أو الأسبوعي الدائم تحت عنوان لاقتى ثابت ودال .  
— تعدد الكتاب وتنوعهم .

— الارتباط الكامل بسياسة وسيلة النشر وما يتصل بذلك من التعبير عن رأى الصحيفة ، وجهة نظرها ، وما أسفر عنه ذلك من اتجاهات عديدة واجراءات مختلفة .

— عدم التوقيع باسم المحرر ، بل الصحيفة ، كوسيلة اتصال .  
— الجودة الزمنية الكاملة ، والارتباط بمادة حديثة ساخنة وملتهبة .  
— المكان والحجم المحدد تقريبا وفي أغلب الأحوال ٠٠  
— التوفيق بين سياسة الصحيفة والصياغة واهتمام القراء وصالح الوطن والانسانية .

٠٠ اذا كنا نقصد هذه النوعية ، فاننا نقول ان الكتابات الجاحظية لم تعرفها وليس لنا ادعاء ذلك ، أو الزعم بهذه المعرفة ٠٠ وواضح ان أسباب هذه الحالة تتصل بالطابع الصحفي الحديث والكامل ، والذي أسفر عن وجود هذه النوعية من المقالات لاسيما هذه الأسباب : « تعقد الحياة وتشابك

المشكلات والتوتر السياسى القائم وحاجة القراء الى الشرح والتفسير والمساعدة على اتخاذ المواقف وايجاد رأى عام فى مواجهة المشكلات الداخلية وخارجية وانتظار رأى الصحيفة المعاون للقارئ فى كل ذلك . . . . . الخ . .

ان رجلنا ، لم يكن يكتب فى صحيفة يومية أو أسبوعية ، ليعبر عنها ، ولم تكن الحياة بكل هذا التعقيد والتشابك والتوتر القائم وصراعات الحدود والحروب الداخلية والأزمات الاقتصادية والسياسية ولم يكن هناك القارئ الفزع الذى ينشد المعرفة الكاملة لما يدور حوله ، أو ينشد الخلاص الى غير ذلك كله ، فضلا عن الاتجاهات الصحفية الجديدة التى لم يعرفها الجاحظ ولا عصره . . ومن ثم لم يعرف ما يرتبط بها من اجراءات وتنظيمات تهدف فى النهاية الى أن تصل هذه المادة قبل غيرها الى القارئ فى سهولة ويسر، وأن تقع تحت بصره دائما ، حتى تقوم بدورها ، وتحقق الهدف من وجودها . .

#### هذه واحدة . .

( ب ) وأما اذا تجاوزنا عن ذلك كله - خاصة الاتجاهات والمطالب والأساليب العصرية - ونظرنا الى هذه المقالة نفس نظرتنا الى مقدمات الكتب وفواتحها . بل ونظرنا الى بعض أنواع هذه المقالات نفسها لاسيما « المقال الافتتاحى المهنى » وبالتركيز الشديد على بعض أنواع « مقالات المجلة » الافتتاحية ، لوجدنا أننا نقترّب أكثر من خطوة واحدة من النتاج الجاحظى فى مثل هذه المجالات . . ولكن كيف ؟

ان أكثر ما كتبه الجاحظ رأيناه يقنم له ، أو يفتتحه بعدة سطور اختلفت أطوالها من مادة لأخرى ، لكنها فى أحوال غير قليلة أيضا كانت « فى مجموعها » .

— ذات صلة وثيقة وأساسية بمضمون المادة التى تفتتح بها .

— تقدم بعض ما يتصل بها من مصادر أو أشخاص .

— تلفت النظر الى أهميتها .

— نتحدث عن بعض الكتابات السابقة في نفس الموضوع له  
أو لغيره .

— وقد تحيل القارئ الى هذه الكتابات .

— وقد نتحدث عن بعض الجهد الذى بذله فى الحصول عليها لاسيما  
ان كانت تتصل بانتقاله الى أماكن أخرى .

— أو تنبه الى بعض « المثالب » أو « الثغرات » وتقدم بعض  
« المحاذير » .

— وقد تتضمن ذلك الاهداء الى شخص ما وما يتصل به .

— وكثيرا ما تضمنت السبب الرئيسى لكتابتها .

— وربما الاعتذار عن أى تقصير يبدو خلال سطورها .

الى غير ذلك كله ، من أفكار وقضايا . . نعود فنقول بشأنها انها —  
بصرف النظر عن العنوانات خاصة الاشارية الافتتاحية والثابتة ، وعن  
التوقيع ، وعن تتابع الصدور ، وما يتصل بعد ذلك بالتعبير عن سياسة المجلة ،  
أو الصحيفة الأسبوعية نقول انها تقترب أكثر من خطوة من ذلك النوع من  
أنواع المقالات الافتتاحية التى تعرفها المجلات أولا ، والصحف الأسبوعية  
ثانيا ثم اليومية فى أحوال قليلة جدا ، والتى تركز على إحدى هذه الأفكار  
أو الموضوعات : « تجربة مثيرة لمحرر — مشكلة مادية أو فنية واجهت صدور  
العدد — موضوع يتصل بصدور هذا العدد — قصة حصول محرر على سبق  
صحفى منشور بنفس العدد — خطاب هام من قارئ — خطاب هام من المحرر  
الى القارئ بشأن مادة ما ، أو تطوير ما أو ما شابه ذلك . . . الخ » .

. . كل ذلك اقتربت « الافتتاحيات الجاحظية » منه . . فإذا علمنا أن  
الرجل قد قدم للمكتبة العربية ما يزيد على ثلاثمائة مصنف ، بعضها فى أكثر



من كتاب أو جزء أو نسخة وكثير منها ارتفعت فوقه تقدم له مثل هذه الفاتحة ، ٠٠ وبحسبة بسيطة ومن خلال مقالات المجلات الافتتاحية ، أو هذا النوع من أنواعها على وجه التحديد ، لوجدنا أن النتاج الجاحظ في هذا السبيل كان يتسع ليطغى افتتاحيات عدة أعوام كاملة لا تقل بحال عن أربعة أعوام ، من أعداد هذه المجلات ( ٥٢ افتتاحية سنويا ) ٠٠ هذا كله مع علمنا بأن بعض هذه المجلات الحديثة لا تنشر افتتاحية واحدة من هذا النوع في جميع الأحوال ، وإنما تنشر إلى جوارها أحيانا ، افتتاحية عادية كاية افتتاحية أخرى ٠٠ فإذا كانت لمجلة شهرية فإن ما نشره الحاحظ يغطي افتتاحيات أعداد ما يزيد على ٢٥ سنة منها !

وكان من بين هذه المقدمات والفواتح الجاحظية ، التي تقرب من هذه المقالات الافتتاحية للمجلات والصحف الأسبوعية ، خاصة بورتيات التخصص العام ، ما يلي :

« ولعل هذا الجزء الذي نبتدىء فيه بذكر ما لنا في الحشرات والهمج ، أن يفضل من ورقة شيء ، فرقعته ونتمه بجملته القول في الظباء والذئاب ، فانهما بابان يقصران عن الطوال ويزيدان عن القصار ٠٠

وقد بقي من الأبواب المتوسطة والمقتصدة المعتدلة ، التي قد أخذت من القصر لمن طلب القصر بحظ ، ومن الطول لمن طلب الطول بحظ ، وهو القول في البقر والقول في الحمير والقول في كيار السباع وأشرافها ورؤسائها وذوى النباهة منها كالأسد والنمر والبيبر وأشباه ذلك — وسنذكر تسالم المتسالم منها ، وتعادى المتعادية منها — وقد شاهدنا غير هذه الاجناس يكون تعاديهما من قبل هذه الأمور التي ذكرناها ، وليس فيما بين هذه السباع بأعيانها تفاوت في الشدة ، فتكون كالأسد الذي يطلب الفهد ليأكله والفهد لا يطعم ولا يأكله ، فرجينا التكافؤ في القوة والآلة من أسباب التماسد ٠٠٠ وسنذكر علة التسالم وعلة التعادى ، ولم طبعت رؤساء السباع على الغفلة ، وبعض ما يدخل في باب الكرم — ولم نذكر بحمد الله تعالى شيئا في هذه الغرائب ، وطريقة من هذه الطرائف ، إلا ومعها شاهد من كتاب منزل ، أو حديث ماثور ، أو خبر مستفيض ، أو شعر معروف ، أو مثل مضروب ، أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب ، ومن قد أكثر قراءة الكتب ، أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحارى واستدري بالهضاب ودخل

فى الغياض ومشى فى بطون الأودية — ونحن حفظك الله اذا استنطقنا الشاهد  
وأحلنا على التل ، فالخصومة حينئذ إنما هى بينهم وبينها ، اذ كنا نحن لم  
نستشهد الا بما ذكرنا ، وفيما ذكرنا مقنع عند علمائنا ، الا أن يكون شيء  
يثبت بالقياس ، أو يبطل بالقياس ، فواضع الكتاب ضامن لتخليصه وتلخيصه،  
ولتثبيته وإظهار حجته ، (٤٧) .

### هوامش الفصل الخامس :

- (١) محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحليل الصحفي العام » ص ٧٠ ، ٧١ .
- (٢) أحمد بن علي المقرئ القيومي : « المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي » ص ١٧١ .
- (٣) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : « مختار المصباح » ص ١٢٥ .
- (٤) أجلال خليفة : « اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي » ص ١ ص ٢٥ .
- (٥) C.H. Brown : "Informing the people" p. 205
- (٦) H.M. Patterson : "Writing and Selling Feature Articles" p. 61.
- (٧) محمود أدهم : « المدخل في فن الحديث الصحفي » ص ٤٠ .
- (٨) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ١ ص ١١٢ .
- (٩) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ٤ ص ١٠٢ .
- (١٠) محمود أدهم : « التحقيق الصحفي » ص ٢٤ .
- (١١) محمود أدهم : « فن تحرير التحقيق الصحفي » ص ٨ ، نقلا عن H.M. Patterson
- (١٢) دافيد بوتر ، ترجمة محمد مصطفى غنيم : « مخبر والصحف » ص ٢٢ .
- (١٣) ف. فريزريوند ، ترجمة راجي صهيون : « مدخل إلى الصحافة » ص ٢٠٧ .
- (١٤) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٠ - ١٦١ .
- (١٥) محمود حسين أدهم : « فن التحقيق الصحفي المصور » رسالة ماجستير في الصحافة طبعت بعض أجزائها ، المجلد الثاني ، ص ١٠٤٠ .
- (١٦ - ١٧) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » ص ٧٦/٧٥ .
- (١٨) حسين سعيد وآخرون : « الموسوعة الثقافية » ص ٩٣٥ .
- (١٩) نبيل راغب : « دليل الناقد الأدبي » ص ١٨٩ .
- (٢٠) تعريف معجم « لاروس » .
- (٢١) تعريف دائرة المعارف البريطانية .
- (٢٢) محمود أدهم : « المقال الصحفي » ص ١٢ نقلا عن « أحمد رسدي صالح » .
- (٢٣) المصدر السابق ، ص ١٤ ، أحد التعريفات الخاصة بالمؤلف .
- (٢٤) المصدر السابق ص ٤٤ .

( الجاحظ )

- (٢٥ - ٢٦) أجلال خليفة : « اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي »  
ص ١١٤ - ١١٨ .
- (٢٧) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ١ صفحات متعددة .
- (٢٨) شوقي ضيف : « النقد » ص ٩ .
- (٢٩) أحمد يوسف محمد خليفة : « نشأة النقد الأدبي حتى نهاية القرن الأول الهجري » ص ٩ .
- (٣٠) شوقي ضيف : « النقد » ص ٥٧ .
- (٣١) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » ص ١٢٠  
نقلا عن « كتاب الحيوان » .
- (٣٢ - ٣٣) عبد اللطيف حمزة : « المدخل في فن التحرير الصحفي »  
ص ٢٥٢ .
- (٣٤ - ٣٥) توفيق الحكيم ، حديث الثلاثاء - في الوقت الضائع -  
جريدة الأهرام ، العدد الصادر في ٢٢ يناير ١٩٨٥ + أنظر له أيضا : « فن  
الأدب » ص ٣٣ .
- (٣٦) محمود أدهم : « المقال الصحفي » ص ١٨٥ .
- (٣٧) محمود أدهم : « التعريف بالمجلة » ص ١٩٧ ، ١٩٩ .
- (٣٨) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » ص ٥ .
- (٣٩) المصدر السابق ص ١١٣ .
- (٤٠ - ٤١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ٣ ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ .
- (٤٢) الجاحظ « البخلاء » ص ١١٦ .
- (٤٣) الجاحظ : « التربيع والتدوير » تحقيق فوزى عطوى ص ٩  
وما بعدها .
- (٤٤ - ٤٥ - ٤٦) محمود أدهم : « المقال الصحفي » ص ٥٩ .
- (٤٧) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ٦ ، ص ١١ .

**الفصل السادس**

**عن**

**الأسلوب الجاحظي**

**« الجاحظ ولغة الصحافة »**



بعد هذه الرحلة الطويلة ، مع « التناج الجاحظي » المتعدد الألوان والأشكال ، وعلى أثر تقديمنا لهذه الشواهد العديدة ، على أن للرجل جانبه الصحفي ، أو ذلك الجانب الذي يمكن النظر إليه من زاوية صحفية ، فلا نجد بعيدا عن « صحافة اليوم » بموادها وأنماطها وفنونها التحريرية .. وبعد أن أقمنا الجسور بين هذا التناج الذي اعتبرنا بعضه أدبا صحفيا ، وبعضه الثاني بمثابة جذور لفنون التحرير ، وبعضه الثالث بمثابة طلائع متقدمة لها ، بينما انطبق بعضها الرابع عليها تمام الانطباق ، لاسيما من زاوية المقال الصحفي .. وهو ما سبق به أدباء عصره ، والعصور السابقة عليه فجاز أن يكون بذلك كله أول الصحفيين الذين عرفتهم لغة العرب .

بعد هذه الرحلة الطويلة ، يكون علينا أن نتوقف مرة أخرى - ولا أقول أنها الأخيرة - عند جانب آخر من تلك الجوانب التي عرف بها الرجل ، وارتبطت به وبأدبه ارتباطا وثيقا .. لنرى ماذا تعنى ملامحها ومعالمها وصورها وشواهدنا ، بالنسبة لهذا الجانب الصحفي من جوانب الرجل ، من ناحية ؟ وبالنسبة للصحافة نفسها من ناحية أخرى ؟ قلعلها - بما يمكن أن نتوصل إليه بشأنها - تقدم دليلا جديدا ، مقيدا ، يؤيد هذه الدعوى ، ويقف إلى جوار الأدلة السابقة ، في مجموعها ، التي تشير إلى « الجاحظ » من زاوية صحفية .. أو - على الجانب الآخر - ترفض هذه الزاوية ، وتقدم دليلا مختلفا ، أو يقلب ما توصلنا إليه حتى الآن ، رأسا على عقب ، ويصير بذلك علينا ، وليس لنا ..

أما هذا الجانب الذي قد يكون عاملا مؤيدا ، بنفس الدرجة التي قد يكون فيها عاملا معارضا ، أو ربما يكون هذا العامل الأخير .. فهو ما نطلق عليه تعبير « الأسلوب » وعن هذا الجانب ، أو العامل ، أو العنصر نقول :

### أولا - الأسلوب : ماذا يعنى ؟

وبطبيعة الحال فأننا لن نقفز إلى « الأسلوب الجاحظي » مرة واحدة .. وإنما ومن زاوية تعريفية ، سنعر في طريقنا إليه بعدد من « المحطات » الصغيرة ، التي تعطى للقارئ فكرة سريعة عنه ، تقود بدورها إلى الهدف المنشود : الأسلوب الجاحظي بين الأسلوب الأدبي ، والأسلوب الاعلامي الصحفي ..

ولعل « المصطلح » الأولى التى ينبغي أن نتوقف عندها ، هى تلك التى تجيب فيها على سؤال يقول : ما الأسلوب ؟ .. وذلك من خلال جولة مع اصحاب هذا الجانب ، واهله ، ومتخصصيه ..

● .. ان هناك شبه اجماع على أن الأسلوب هو طريقة معينة فى التفكير والتعبير حسب مقتضى الحال .

● وان أحد رواد هذا الفن يقول ان الأسلوب هو : « طريقة التفكير والتصوير والتعبير » (١) .. ويضيف قائلا : « ان أبرز صفاته ترجع الى ثلاث : أولا الوضوح ، ثانيا القوة بقصد التأثير ، ثالثا الجمال لعقد الامتاع والسرور » (٢) .. ويقول آخرون أن الأسلوب هو الطريق والمذهب ، وهو اللفظ والمعنى والقبرة على تقديمهما فى أحسن صورة ..

ويقبنى أن الجانب الأول من ذلك التعريف ، يصدق تماما بالنسبة لآى أسلوب كان أو أى مستوى تعبيرى ، ومن بين ما يصدق عليها .. الأسلوب الصحفى ، أو المستوى التعبيري الصحفى ..

لكن بالنسبة لهذا الجانب الثانى ، الذى أورد فيه هذا الرائد خصائص الأسلوب ، فأننى أستطيع أن أزعم أنه كان يقصد الأسلوب الأدبى ، أو بلاغة التعبير الأدبى ، أو المستوى الأدبى من التعبير ، قبل أن يقصد غيره ..

.. ومن هنا ، وإذا صح اتخاذ هذه المصطلح « التفسيرية » لعنى الأسلوب ، كمنطلق لنا ، فأننا لابد أن نشير الى جوانب أخرى هامة ، تتصل بموضوعها عن قرب ، وبموضوعنا أيضا - الأسلوب الجاحظى - لعل فى مقدمتها :

#### ● ما يتصل بمستويات التعبير من حيث هى :

فنحن نعرف ان هناك ثلاثة مستويات تعبيرية ، تختلف فى موقفها ونظرتها الى المادة ، وفى لغتها وأساليبها ، وبلاغتها ، ويلاحظ ذلك - كل الملاحظة - هؤلاء الذين يتصدون للكتابة .. أو « يتعاطونها » على حد قول الكاتبين فى عصر الرجل موضوع حديثنا .. وعموما ، فنحن نترك رائدا من رواد الصحافة يتحدث عن هذه المستويات نفسها - د. عبد اللطيف حمزة - استمع اليه وهو يقول ، أن هذه المستويات هى :



« المستوى الأدبي : وهو المستوى الذى يقف فيه الأدباء للتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم وتجاربهم الانسانية بوجه عام ، ولهم فى هذا التعبير طرائق تختلف باختلاف الأشخاص ، واختلاف العصور واختلاف البيئات ..

**والمستوى العلمى :** الذى يقف فيه العلماء ليعبروا عن الحقائق العلمية. سواء اكان ذلك فى العلوم الكونية ، أم التاريخية أم الأدبية ، وهم فى هذا التعبير يلتزمون لغة تمتاز بالوضوح واستخدام الألفاظ التى تكون على قدر المعانى ، واصطناع المصطلحات التى اتفق عليها اهل كل علم من هذه العلوم على حدة ، ومعنى ذلك أن العلم مادته الحقائق وحدها فى حين ان الأدب مادته العواطف والصور والأمثلة ..

**والمستوى العملى :** .. وهو المستوى الذى يقف فيه الصحافى لينقل للناس أخبار البيئة التى يعيشون فيها والبيئات التى يتصلون بها وليقوم للناس بتفسير هذه الاخبار فى أثناء نقلها وبعد نقلها وذلك عن طريق التعليق عليها ، والاستنارة بأراء الممتازين من القراء فى بعضها وهو فى سبيل ذلك يستخدم لغة عملية يفهمها القراء ، ولا يشترط فيها ما يشترط فى لغة الأدب من خيال أو جمال أو ما يشترط فى لغة العلم من بقة باللغة فى تحسيد معانى الألفاظ ، (٢) .

.. اقول ، نحن مع هذا الرائد جملة فى تقسيمه هذا ، وان كنا لسنا معه تماما أو بنفس القدر فى بعض التفاصيل .. خاصة :

— وهو يجعل كل مستوى من هذه المستويات كلا كاملا بحيث تصدق هذه الخصائص على جميع الفنون الأدبية ، أو العلمية أو الصحفية بنفس الدرجة .

— وهو يكاد يجرد النوعين الاخيرين من أن تتمتع بعض انماطها ببعض صور ولسات الفن والجمال ، أو يجعلها بلا بلاغة أو يعتريها الجفاف دائما مع أن لكل منهما بلاغته المرتبطة به .

— وهو يكاد يقصر أو يركز المستوى العلمى على الصحافة وحدها، مع أن له صوره العديدة « التعاملية » و « الوظيفية » التى يعرفها العاملون فى كل مجال .

— وحتى وهو يقصر المستوى العملى على الجانب الصحفى وحده، فإننا نراه يكاد يركز تركيزا شديدا على ما يتصل بلغة الاخبار أولا والمزاد أو الأنماط الوثيقة الصلة بها ثانيا .

ذلك كله ، بينما هذا المستوى الأخير ينقسم الى أكثر من مستوى فرعى، أو قسم على النحو الذى سوف توضحه فقرة قادمة بإذن الله .

ولكنه — على الرغم من ذلك — يبقى تقسيما طبييا ومعقولا ، لا يتبقى بالنسبة لنا ، الا أن نعود فنوضح ، أين يقف الأسلوب الجاحظى منه ؟

#### ● ما يتصل بكتابات الرجل ، وهذه المستويات :

نعم : أين يقف الأسلوب الجاحظى ، أو — بطريقة أخرى — المستوى البيانى التعبيرى الجاحظى — من هذه المستويات السابقة كلها ؟

اننا — والحق يقال — لتعلم وجوهنا الدهشة الكاملة ، وربما « تحظه عيوننا أيضا . . . عندما نتأكد من أنه كان للرجل ذلك الموقع الفريد الذى يقفه — بلغته وأساليب كتابته — من هذه النوعية السابقة فى مجموعها . . . والذى أزعج أنه لم يشاركه فيه كاتب آخر فى عصره ، وفى مجتمع العباسيين من جانب ، ومن جانب آخر نجد أن هذا الموقع الفريد من هذه المستويات تقترب به تماما من مواقع « الكتاب الصحفيين » الذين نقرأ لهم الآن . . . ولكن كيف؟

● فى البداية نقول أن الرجل قد حطم سببه قاعدة تاريخية أدبية ، أو من قواعد التاريخ الأدبى ، أو تاريخ التحرير ، يعترف بها عدد كبير من الكتاب ، هذه القاعدة هى التى عبر عنها الرائد السابق نفسه بقوله : « . . . ولعلنا حين نتمعن النظر فى تاريخ الكتابة الفنية ، فى أية أمة من الأمم نجد أنها تمر بالمستوى الأدبى أولا ، فالمستوى العلمى ثانيا ، فالمستوى الصحفى فى نهاية الأمر . . . فى الأول تكون الكتابة ذاتية ، لأنها أدبية ، وفى الثانى تكون الكتابة موضوعية لأنها علمية ، وفى الثالث تكون الكتابة عملية لأنها صحفية » (٤) .

ويعضد الرائد قائلا : « حدث هذا فى أوروبا ، فظهرت الكتابة

الذاتية عند الكاتب الفرنسي مونتاني ١٥٢٢ - ١٥٩٢ ، ثم ظهر عند المقالة الموضوعية عند الكاتب الامجايرى بيكون ١٥٦١ - ١٦٢٦ ، وأخيرا ظهرت المقالة الصحفية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة على ايدي كتاب كثيرين ، مثل الكاتب الانجليزى « ديفو » و « سكيل » وغيره من كتاب القرن الثامن عشر الذين أدركوا الفرق بين هذه المستويات الثلاثة التى تحدثنا عنها (٥) .

كانت هذه هى المقولات التى تمثل شبه القاعدة التى حطمها الرجل .. اما عن السبب فى ذلك ، وكيفية وقوعه ، فببساطة شديدة نقول ان كتابات الرجل قد قُصّت هذه المستويات الثلاثة معا ، الأدبى والعلمى والعملية ، وأنها وسعتها جميعها ، ومرت بها كلها ، والدليل على ذلك ، ما ذكرنا من مثيلات هذه الكتابات ، فهل يعنى ذلك أن الرجل كان « محررا » أو « كاتبا » ، أو أديبا ، لكل العصور ؟ أو - على الأقل - لهذه العصور المتنوعة التى شاهدهت تلك المراحل الثلاث ، التى مرت بها عدة أعم ، فى تاريخها الأدبى ؟

● وفى ظل هذه المقولة أيضا ، ومن خلال هذه الزاوية الزمنية نفسها ، نجد أن دهشتنا لتزايد أكثر عندما نعرف أن هذا الكاتب العربى ، قد تناول هذه المستويات التعبيرية الأسلوبية الثلاثة خلال بعض كتبه ، بل خلال كتاب واحد من كتبه فقط ، مثل تلك التى أشرنا اليها .. بل انه يمكننا القول ، أن بعض رسائله أيضا ، وليست كتبه فقط من تلك التى أشرنا اليها عند حديثنا عن « مقالات التخصص العام » أو « المقالات الموضوعية » ومع ما فيها من اقتراب شديد من بعض التحقيقات الصحفية العامة المتخصصة هذه أيضا - وبعضها لم يتعد الخمسين صفحة أحيانا - كان يجمع بين هذه المستويات ، جمعاً ذكياً لكاتب يستطيع ويقدر وله أقلامه المتعددة ولا أقول قلمه الواحد ، تلك التى يملك ناصيتها كلها ..

● وإذا كان ذلك كله ، يؤكد ما أشرنا اليه سابقا ، من جوانب موسوعية الرجل وشمولية فكره ، الرجل المكون من عدة رجال ، الأديب صاحب الاهتمام الكبير بالتاريخ والعلوم والفلسفة واللغويات والأخبار والمادة الأخرى التى وجدناها تقترب فى أحيان كثيرة من أنماط التحرير الصحفى المعاصرة ، فانه - بالتالى - يؤكد أن الرجل قد عرف وخبر وكتب بكل هذه المستويات التعبيرية ، وأن تلك المعرفة كانت نتيجة طبيعية ومنطقية لهذه الاهتمامات كلها . ومن ثم ، فقد جمع بينها ، وكان من بين مستويات تعبيره ، هذا

المستوى الذى تقدمه له خلال هذه الفقرة .. المستوى العملى ، أو الصحفى ..  
كما نقول الآن ..

## ثانياً - عن الأسلوب الصحفى

.. ثم ماذا ؟

كان ذلك عن الأسلوب من حيث هو ، وعن مستويات التعبير الكتابى ،  
فماذا عن الأسلوب الصحفى نفسه ؟ أو عن هذا المستوى الأخير « العملى »  
ذاته ؟ وأين يقف الجاحظ - بكتابات المتعددة - منه أيضاً ؟

إننا نقرب فى هذه الفقرة ، من ذلك كله ، فننوقف فى البداية عن بعض  
الأقوال التى تتصل بهذين الجانبين ، من تلك التى وردت بعدة كتب ، مباشرة  
أو غير مباشرة ثم نحاول - معا - أن نحدد موقع الكتابات الجاحظية منها ..  
ترى ، ما هى أهم هذه الأقوال ؟

● ان عددا من المؤلفين ، قد ذكر قول أبى الصحافة الحديثة  
- داتيال ييقو - ذلك الذى يقول فيه : « إذا سألنى سائل عن الأسلوب قلت  
أنه الذى إذا تحدثت به الى خمسة آلاف شخص ممن يختلفون اختلافا عظيما  
فى قدراتهم العقلية - باستثناء البله والمجانين - فأنهم جميعا يفهمون  
ما أقول » (٦) .

● وكان الأستاذ الدكتور « محمود عزمى » يردد على طلاب معهد  
الصحافة قوله : « الأسلوب الصحفى هو أكثر أساليب الكتابة تعبيراً وأقربها  
الى عقول الناس كما أنه أقصرها وأوضحها كلمات ، ويمكن أن نضيف الى  
ذلك دلالاته المتعددة » .

● ويتحدث أحد الباحثين عن هذا الأسلوب من أكثر من زاوية فنقل  
هنا بعض كلماته عنها : « يسمى بعض أساتذة الأدب العربى الحديث لغة  
الصحافة بالنثر العملى للتمييز بينها وبين النثر الفنى والنثر العادى - ليس  
معنى هذا أن محرر الصحافة يستلزم اتباع أسلوب النثر العملى فحسب -  
ذلك لأن الصحف والمجلات تتناول موضوعات مختلفة ، ومنها قصص

إخبارية ، ومنها موضوعات أدبية وثقافية وفنية الى غير ذلك فليس معنى أن لغة الصحافة هي النثر العملى أن الصحف لا تهتم إلا بهذا اللون من النثر ، فإذا كان الموضوع موضوعاً أدبياً صرفاً فإن مجال النقد أو التعليق ينبغى أن يكون بلغة أدبية لا صحفية — طبيعة النثر العملى طبيعة سهلة للغاية تنساب فى غير تكليف ولا تعقيد ، ولكنها فى الوقت نفسه تسمو على الأسلوب الدارج فهى تتخذ لنفسها طريقاً وسطاً بين الأسلوب الأدبى الرفيع وبين الأسلوب الدارج من الناس ، (٧) .

•• وبعد أن يعدد أسباب ذلك وأهمها سرعة إيقاع العصر وما يترتب عليها ، راح الباحث نفسه يعدد مميزات الأسلوب الصحفى على النحو الذى ذكره كثيرون قبله ، وكانت هى : « السهولة والعذوبة والجمل القصيرة والألفاظ المعربة والأكثر استعمالاً من الألفاظ العربية — لنا تحفظ على ذلك — واستخدام الألفاظ المستحدثة والابتعاد عن الجمل الاعتراضية » (٨) .

● •• وقد تناولت باحثة أخرى الموضوع من أكثر من زاوية غلب عليها الطابع غير المباشر ، كما جاء حديثها عن الأسلوب الصحفى عرضاً ، أكثر من مرة ، وكان من بين ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

— فى تعريفها لفن التحرير الصحفى نقرأ قولها : « انه فن تحويل الأحداث والأفكار والخبرات والقضايا الانسانية ومظاهرها الكون والحياة ، الى مادة صحفية مطبوعة ومفهومة سواء عند صاحب الثقافة العالية والذكاء الخارج ، وصاحب الثقافة المتوسطة والذكاء العادى ، وعند رجل الشارع الذى يقرأ ليفهم ويعرف » (٩) .

— وفى مكان آخر ، ولو أن الحديث يتناول الصحافة المدرسية فى المرحلة الثانوية ، وقارئها يمثل قطاعاً هاماً من قراء الصحف والمجلات عامة ، تقول الباحثة نفسها : « وإذا أردنا أن نحدد أسلوب التحرير هنا فإنه يكون مباشراً وفى صيغة سهلة وطبيعية بلا ارتكازه على رموز بالمرسة — استخدام الأسلوب الصحفى الذى يتضمن لغة سهلة مفهومة مزاج بين لغة التخاطب بين الجماهير ولغة العلماء والمثقفين ، وتختار الكلمة التى تعبر عن المعنى المقصود بلا ازدواج فى المعنى ، والتقليل بقدر الامكان من التورية فى المعنى واللفظ » (١٠) .

● ٠٠ وبالمثل يتجسّد يا حث وناقذ أنبى وصحفى آخر ، بأسلوب مباشر أحيانا . وغير مباشر فى أحيان أخرى ، ممّا يزيد من اقترابنا من الموضوع نفسه ، انه يقول مثلا ضمن أقوال عديدة بعد أن توفر على دراسة هذا الجانب المهم :

— ٠٠ « وإذا كانت لغة الصحافة تحرص على مراعاة القواعد اللغوية المصطلح عليها ، فإنها تحاول كذلك أن تحرص على خصائص أخرى للأسلوب لم ينكرها المجمعون وحراس اللغة من بساطة وإيجاز ووضوح ونفاذ مباشر وتأكيد وأصالة وجلاء واختصار » (١١) .

— ٠٠٠ ذلك أن لغة الفن الصحفى لا تهدف الى اقتصاد حاسنة الجمال لدى القراء ، بل العكس من ذلك تتضمن اتصالا ناجحا أساسه الوضوح والسهولة » (١٢) .

— ٠٠٠٠ ذلك أن لغة الصحافة هى لغة الوضوح والدقة والبيان والسرعة ، يصطلح عليها العلماء والأدباء والصحفيون فتكون فاسما متبكركا بين لغة العلم ولغة الأدب ، وتكرن عاملا من عوامل التقريب بين مستويات التعبير المختلفة — لم تحرمهم الجامع حق وضع المصطلح ، ولم تعترض سبيلهم وإنما ذهبت هذه الجامع الى أن استعمال لغة الصحافة اقرب الى أصول اللغة وأشيعه بين الباحثين ، وأن يتخذ منه لغة موحدة فى العالم العربى بأسره » (١٣) .

ويطول بنا المجال ، ويمتد جبل الكلام ، أن نحن استغرقنا فيه لأكثر من ذلك فحسبنا ما ذكرنا ليتبقى من هذه الأقوال وغيرها تلك العناصر العديدة التى يتميز بها الأسلوب الصحفى بصفة عامة ، والتى نجمل أهمها أو أبرزها فقط فى الآتى .

#### ١ — صحة اللغة وسلامتها نحوا .

٢ — الاثارة الحديثة والفكرية والتفكيرية ( تدعو الى التفكير ) فى أغلب الأحوال دون اغفال كامل وتام للاثارة العاطفية أحيانا لاسيما فى الموضوعات الانسانية وبعض أنواع المقالات والمقدمات والنهايات .

- ٣ — الوصف الحي والواقعي واختيار الألفاظ الأكثر تعبيراً عنه .
- ٤ — الألفاظ الواضحة ، السهلة ، المشرقة .
- ٥ — الاهتمام بالمعنى واللفظ معا ، مع عناية خاصة بالمعنى .
- ٦ — استخدام بعض المفردات الشائعة التي يتداولها الناس والتي تجري على الألسن ، مولدة أو مترجمة أو اصطلاحية ، مما يعكس التطور نفسه .
- ٧ — البعد عن الرمز والألفاظ الوحشية والغريبة .
- ٨ — الموضوعية أولاً ، وبعض أنماطه تجمع بين الموضوعية والذاتية .
- ٩ — اهتمام قليل جداً بالمحسنات البيعية واللفظية ، وإنما جوانب الجمال هنا تأتي من البساطة والوضوح وبقة وصدق وواقعية التعبير .
- ١٠ — الجمل والعبارات والفقار القصيرة المتماسكة بشكل عام وفي أغلب الأحوال .
- ١١ — البعد عن التكرار والإطالة واستخدام المترادفات ، إلا لضرورة ، ومع اختلاف في الألفاظ .
- ١٢ — الترجمة الصادقة للمضمون الثرى بالوقائع والتفصيلات والمعلومات والعمل على توصيله للجمهور كاملاً ومفهوماً .
- ١٣ — دعم الرؤية الموضوعية للواقع وصناعه وإبطاله وصوره ونتائجه ، باستثناء القليل الذي يدخل ضمن دائرة « الأنسب الصحفي » .
- ١٤ — عدم تضمينه الشعر بأنواعه أو الحكم أو الأمثال ، إلا لضرورة ، أو بالنسبة لبعض القنون — بعض المقالات هنا — ودون أسراف في ذلك .
- ١٥ — استخدام التراكيب الحديثة المستعارة للجمهور القارئ ، والتي أضيفت إلى القاموس الصحفي .

١٦ — استخدام اللغة المناسبة والأسلوب المناسب ، للمادة المناسبة ،  
التي تتوجه بدورها الى القارئ المناسب ، ومن هنا اختلفت الأساليب من  
صحيفة الى مجلة ومن صحيفة الى صحيفة ، ومن صفحة الى صفحة ، ومن  
محرر الى محرر ، بل قد يختلف الأسلوب بالنسبة لصفحة واحدة من ركن  
الى آخر ، بل وبالنسبة للمحرر الواحد عندما يتعرض — مثل بعضهم —  
لكتابة أكثر من موضوع أو مادة مختلفة ، على الرغم من أنها — جميعها —  
تعتبر من الأنماط الصحفية .

١٧ — الشخصيات التي يتناولها لا يمكن أن تكون خيالا ، الا في القليل  
النادر من مادة مقالية ، وليست كل المقالات أيضا .

١٨ — لا يهدف الى تأثير جمالي أو معنوي ، وانما الى الفهم  
والاستيعاب وتوصيل ما يريد المحرر ، والتأثير هنا يكون في الرأي العام ،  
من أجل التعريف والتثقيف والتعليم والتنمية والقيادة نحو صالح الفرد  
والمجتمع والانسانية .

١٩ — التوصيل الى جميع الأفراد والأعمار والأجناس والمستويات  
القارئة وغير القارئة أحيانا .

٢٠ — الأمانة في تسجيل الواقع ، والدقة في نقل مشاهدته وصوره ،  
والمسئولية الاجتماعية الكاملة في تفسيره وتحليله والخروج من ذلك بالنتائج  
المهمة .

### ثالثا : الجاحظ والأسلوب الصحفي

كانت هذه هي بعض المعالم البارزة ، والعناصر المهمة ، في هذا النوع  
من أنواع الأساليب التعبيرية العربية ، ولا أقول أنها كلها أو جميعها .  
لننتقي بعد ذلك ، هذه الوقفة من جانبنا ، لنرى أين يقف الجاحظ من هذه  
المعالم والعناصر وغيرها وما هو موقع « الأسلوب الجاحظي » ، بل والبلاغة  
الجاحظية بصفة عامة ، من هذا الذي نعتبره جزءا أساسيا من معالم  
الصحافة الحديثة ؟



لأننا قبل الحديث عن ذلك كله ، إنما نتبه الى عدد من الأمور الأساسية  
للتصلي بهذا الجانب — جانب الأسلوب الصحفي — من ناحية ، وبالرجل  
نفسه من ناحية أخرى ، ومن هنا نقول :

**الأمر الأول :** أن هناك كما شهدنا خلال هذه القائمة ، وكذا خلال بعض  
التناولات السابقة أيضا ، أن هذا الأسلوب الصحفي يأخذ كثيرا من معالم  
المستوى الأدبي نفسه ، فليس معنى فصلنا — نحن وغيرنا — بينهما ، أن هذا  
الفصل يكون تاما وكاملا وبيقا وأن الصحفي يقف في جزيرة معزولة ،  
وبعيدة كل البعد عن جميع معالم ومواطن الجمال في الأول ، أن المستوى  
الأدبي هو الأصل والامساس ، وأن المستوى الصحفي قد تولد عنه ، وتفرع  
منه ، ومن ثم فقد تربى بحجره ونشأ بين أحضانها حتى انفصل على صفحات  
بعض ألوان النتاج الفكرى فى طريق النتاج الصحفى ، ولكن حتى هذا  
الانفصال لم يكن مرة واحدة ، ولا كان كاملا ، بل انتهى أرى أنه لم يكتمل  
تماما حتى اليوم .. ومثل ذلك يقال عن « بلاغة الاعلام » وصلتها بالبلاغة  
بمعناها الشامل .

وإذا كان من حق الرجل القول بأن صفحات كتبه ورسائله ، كانت هي  
من أول ما شهد هذا الامتزاج العضوى بين الأسلوبين ، على الرغم من عدم  
معرفة الصحافة بمعناها الحديث أو المطبوعة فأننا نقول أن بعض المصاحف  
والعناصر ، ما تزال شاهدة على هذا التوالد ، وعلى هذا الشسبه القائم  
بين الأسلوبين ، خاصة عند بعض كتاب عدد من أنواع المقالات ( الخواطر  
والتأملات — الأعمدة الانسانية — المقالات الوصفية والنقدية — اليوميات —  
المقالات الكاريكاتيرية ) .. وكذا بالنسبة لبعض الوجدات التحريرية  
للتحقيقات والتقارير والقصص والمآجريات . خاصة العنوانات والمقدمات  
والنهايات .. حتى الصور المصاحبة لهذه ، فقد قيل عنها أيضا أنها « ألب  
بصرى » ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، وفى عدد من مؤلفاتنا السابقة .

**الأمر الثانى :** ويستتبع ذلك — بالضرورة — أن تكون هناك بعض المعالم  
والعناصر المشتركة بين المستويين والأسلوبين معا ، وهى تتصل أولا بعدد  
من معالم الواقعية ، ومواطن الجمال اللائنة واستخدام التعبير المناسب  
للمادة المناسبة وهو « المثلث » الذى اعتقد أن « الجاحظ » قد نفذ من بينه  
مكتابه ، الى الاقتراب من جانب الأسلوب الصحفي ، وكانت هذه العناصر

الثلاثة ، وما يتصل بها أو يتفرع عنها هي المجال الذي شهد وقوع هذه العلاقة بين لغة الرجل وبين أسلوبه ، وبين ما نطالعه اليوم على الصفحات ، خاصة صفحات المجلات والمادة ، المجاتية ، قبل غيرها ، وذلك التي جانب خصائص أخرى عديدة شهدت اقترابا من نوع آخر ٠٠ بين الأسلوبين الصحفي العام ، وأسلوب الجاحظ .

الامر الثالث : أنه حتى بالنسبة للمستوى الصحفي أو العملي ، فإن هناك الجديد الذي قلناه بشئنه ، إذ ليس من المعقول وقد تعددت الفنون والاطر والأساليب بل وتعددت الوسائل الصحفية نفسها والقراء أيضا ، أن يكون هناك ذلك المستوى التعبيري الصحفي الواحد ٠٠ وإنما اتضح لنا من خلال دراسة سابقة ، تعتمد النظرية والتطبيق فوق الصفحات المطبوعة ، أن هذا الأسلوب الصحفي نفسه يتفرع الى :

● المستوى الصحفي الاخباري البحث : للاخبار الصغيرة والمتوسطة والكبيرة .

● المستوى الصحفي التسجيلي : بكل دقته وموضوعيته وكون الفاظه على قدر معانيه - مثل المستوى السابق - وذلك للقصص والموضوعات والتقارير الاخبارية وما يتفرع عنها .

● المستوى الصحفي التفسيري : لبعض أساليب تحرير بعض المقابلات والتقارير الحديثة والمقالات الافتتاحية ومقالات التعليق والتفسيرية والقائدة الموقعة .

● المستوى الصحفي الوصفي : لاسيما في بعض القصص والتقارير والتحقيقات والمقالات وهو يأخذ كثيرا من جانب المستوى الأدبي .

● المستوى الصحفي القاري : للفنون والأنماط والوحدات التحريرية التي تحتاج الى قدر من الجمال والذوق الأدبي ، وقد أشرنا اليها أكثر من مرة .

● المستوى الصحفي العلمي : لبعض جوانب التخصص العام ، بمقالاته ودراساته .

● المستوى الصحفي العام : وهو يجمع بين أكثر من معلم من المعالم

السابقة ونراه فى ألوان الكتابات القياسية كبرى الحجم فى الغالب كالتحقيقات والدراسات والحمولات والمقالات العامة والموضوعية والتحليلية (١٤) ٠٠٠

ترى ٠٠ أين يقف الرجل من هذه المستويات الفرعية كلها ؟ وقبلها ، وأكثر منها : أين يقف من هذه الطائفة من خصائص الأسلوب الصحفى نفسه ؟ اننا نتناول ذلك كله ، من خلال النقاط التالية ، ومن أكثر من زاوية أيضا :

١ - فبدية نقول ، أنه لم يكن من المعقول أن تأخذ كتابات الرجل كلها هذا الطابع ، وأن تتصف بمثل هذا الأسلوب ، ولا نستطيع أن نزع ذلك ، لأننا - على الأقل - لم نحصرها وندرسها كلها ، ولأنها أيضا تقع ضمن الدائرة الأدبية وتتضح صلاتها الكبيرة بها من جميع الزوايا ، وباستخدام مختلف المقاييس ٠٠ انما الذى نستطيع أن نقوله ، أنه وكما توجد هذه الكتابات ذات المستوى والأسلوب الأدبى البحث أو الكامل ، توجد أيضا هذه التى تقف - بلغتها وأسلوب كتابتها - بالقرب من لغة وأساليب الصحافة الحديثة ، وبعضها يقترب منها اقترابا شديدا ، لغة وأسلوبا أيضا .

٢ - ولسنا هنا فى مجال تصنيف وفهرسة وتقسيم لكتابات الرجل ، لكننا نقول ، من واقع مادته الموجودة فوق الصفحات نفسها أن الاقتراب من لغة الصحافة عند الجاحظ ، وأن الابتعاد عنها ، كان يفرضه الموضوع نفسه - ككل كاتب صحفى آخر - وكان هو الذى يوجهه نحو تلك العناصر والملاحق التى عدت أدبية كاملة أحيانا ، ولكنها فى أحيان أخرى مما يمكن اعتباره ضربا من الكتابة الصحفية ٠٠ وعموما - وقد كان الرجل موسوعيا ويملك أن يكتب ويغير ويجدد ويتنوع - فنحن نستطيع أن نقول ، مما تظهره الصفحات نفسها أن أكثر ألوان كتاباته التى شهدت مثل هذا الأسلوب القريب من الأسلوب الصحفى كانت هى الكتابات الاخبارية والاجتماعية الواقعية والفكاهية والنقدية أولا ، وكانت هى الكتابات التاريخية ثانيا ، وكانت هى الكتابات السياسية ثالثا ، وكانت هى الكتابات العلمية فى المحل الرابع ٠٠ بحيث نستطيع توزيع هذه كلها على مختلف ألوان الأسلوب الصحفى أو نوعياته التى أشرنا إليها فى السطور القليلة السابقة .

٣ - فإذا نظرنا الى القائمة السابقة نفسها ، وحاولنا التقريب بينها

( الجاحظ )

وبين جوانب الأسلوب الجاحظى التى كانت تسيج هذه الموضوعات ،  
وانكشابات لوجدنا ان أكثر ما تأخذ من هذه الخصائص ، أو تكون أقربها  
اليها :

● صحة اللغة وسلامتها نحوا ، ومن الذى يمكنه أن يقول بغير  
ذلك ؟ بل لعل مثلى ، وغيرى ممن هم أكثر منى قدرة ومعرفة بهذا الجانب ،  
لا يستطيع - أيهم - أن يقول بغيره ، ومن ثم فهذا الجانب قد يكون مجال  
أخذ ورد عند كبار علماء اللغة ، ولكن - على الأقل - ليس عندى ، أو ليس  
بالنسبة لتوجهات وامكانيات هذا البحث نفسه ، بل انه ليعتبر من قبيل  
البديهييات .

● الوصف الحى الواقعى لما شهده أو سمعه أو قيل أو روى له  
خاصة عندما كان يصف أحوال الناس والفئات والطبقات الاجتماعية الموجودة  
فى مجتمعه ، وما يتصل بها من صبر ومشاهد بعضها إيجابى ، وبعضها  
الآخر سلبى . جميعها واقعية لا خيالية وليست كذلك من بنات أفكاره .

● الاختيار الصحيح والكامل لنوعية اللغة ومستوى الأسلوب  
وما يتصل بهما من الفاظ ومفردات ، تصلح قبل غيرها للتعبير عن مادة معينة  
أو مضمون دون آخر وكأنه بذلك كله كان يعرف أو يتوقع أو يستشف من هم  
الذين سيقبلون على قراءة المادة ، أو الأخرى ، أو الثالثة .

● وقد ترتب على ذلك أن يكون لكل كتابة ما يتصل بها اتصالا  
وثيقا ، ولكل موضوع ما يرتبط به قبل ارتباطه بغيره ، وفى سبيل ذلك ، فإن  
الرجل قد توصل الى نوع من المعرفة والادراك ليس لمستويات التعبير الأدبى  
فقط ، وانما لمستويات التعبير الموضوعى . أو الاجتماعى ، أو العملى تلك  
التى تساوى عندنا وتعبّر عن مستويات التعبير الصحفى نفسها ، والسابقة  
الإشارة اليها .

ان كتاباته الإخبارية ، غير اللغوية ، غير التاريخية ، غير الفكاهية ،  
لكل منها ملامحها المتصلة يمانتها ، دون أن تترك تماما « الساحة الجاحظية »  
وانما كانت ترتبط بالخصائص الجاحظية عامة ، أو يشدها الرجل اليها بحبل  
متين من هذه الخصائص نفسها .

أى أننا - فى واقع الأمر - نجد أن للرجل طريقتين لا طريقة واحدة ، وأسلوبين لا أسلوبا واحدا ، فهناك الخصائص العامة الشائعة للكتابات الجاحظية فى مجموعها ، تلك التى نتناولها الآن ، وهناك أيضا تلك التى تتفرع عنها ، والتى تتصل برؤيته لكل فن من الفنون على حدة ، والتى ترتبط بهذا الفن ارتباطا شديدا وقد ألمحنا إلى هذه الخصائص وتوقفنا عندها خلال الصفحات السابقة ٠٠

● أن تكون كتابته محلاة أو مزدانة بذلك القدر البسيط والسهل ، غير المبالغ فيه ٠ أو المعقد من أساليب الجمال ، أو ما يطلق عليه رجال البلاغة ٠٠ من « الصنعة الزخرفية » ٠٠ فهو لم يسرف فى تقديم المحسنات البيديعية أو اللفظية ، ولم يحاول - مثل من سبقه - أن يجهد نفسه من ورائها ، أو أن يكون الشكل هنا فى المحل الأول تماما ٠٠ شأنه فى ذلك شأن كل كاتب ومحرر يحرص على أن يقدم ما يفهم ، وما هو سهل الوصول إلى فكر القارئ

● الحرص على جوانب الاثارة الحديثة والفكرية ، وذلك انطلاقا من أنه كان رجل الاعتزال والفكر والجدل ، ومن هنا فإن القارئ لبعض كتاباته الدينية والفلسفية والجدلية ليلمح فيها تلك الملامح العديدة التى يعرقها كتاب المقالات التحليلية ، من تلك التى تثير قضايا ومناقشات عديدة وهامة ٠٠ إن أسلوبه هو أسلوب ذلك الرجل الباحث عن الحقيقة ، الساعى وراء الفكر وله ٠

● وكثير من كتابات الرجل - ولا أقول كلها - يمكن لتلميذ الثانوى من المستوى العادى أن يطالعها ، وباستثناء بعض الكتابات الفلسفية والجدلية ، فإنه تسهل قراءة ومتابعة وتفهم معظم هذه الكتابات ، وما ذلك إلا لأنه أحسن اختيار اللفظ السهل والمفرد الواضح ، وبعد - قدر الطاقة - عن الغريب الوحش ، وهاجمه وتندربه ، ومن العجيب أن يثير ذلك حفيظة نقاده وضغينة حاسديه ، حيث عدوا ذلك عليه لاله ، وما علموا أن الرجل قد سبقهم بعدة مراحل ، حيث توصل إلى معرفة ما يقبل عليه الناس ، ويظل هكذا حتى اليوم ٠٠ ليكون الأقرب إلى لغة الصحافة ، ونثرها ٠

● وبالمثل ، وفى أكثر الأحوال ، فإن الرجل راح يبعد عن الرمز ،

ولم يستبد به الاغراق فيه قدر طاقته ، فمادته كتاب مفتوح ، ويبدو أنه فهم أن خير الأساليب هو ما يوصل الى المعنى من اقصر الطرق واسهلها أيضا ، وأقربها الى الأفهام والأسماع ، فكان له ما أراد . . . وليس ذلك كله ، من معالم أسلوب صحافة اليوم ؟

● مساعدة القارئ على المتابعة ، وتسهيل عملية القراءة عليه .  
فعدما يحس أن مادته من النوع الجاف يعمد الى تبسيطها ، أو يعرج على بعض الطرائف المتصلة بها ، وعندما يحس أن الموضوع بات طويلا يلف الى جانب آخر وحاول اللجوء الى فكرة مماثلة ، أو قدم بعض ما يعتبر محطات للقارئ ، أو عمد الى خفة الظل . . . أو الى غير ذلك مما يمكن أن يعينه عليه المؤلفون ، أو الباحثون ، لكن ذلك كان لهدف عنده . وكان الهدف هو الترويح عن القارئ ليدفعه الى مزيد من القراءة . . . والا فلماذا كان يكتب ؟

٤ - وأما عن هذه المستويات الفرعية للأسلوب الصحفي نفسه ، والتي أشرنا اليها ، فانتا نقول أن الرجل فهمها تماما ، ضمن فهمه أن لكل مقام مقال ، ولكل موضوع تفكيره الخاص وتعبيره الخاص أيضا ، ومن هنا كان بعض الاختلاف الوارد في كتابته ، من موضوع الى موضوع ، ومن مادة الى مادة ، ومن فكرة الى فكرة . . . حتى أنه راح يعمد أحيانا الى بعض الألفاظ غير العربية ، من تلك التي ترجمت وبنأ الناس استخدامها وأصبحت شائعة تجرى على ألسنتهم ، كما استخدم أحيانا بعض الألفاظ العامية . . . وإذا كان رجال اللغة والأدب يقولون عن ذلك أنه استخدمها لأنها «بنت أحظاها» أو «مراعاة لمقتضى الحال» فانتا نقول هنا ، أن ذلك مما يساعد على الاقتراب بين أسلوبه من جانب ، وبين الأسلوب الصحفي من جانب آخر . . .

٥ - وإذا كنا في مجال ودروس فن التحرير الصحفي ، نركز ضمن ما نركز عليه على أربعة جوانب أو عناصر أساسية ، تفصل القول فيها تفصيلا ، ونعتمد الى الاهتمام بزواياها ، وأبعادها المختلفة . . . عند دراستنا التطبيقية لها كما تبدو خلال أسلوب تحريرى لقن من القنون ، أو نمط من الأنماط ، أو لحرر هذا الفن أو كاتيه ، فانتا نفعل الطريقة نفسها مع هذه العناصر عند الرجل ومن هنا نقول . . .

● أما عن العنصر الأول فهو : الحرف : وباستقراء عدد من كتابات

الجاحظ مما قدمنا خلال السطور السابقة أو لم نقدم ، فإثنا نجد أن الطابع الغالب على حروف كلمات الجاحظ والفاظه ، كثيرا ما يقترب به من هذا الأسلوب الصحفي ، ومن بينها على سبيل المثال :

— أن حروفه كانت فى كثير من الأحوال تتميز بتعبيرها الصادق عن المعنى الذى تشير اليه الكلمة التى تتكون منها .

— أن أثرها النفسى كان يعمل عمله ، وكان من السهل على القارئ الفاهم والتمكن أن يضع يده عليه .

— أن مجمل حروف كلماته فى معظمها كان يقع بين الثلاثة حروف والخمسة حروف ، وهى النسبة الأنموذجية لعدد حروف الكلمة ، الاتصالية، السليمة التى تتصل الى الأسماع والأفهام فى سهولة ويسر ، بل وكلما كان عدد حروفها أقل — وهو ما رأيناه عنده — كان ذلك أقرب الى قراءتها وفهمها

— أنه لم يشق على الأذان والافهام بتلك الحروف الغضة الضخمة التى تكررت عند آخرين من الكتاب — الا لغرض واضح — وحتى فى حالة ذلك فقد كان الرجل يبتعد عنها قدر الطاقة .

— أنه كان يحافظ على الجرس الموسيقى للحرف ، دون اسراف فى ذلك ، وبدون تعمد له ، وكانت الموسيقى هذه من النوع الهادئ لا الصاخب، من النوع الذى يذكر بالقطع المتميزة من السيمفونيات التى تحكى مسرى النسيم وخرير المياه وتغريد البلابل ، وليست موسيقى « الجاز » الصاخبة ذات الجلبة والضجيج . . . وقد ظهر ذلك واضحا فى مقالاته ذات الصلة الوثيقة بالأدب الصحفى . . . وقد يسأل سائل هنا . . . هل يدخل هذا الجرس ضمن الأسلوب الصحفى ، وأقول فى أحوال قليلة ، عندما يوجد من يقدر عليه ، خاصة فى مجالات الأعمدة الانسانية واليوميات ، وعنوانات ومقدمات ونهايات بعض فنون التحرير . . . أقول فى أحوال قليلة ، وبالنسبة لبعض الفنون ، وبعض الوحدات التحريرية . . .

ثم أن هذه الجرس هنا لم يك ، صناعيا ، أو ، مفتعلا ، بحيث يحرص

الرجل عليه كل الحرص ، وإنما كانت موسيقى حروفه ومن ثم كلماته تأتي من فورها ، وبدون افتعال أو « فبركة » كما نقول نحن أرباب مهنة الصحافة

— أن حروفه المكونة لكلماته كانت فى كثير من الأحوال خالية من التكرار على مستوى الكلمة الواحدة ، والعبارة ، والفقرة أيضا ، فالحروف لا تتكرر الا قليلا ، وبالمثل كان الحال بالنسبة للحروف القريبة منها ، أو الشبيهة بها باستثناء ما يتكرر لغرض من الأغراض .

— وبالمثل فقد خلت الكلمات والجمل كثيرا من الحروف المتضادة ، التى تشق على القارئ والمستمع ، والتى نحذر طلاب التحرير الصحفى منها ، خاصة عند كتابة العنايات والمقدمات بأنواعها .

● وأما عن العنصر الثانى وتمثله هنا « الكلمات » أو « الألفاظ » ، تلك التى تبنى على العنصر السابق — الحروف — بحيث تمثل كل كلمة « مركبا » من عدد من الحروف ، فأننا نلاحظ على « اللفظ الجاحظى » اقترابه من « اللفظ الصحفى » فى وجوه كثيرة ، تضاف الى ما سبق أن أشرنا اليه منها ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر : « بدون ترتيب » .

« الوضوح والبساطة — حسن اختيار اللفظ المعبر عن المسادة أو الموضوع — وضع الكلمة المناسبة فى المكان المناسب — عدم تكرار حرف واحد ، أو حروف متشابهة أو متضادة فى الكلمة الواحدة ومن ثم فى العبارة الواحدة — الثراء الكبير والمتعدد للمعجم اللفظى الجاحظى والذى يندر أن تجد مثله عند كاتب آخر — التفاعل والتجاوب الكامل بين الكلمة وغيرها من الكلمات المكونة للجمله — دقة اللفظ المنتقى بعناية للتعبير عن المعنى المقصود — عدم الحاجة الى الاستعانة بالقواميس والمعاجم من أجل التعرف على معنى لفظ أو آخر — القدرة على التمييز بين المترادفات — الاهتمام بدلالة اللفظ أولا — عدم استخدام الكلمات القلقة أو غير محددة المعنى تماما — استخدام الكلمات الشائعة على الألسن وعلى الصفحات أولا — استخدام بعض الألفاظ الأعجمية أو المترجمة أو العامية فى أحوال قليلة ، اذا كانت متداولة بين الناس — البعد عن الكلمات غير المحددة المعانى تماما أو تلك التى تمثل رموزا غير محددة المعانى أو تختلف معانيها من شخص لآخر — استخدام الألفاظ صحيحة الاشتقاق » .



الى غير ذلك كله ، واذا كان البعض قد أخذ عليه عسودا من هذه الخصائص وعدّها دخيلة على الطابع السائد في عصره ، وبعبارة عما اصطلح عليه الفصحاء في كتبهم ومؤلفاتهم ، بل ومما أنكره عرب البادية أحيانا ، وذلك على الرغم من اعتراف البعض بقدرته .. انظر مثلا الى قول أحدهم : « قال أبو حيان ، قلت لأبي محمد الأندلسي ، يعنى عبد الله بن حمود الزيدى ، ما قولك فى الجاحظ والدينورى .. قال : أبو حنيفة الدينورى أكثر ندارة وأبى عثمان أكثر حلاوة ، ومعانى أبى عثمان لاثقة بالذفس سهلة فى السمع ولفظ أبى حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب » (١٥) .

إذا كان ذلك هو ما يتصل بالفاظ كلمات الرجل ، فانه هو نفسه كان له رأيه فى ذلك ، نعرضه فى نهاية هذا الفصل وعلى أثر تقديم عدد من الأقوال التى تتصل بهذا الموضوع نفسه : : لقدماء معاصرين له ، أو لحاليين من الأساتذة :

— ان أحد من تناولوه يذكر قول بديع الزمان الهمذاني فى وصف كلامه : « بديع الاشارات ، قريب العبارات قليل الاستعارات منقاد لعریان الكلام — يقصد واضحه — يستعمله ، نفر من معتاصه — يقصد غامضه وغريبه — يهمله فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ، أو لفظة غير مصنوعة » (١٦) .. ويضيف المؤلف قائلا ومما يقترب به أكثر من الأسلوب الصحفى : « كان همه أن يعبر بوضوح وعقوية بلغة مرنة غنية بالمفردات والمرادفات ، وكان يعنى عناية خاصة باختيار الكلمة التى تستوفى التعبير عن المعنى المقصود ، ولا يستكف عن استكمال التعابير الواقعية واللهجات العامية وخصوصا فى سرد الحوار ، وما قصده إلا إحياء صورة تامة عن موصوفاته فى أجوائها المختلفة » (١٧) ..

— ومثل ذلك يقول أحد رواد الدراسات الأدبية : « .. تدقيقه فى ألفاظه وانتخابها بحيث تلائم ما يصنعه أو يصوره حتى أنه ليحسب كلام المولدين والعوام بما فيه من لحن وخطأ لينقل اليك الواقع بكل ما فيه ، فهو يحكى دائما أخباره وحوادثه بلغتها الدقيقة ، وأكبر الظن أن هذه النزعة فيه هى التى حملته على أن يلهج فى كتبه ورسائله بفكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال » (١٨) .

٠٠ وماذا يفعل المحررون غير ذلك ؟  
ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن « اللفظ الجاحظي » وننتقل الى  
عنصر آخر هو :

● العنصر الثالث وتمثله هنا « العبارة » تلك التي تمثل هذا المركب  
العضوي من عدة كلمات ، او تمثل تلك المجموعة من الكلمات المترابطة ،  
الموجودة الى جوار بعضها ، والتي يكتمل بها التعبير المفيد ، المؤدى الى  
الفهم ، والتي يطلق عليها أيضا : « الجملة » ٠٠ ترى ، ما الذي يمكن أن  
نقوله عن « العبارة الجاحظية » ؟ وعن الصلة بينها وبين الأسلوب الصحفي ؟

اننا في الصحافة — وكما قلت في مؤلفات عديدة — نكتب لنقرأ ،  
ليطالعنا الناس ، ليفهم هؤلاء ، لكي نصل اليهم ، ويتم التواصل — بدرجاته —  
بيننا وبين القراء ، وحتى تتم القراءة ، والمتابعة ، ويتم التواصل وتؤدي  
دورنا فاننا نصل الى هؤلاء على جسور الحروف المكونة لكلمات ، والكلمات  
المكونة للعبارات ، والعبارات المكونة للفقار والفقار المكونة للنصوص  
التحريرية الصحفية ، أو للرسائل الاتصالية الصحفية التي تأتي في شكل  
خبر أو موضوع أو قصة أو تحقيق أو حديث أو مقال ٠٠ حتى نصل الى  
القراء ، وبالمركيز هنا على العبارة فانها لا بد وأن تكون :

- واضحة تماما .
- قصيرة يقدر الامكان .
- ذات نصيب قوى ومتناسك من الكلمات والحروف .
- تنتهي اليها العبارة السابقة عليها ، وتؤدي هي الى العبارة  
التالية لها في سهولة ويسر .

- لا تتكرر فيها الكلمات والحروف بدون داع .
- كل كلمة من كلماتها تقع في مكانها الصحيح .
- لا تكون محسوة بالمترايفات .
- ولا الروابط الكثيرة .
- ولا الجمل الاعتراضية ٠٠٠
- التي تقدم معنى مقيدا ، محددا ، وغير قلق .

- الصادقة والدقيقة التعبير عن المعنى المقصود وتصوير المشهد أو الموقف أو الشخصية .
- القوية التأثير وحدها ، والتي يزداد تأثيرها قوة مع اخواتها من العبارات الأرى .
- غير المقطعة ، أو الممزقة الأوصال .
- ذات الجرس البسيط والمعنوى .
- الخالية من الزخرف ، إلا ما ورد عفو الخاطر .
- الى غير ذلك كله .

٠٠ تلك هي عباراتنا الصحفية عامة أو التي تصلح للاستخدام على مستوى التحرير الصحفي .٠٠ فهل للعبارات الجاحظية صلة بها ؟ وما هو نوعها ؟

الحق أن استقراء التراث الجاحظي . ليضع يدنا على حقيقة تقول ، أن عباراته أو جملة ، قد تميزت بعدد كبير من هذه الخصائص الصحفية وكان من أبرزها — ونحن نتحدث هنا عن بلاغة صحفية إذا صح التعبير — أقول كان أبرزها خمسا على وجه التحديد ألا وهي :

١ — قصر العبارة وإيجازها خاصة بالنسبة لمادته التي اقتربت من الصحافة ، والتي أشرنا إليها من قبل ، وليس في جميع الأحوال انطلاقا من أنه « لكل مقام مقال » .

٢ — وقد ترتب على ذلك ، وبمراعاة ثروته اللغوية ومعجم مفرداته الكبير أن جاءت العبارة « قوية الحيك شديدة التماسك » (١٩) .٠٠ لا يسهل اختراقها ، ولا تسقط منها كلمة ما .

٣ — الوضوح الكامل للكلمات أو الحروف ومن ثم للتركيب العباري كله .

٤ — الخلو من الزخرف الصناعي قصر الاستطاعة . وعدم الحرص عليه وتركه يأتي عفو الخاطر .٠٠ ولعل ذلك هو ما عناه د . شوقي ضيف بقوله .٠٠ فالكتابة عنده ليست زخرفا خالصا يراد به الوشى والحلى ، وما ينتمج في ذلك من صور وتشبيهات واستعارات ، بل هي معان تؤدي في دقة تفسر الوقائع والأحداث تفسيراً لا تسترهُ أسجاف الاستعارات والأخيلة » (٢٠) .

٥ — العناية بأن تكون كل عبارة وحدة واحدة تقدم معنى مفيدا يثير القارئ ويشجعه على المتابعة والانطلاق نحو العبارات الأخرى التي تتكون منها الفقرة .

٥٥ — وليست هذه فقط هي ما تميزت به العبارة الجاحظية من خصائص فقد كانت هناك المعالم الأخرى التي تأخذ بنصيب من البلاغة بمعناها الأدبي، وبمعناها الصحفي معا ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

• حسن الربط بين العبارة والعبارة الأخرى — الترتيب المنطقي الجيد للعبارات في مجموعها — التقديم والتأخير للاسماء والأفعال بما يعمل على تقوية العبارة — عدم التكلف أو التحقيد — طرافة التعبير واستخدامها الذكي لكسر حدة جفاف عبارة أو أخرى ٥٥٥ وغيرها ٥٥ وهي مالا تقتصر معرفته على الأدباء فقط وإنما الأديب والصحفي معا ، وبالنسبة لأكثر فنون وأنماط التحرير الصحفي .

● وأما عن العنصر الرابع الذي تمثلته « الفقرة » ٥٥ فمن الطبيعي، وقد جاءت كل هذه المقدمات ، دقيقة ، وصائقة ، ومختصرة ، ومتناسكة ، وصحيحة ، أن تكون النتيجة من جنس هذه الخصائص كلها ، وإذا كانت النتيجة النهائية تتمثل في « النص » كله . أو المادة أو الموضوع من أوله الى آخره . فإن النتيجة الأولية تظهر ضمن إطار الفقرة ، تلك التي ينتهي إليها نسيج العبارات ، وتجمع هي بين أكثر من عبارة ٥٥ وحيث يمكننا أن نضع أيدينا على أكثر من خصيصة واحدة للفقر الجاحظية ، تقترب كثيرا من تلك التي تشترط في « الفقر الصحفي » ٥٥ ومن بينها ، أو من أهمها :

— الطول المناسب للفقرة المناسبة للمادة المناسبة ، فهي تختلف من مادة خبرية الى قصصية الى مقالية مثلا ، مع غلبة طابع الفقرات القصيرة .

— كون كل فقرة عبارة عن وحدة واحدة متماسكة وقائمة بذاتها .

— كون كل فقرة مما تتضمن فكرة واحدة رئيسية ، أو فرعية . تتناول من زاوية جديدة أو مختلفة .

— كون فقرات البداية عنده أشد قصرا وتماسكا من فقرات الوسط  
في أغلب الأحوال .

— وضوح الفقرة في مجموعها ، وبساطتها وسهولة توجيهها الى  
الآذان .

— أن يكون ارتباطها بالفقرة السابقة عليها أو انفصالها عنها يعود  
الى الفكرة ذاتها ، والى المادة نفسها وطبيعتها ، فهي على المستوى الاخباري،  
غيرها على مستوى القصص والتحقيقات غيرها على مستوى المقالات . كما  
أن ذلك راجع الى أهمية المادة نفسها . وضرورة هذه الفقرة بالنسبة للنص  
كله .

— كذلك فقد حفلت هذه الفقر الجاحظية بفضيلة أخرى ، تلك هي  
عدم التردد بين الجمل القصيرة جدا والطويلة جدا ، داخل أطوار الفقرة  
الواحدة . بحيث يحدث نوع من الاقتراب والتماثل والتشابه بين طول  
العبارات المكونة للفقرة .

— وهي لم تزخر بالروابط ، والجمل الاعتراضية والاسماء الكثيرة  
والطويلة والمركبة .

— وجود نوع من التسلسل المنطقي للأفكار الرئيسة والفرعية ،  
بحيث تقود هذه الى تلك ، والى الثانية والثالثة ، حتى الفقرة  
الآخرة . وهكذا .

لا نترك ذلك كله . دون الإشارة الى عدد من الأمثلة الدالة عليه ، من  
المعين الجاحظي الكبير ، ومما سبق أن قمنا عدة سطور منه ، أو من سطور  
جديدة لم نقدمها خلال الصفحات السابقة .

فالحاحظ كان يعنى بانتخاب العاظه التي تؤدي الغرض وتوصل الى  
المعنى وتكون أكثر ملاءمة له . واتفاقا مع الفهم والذوق ، ومع صدق التعبير  
وراقعته ودقته ، في نفس البرقت الذي يكون فيه اللفظ عاديا سهلا بمسيطا ،  
وليس ضخما غريبا وحشيا حتى أنه استخدم أحيانا بعض الألفاظ العامة .

والترجمة القريبة من الأذهان ، كما كان عدد حروفها قليلا ، وكانت هي غير متنافرة ، ولم يحدث الصراع أو التنافس بينها حرفا ولقطا .

● ● انظر مثلا الى هذه الألفاظ كلها التي لم يستخدمها غيره إلا قليلا ، أو كان يخاف استخدامها أو لا يقدر عليه بينما تبدو عادية جدا في ثنايا بيانه .

• الدماغ - الخيشوم - الشحمة - الاقتصاد - المسلمات - البشم -  
التخمة - الروعاء - النشرة - التشنيع - الاخبار - المعاش - الكرة  
الحامى - المزاج - الدمائية - الضاحك - المضحك - التركيب - المسادة -  
العله - الآلة - الفلاحة - المعارضة - السلامة - النمو - قط - النزهة -  
العدة - الخفى - الشاهد - الواقف - الرئاسة - النتاج - التقويم - الآثار -  
الخطر - الفرقة - المسلوق - المالح - السمن - الشواء - التعارف -  
الدليل - الوقاح - المناضلة - الحيارى - الانداعة - الجماد - الأفلاك ، •

● ● وانظر كذلك الى هذه الطائفة من الكلمات والتعابير الشعبية وروح الفكاهة التي تسرى في هذه الاوصاف :

• سقط على أنفه الذباب - من غير أن يحرك أرنبته - مقرط القصر  
ويدعى أنه مقرط الطول - عدوت منه شوطا لم أتكلف مثله منذ كنت صبيا -  
وكان مربعا - وعليك لهم اذا اضطجعت مسائل - وتحصيه مدورا - ان شئت  
فأكله وموتة وإن شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة - اللهم العن هذه  
الصلعة ١ - كان اماما فى البخل - ينهشها طولا وعرضا ورفعها وخفضا -  
كان أسخى الناس على طعام غيره وأبخل الناس على طعام نفسه - يأكل  
بعشرة - الكظيف - شق قميصه من الطرب - التشال - اللكام - النباش -  
النشاف - المصاص - الثهاش ، •

الى غير ذلك من الكلمات والتعابير الشعبية والعامية والفكاهة .

● ● وانظر كذلك الى هذه التراكيب العبيدة والسهلة التي وردت ضمن كتابات الرجل مما يذكرنا بتعابير وتراكيب كبار كتاب المقال فى صحف اليوم :

« كاد الشاعر يخرج من جلده - شهاد عيان - الحمى المركب -  
أعجزتهم الحيلة - دارت بهم الحال - أرباب الوبيلة - أخبر الخلق - تعظيم  
البيان - صاحب الخير - صاحب الشر - نوات الاقتصاد - وقعت بين نابي  
أسد ... الخ » ..

● ● كذلك ، فقد كان من معالم أسلوبه - كما نكرنا - الذي يقترب  
من الأسلوب الصحفي كثيرا أن عباراته كانت قصيرة متماسكة ، بحيث لم  
يزد طولها عن عشر كلمات إلا في القليل النادر ، بينما دارت معظمها حول  
نصف هذا العدد من الكلمات ، وفي أحيان كانت تقل عن خمس أيضا ، بل  
وكانت عنده المقدرة على أن يقدم لنا عبارات عديدة تدور حول كلمتين أو  
ثلاث فقط ، اقرأ معنا على سبيل المثال لا الحصر .. هذه الفقرة من بيانه :

« .. ومن لك بطبيب أعرابي ، ومن لك برومي هندي ، ويفارسي يوناني !  
وبقديم مولد وبميت ممتع ! ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر ، والنقص  
والواقر ، والخفي والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرقيع والوضيع ، والغث  
والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده » (الحيوان ج ١ من المقدمة) ..

الى غير ذلك كله ، من هذه الكلمات السهلة ، السلسلة المنسابة ، ومن  
العبارات القصيرة والفقرات أيضا .

والخلاصة ، أن الجاحظ في هذا الجانب الصحفي من جوانبه ، عرف  
ككل صحفي آخر ، كيف يبحث عما يريد أن يقول ، وكيف يختاره من بين  
ما تجمع لديه من محصولة ؟ ثم كيف يعبر عن ذلك ، بالطريقة التي يفهمها  
أكثر القراء ؟ لقد عرف ماذا يقول ؟ وكيف يقول ؟ وبأي أسلوب أيضا ؟

وكما قلنا .. لا تترك هذا المجال ، دون إشارة الى أقوال الرجل نفسها  
التي تتصل بهذه الأمور من الفاظ وتعابير وأساليب أزع عن يقين أنها تصلح  
تماما ، لتعطى في قاعات الدرس الصحفي ، وفي معامل التحرير على وجه  
الخصوص .. أن من بينها على سبيل المثال ، هذه الأقوال :

● « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني

نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجزل للجزل والافصاح فى موضع الافصاح والكناية فى موضع الكناية والاسترسال فى موضع الاسترسال « (٢١) » .

● « ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت بعد امتحان سواها — ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل » (٢٢) .

● « ... وانما الألفاظ على اقدار المعانى فكثيرها لكثيرها ، وقليلها لقليلها وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها ... » (٢٣) .

● « ... وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه » (٢٤) .

● « ... ومتى كان اللفظ أيضا كريما فى نفسه ، متخيلا فى جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئا من التعقيد ، حبيب اليه النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول وهشت اليه الأسماع وارتاحت القلوب » (٢٥) .

... ويعهد ..

- فهذا رجل أخذ من كل بستان زهرة .
- وروى الأخبار التى كانت حالية ساخنة وقت روايتها .
- وسعى وانتقل من مكان لكان ورجل طلبا لها وللعلم والثقافة .
- وكانت له مصادر عديدة المسموعة والمقروءة معا .
- وصور عصره أبلغ تصوير بما فيه ومن فيه .
- بدقة ، وموضوعية ، وفى اختصار .
- ولم يهتم كثيرا بالمصنعة أو الزخرف أو الوسائل البيانية .
- ولم يهتم كثيرا بالخيال ... بل هو الواقع .
- وهو المعنى قبل اللفظ ...

فضلا عن انه قرأ كل فن معروف ، ومارس كل علم معروف ، وسعى وراء كل فكر معروف ...



واقترح كل الافاق الجديدة التى انتجها عصره ، وسبق غيره باقتحامها ،  
بل كان من المبشرين بها ..

وكان بكل ذلك ، اكثر الكاتبين فى عصره الذين اقبل القراء عليهم بكل  
شغف وعجب أيضا .

وما يزال اكثر كتاب عصره الذين يقبل عليهم القارئ .. حتى اليوم ،  
بعد أن نجحت كتاباته بكل هذا الذى توافر لها من أن تعبر القرون ، وتصل  
الينا وبعضها كأنه كتب بالامس القريب فقط ، وبعضها الآخر كأنه كتب اليوم ..

ولو عاش الرجل بين ظهرانينا ، لكان أحد الأقدان من كتاب عصرنا  
أيضا ولسعت من ورائه نوعيات كثيرة من الصحف والمجلات ، ولاحتل بين  
محرريها مكانا بارزا ومرموقا ، وما كان أجبره بذلك .. وهو الأنسب  
الصحفى .. معا .. أو هكذا أردت أن أقول .

---

هوامش هذا الفصل :

- (١ - ٢) أحمد الشايب : « الأسلوب » ص ٤٥ .
- (٢) عبد اللطيف حمزة : « المدخل في فن التحرير الصحفي » ص ٢٢٢
- (٤ - ٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .
- (٦) من بينهم الأساتذة الدكتور المرحوم عبد اللطيف حمزة ، والرحوم حسنين عبد القادر ، و د. إبراهيم امام ، وغيرهم .
- (٧ - ٨) محمود فهمي : « فن تحرير الصحف الكبرى » ص ٢٠ ، وما بعدها .
- (٩) اجلال خليفة : « اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي » ص ١٣
- (١١ - ١٢ - ١٣) عبد العزيز شرف : « اللغة الاعلامية » ص ١٩٧ ، ١٩٩
- (١٤) محمود أدهم : « المقال الصحفي » ص ٢٤٣ وما بعدها .
- (١٥) الجاحظ : « البخل » ص ٤٥٢ نقلا عن د. طه الحاجري .
- (١٦ - ١٧) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » ص ١٤٩ ، ١٤٥ .
- (١٨) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٣ .
- (١٩) الأب فيكتور شلحت اليسوعي : « النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ » ص ٥٥ .
- (٢٠) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٤ .
- (٢١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ٢ ص ٢٩ .
- (٢٢) المصدر السابق ص ٣٦٨ .
- (٢٣) المصدر السابق ، ج ٧ ص ٧ ، ٨ .
- (٢٤) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ٢ ص ٧٣ .
- (٢٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٨ .

## أهم مراجع الكتاب ومصادره

### أولا - معاجم وقواميس

- ١ - إبراهيم أنيس وآخرون : « المعجم الوسيط » مجمع اللغة العربية ، القاهرة .
- ٢ - أحمد محمد علي المقرئ الفيومي : « المصباح المنير في غريب الشرح الكبير » المطبعة الأميرية ، مصر .
- ٣ - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : « مختار الصحاح » وزارة المعارف ، مصر .
- ٤ - ياقوت الحموي : « معجم الألباء » دار المأمون .

### ثانيا - مصادر جاحظية

- ٥ - البخلاء : تحقيق طه الحاجري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ١٩٤٨
- ٦ - البخلاء ٤ ضبط وشرح أحمد العوامري وعلى الجسارم ، وزارة المعارف ، القاهرة ١٩٣٩ .
- ٧ - الحيوان : تحقيق عبد السلام هارون ، م الحلبي ، القاهرة ١٩٢٨ .
- ٨ - البيان والتبيين : تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٩ - رسائل الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون ، م الخانجي ، القاهرة ١٩٤٣ .
- ٩ - التربيع والتدوير : تحقيق فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية ، بيروت .
- ١٠ - البرصان والعرجان ٠٠٠ الخ : تحقيق محمد مرسى الخولي ، د . الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٢ .

### ثالثا - كتب مختلفة

- ١١ - أبو الحسن علي بن اسماعيل بن سيدة : « المخصص » وزارة المعارف القاهرة .
- ١٢ - أجلال خليفة : « اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ٧٢/٧٣ .
- ١٣ - أجلال خليفة : « الصحافة » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- ١٤ - أجلال خليفة . « علم التحرير الصحفي » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ .

( الجاحظ )

- ١٥ - أحمد الاسكندري وزميله : « الوسيط في الأدب العربي وتاريخه » المطبعة  
الرحمانية ، القاهرة .
- ١٦ - أحمد الشايب : « الأسلوب » م . النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ،  
١٩٧٦ .
- ١٧ - أحمد فريد الرفاعي : « عصر المأمون » دار الكتب ، القاهرة .
- ١٨ - أحمد كمال زكي : « الجاحظ » هيئة الكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- ١٩ - أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٢٠ - أحمد يوسف محمد خليفة : « نشأة النقد الأدبي حتى نهاية القرن  
الأول الهجري » م . الثقافة القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٢١ - السباعي بيومي : « تاريخ الأدب العربي » مطبعة الرسالة ، القاهرة  
١٩٥٨ .
- ٢٢ - بدوي طبانة : « البيان العربي » م . الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، القاهرة .
- ٢٣ - بدوي طبانة : « علم البيان » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٢٤ - توفيق الحكيم : « فن الأدب » مكتبة الآداب ، القاهرة .
- ٢٥ - جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » دار الكتاب اللبناني ،  
بيروت .
- ٢٦ - حسن السندويي : « أدب الجاحظ » المكتبة التجارية . القاهرة ١٩٢١ .
- ٢٧ - حسن بن عبد القادر : « الصحافة كمصدر للتاريخ » م . الأنجلو  
المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٢٨ - حنا الفاخوري : « الجاحظ » دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .
- ٢٩ - خليل صابات : « الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم » دار المعارف ،  
القاهرة ١٩٦٨ .
- ٣٠ - خليل صابات : « وسائل الاتصال : نشأتها وتطورها » م . الأنجلو  
المصرية القاهرة ١٩٨٤ .
- ٣١ - راجي صهيون : « مدخل إلى علم الصحافة » مترجم عن ف . فريزر  
بوند . مؤسسة بدران ، بيروت .
- ٣٢ - زكي مبارك : « أدب القرن الرابع » دار الكتب المصرية ، القاهرة  
١٩٣٤ .
- ٣٣ - شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ط ٦ دار المعارف ،  
القاهرة .
- ٣٤ - شوقي ضيف : « النقد » دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٣٥ - طه الحارثي : « الجاحظ : حياته وآثاره » دار المعارف ، القاهرة .
- ٣٦ - طه حسين : « حديث الأربعاء » م . التجارية ، القاهرة ١٩٤٨ .
- ٣٧ - طه ندا : « الأدب المقارن » دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

- ٢٨ - عبد العزيز الغنم : « مدخل الى علم الصحافة » ج ١ . م . الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٢٩ - عبد العزيز شرف : « فن المقال الصحفي » دار المعارف . القاهرة ١٩٨١ .
- ٤٠ - عبد العزيز شرف : « اللغة الاعلامية » المركز الثقافى الجامعى . القاهرة ١٩٨٠ .
- ٤١ - عبد اللطيف حمزة : « مستقبل الصحافة فى مصر » دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٥٧ .
- ٤٢ - عبد اللطيف حمزة : « المدخل فى فن التحرير الصحفى » دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٤٣ - محمد أحمد خلف الله : « دراسات فى الأدب الإسلامى » لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٧٤ .
- ٤٤ - محمد زغلول سلام : « دراسات فى الأدب العربى » منشأة المعارف ، الاسكندرية .
- ٤٥ - محمد غنيمى هلال : « الأدب المقارن » دار النهضة مصر ، القاهرة .
- ٤٦ - محمد مصطفى غنيم : « مخبرو الصحف » مترجم عن د . بوتر . دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ٤٧ - محمود أدهم : « فن الخير » دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٤٨ - محمود أدهم : « فن تحرير التحقيق الصحفى » دار الشعب . القاهرة ١٩٧٩ .
- ٤٩ - محمود أدهم : « الفكرة الاعلامية » دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٣ .
- ٥٠ - محمود أدهم : « المقال الصحفى » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٤ .
- ٥١ - محمود أدهم : « التعريف بالمجلة » م . الثقافة . القاهرة ١٩٨٥ .
- ٥٢ - محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحرير الصحفى العام » القاهرة ١٩٨٥ .
- ٥٣ - محمود فهمى : « فن تحرير الصحف الكبرى » هيئة الكتاب . القاهرة
- ٥٤ - نبيل راجب : « دليل الناقد الأدبى » م . غريب . القاهرة ١٩٨١ .



## محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة
● تقديم	٥
● الفصل الأول : عن الصحافة والصحافيين والأدب الصحفي	٩ - ١٠ - ١١
عن الأدب وعن الصحافة	١٤
عن الأدب الصحفي	٢٢
مواش	٣١
● الفصل الثاني : معالم جاحظية	٢٢ - ٢٤ - ٢٥
تتاج عصره	٢٥
مكوناته	٤٢
التثقيف الذاتى	٥١
مواش	٥٨
● الفصل الثالث : شواهد صحفية	٥٩ - ٦٠
الرجل ومصدره	٦١
معايشة وحضور	٦٦
( أ ) فى المجال الدينى المعائدى	٦٩
( ب ) فى المجال الفكرى والعلمى والثقافى	٦٩
( ج ) فى المجال اللغوى والأدبى	٧٠
( د ) فى المجال الاجتماعى	٧١
( هـ ) فى مجال الامتاع الفكاهى	٧٢
شاهد على العصر	٧٤
٠٠٠ وأكثر من حاسة	٨٠
( ١ ) الحاسة الاخبارية	٨١
( ٢ ) الحاسة السياسية	٨٢
( ٣ ) الحاسة الاتصالية	٨٥
( ٤ ) الحاسة الجماهيرية	٨٨
( ٥ ) الحاسة الفكاهية	٩٠
مواش	٩٢

الموضوع	الصفحة
● الفصل الرابع : الحاسة الصحفية عند الجاحظ	٩٥ — ٩٦
« أولاً : اشارات ودلالات سريعة . . . »	١٠٢
ثانيا : شواهد صحفية مختلفة . . . »	١٠٤
( ١ ) الأفكار الصحفية الجديدة . . . »	١٠٥
( ٢ ) حول الأخبار الجاحظية . . . »	١١١
( ٣ ) « . . . وشواهد أخرى . . . »	١٦
( ٤ ) « يؤلف فقط ١٠٠ أم يجمع أيضا ؟ »	١٢٥
هوامش . . . . .	١٣١
● الفصل الخامس : جذور الفنون الصحفية في	
أدب الجاحظ . . . . .	١٢٣ — ١٢٤
( أ ) كتاباته وجذور الحديث الصحفي . . . »	١٣٨
( ب ) كتاباته وفن التحقيق الصحفي . . . »	١٥١
( ج ) كتاباته وفن المقال الصحفي . . . »	١٥١
المقال المختصر . . . . .	١٥٧
مقال المناسبات . . . . .	١٥٨
المقال الاعلاني . . . . .	١٥٩
المقال الصحفي العام . . . . .	١٥٩
المقال العرضي . . . . .	١٦١
المقال التحليلي . . . . .	١٦٢
المقال النقدي . . . . .	١٦٦
مقال التخصص العام . . . . .	
المقال الفكاهي الكاريكاتيري . . . . .	١٧٦
المقال الافتتاحي . . . . .	١٨٧
هوامش . . . . .	١٩٢
● الفصل السادس : عن الأسلوب الجاحظي	
« الجاحظ والأسلوب الصحفي » . . . »	١٩٥ — ١٩٦
أولاً — الأسلوب : ماذا يعني ؟ . . . »	١٩٧
ثانياً — عن الأسلوب الصحفي . . . »	٢٠٢
ثالثاً — الجاحظ والأسلوب الصحفي . . . »	٢٠٦
الجاحظ ومستويات التعبير . . . »	٢٠٩



الموضوع	الصفحة
حول الحروف التي استخدمها . . . .	٢١٣
الكلمات الجاحظية . . . . .	٢١٤
العبارات الجاحظية . . . . .	٢١٦
الفقرة عند الجاحظ . . . . .	٢١٨
مواش . . . . .	٢٢٤
● أهم مراجع الكتاب . . . . .	٢٢٥



تم بحمد الله  
ويليه يعونه تعالى كتاب جديد  
فى سلسلة  
فنون التحرير الصحفى  
بين الأصالة والمعاصرة

( الجاحظ )



## هذا الكتاب وغيره من الآثار العلمية للمؤلف

### الدكتور محمود أدهم تطلب من :

- ❶ وكالة الأهرام للتوزيع . شارع الجلاء بالقاهرة .
- ❷ مكتبة الأنجلو المصرية : ١٦٥ ش محمد فريد بالقاهرة .
- ❸ دار الفكر العربى : ١٦ ، ١١ ش جواد حسنى بالقاهرة .
- ❹ دار الشعب : ش قصر العينى بالقاهرة .
- ❺ دار الثقافة للطباعة والنشر : ش كامل صدقى بالفجالة بالقاهرة
- ❻ المركز العربى للصحافة : ٢٢ ش قصر النيل بالقاهرة .
- ❼ عالم الكتب : ٢٨ ش عبد الخالق ثروت بالقاهرة .
- ❽ دار الفكر الحديث : ١٥ ش شريف بالقاهرة .
- ❾ دار النهضة المصرية : شارع عدلى بالقاهرة .

### ❶❷ ومن المؤلف :

- ص ب ٥٠٤٦ هليوموليس غرب / القاهرة
- أو ٢٥ ش محمد فريد / مصر الجديدة / شقة ٤١ .
- ب ٢٤٢٢٤٢٨

رقم الايداع ٢٤٦٦ / ٨٦



## ● ● مؤلفات الدكتور : محمود أدهم في الإعلام الصحفي

- ١ - في الخبر .
- ٢ - التحقيق الصحفي .
- ٣ - مقدمة في التحرير الاخبارى .
- ٤ - هم والصحافة .
- ٥ - فن تحرير التحقيق الصحفي .
- ٦ - المدخل في فن الحديث الصحفي
- ٧ - دراسات في التحرير الاخبارى .
- ٨ - الفكرة الاعلامية .
- ٩ - ماجريات الصحف .
- ١٠ - دراسات في فن الحديث الصحفي .
- ١١ - المقال الصحفي .
- ١٢ - الأسس الفنية للتحرير الصحفي العام .
- ١٣ - المقابلات الاعلامية .
- ١٤ - التحقيق الأنموذجى وصحافة الغد .
- ١٥ - التعريف بالمجلة .
- ١٦ - جريدة الأهرام وفن التحقيق الصحفي .
- ١٧ - في عالم المجلة .
- ١٨ - دراسات في صحافة المجلة .
- ١٩ - أدب الجاحظ .. من زاوية صحفية .

## ● ● تحت الطبع للمؤلف :

- ١ - دراسات في فن التحقيق الصحفي .
- ٢ - عروش وأقلام .



To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)